مكتبة الدراسات التاريخية

الهيلينية فى مصر

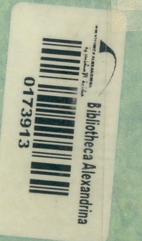
من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى

تأليف : سير هارولد إدريس بل

ترجمة : الدكتور زكى على



دار المعارف بمصر



الهيلينية في مصر

بحث في وسائل انتشارها وعوامل اضمحلالها
من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي

مكتبة الدراسات التاريخية

الهيلينية في مصر

بحث في وسائل انتشارها وعوامل اضمحلالها من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي

تأليف

سير هارولد إدريس بل

ترجمة

زكي علي

أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب

بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لمؤلف هذا الكتاب ، سير هارولد ادريس بل منزلة رفيعة لدى المشتغلين بدراسة التاريخ القديم ، فهو من الأئمة الأعلام ، لما يمتاز به من دقة فى البحث وتعمق فى الاطلاع والمعرفة بالوثائق والنصوص البردية بوجه خاص ، ولعل الظروف هيأت له السبيل إلى ذلك ، إذ كان يشغل فى مستهل حياته وظيفة أمين بالمتحف البريطانى ، فأتاح له ذلك دراسة الوثائق اليونانية المحفوظة بدار المتحف ومقارنتها بغيرها من المجموعات البردية لدى الهيئات والجامعات والأفراد ، ثم الاضطلاع بتدريسها فى جامعة أكسفورد ونشر بعض منها فى كتابه عن « اليهود والمسيحيين فى مصر » سنة ١٩٢٤ ؛ وعقب اعتزاله العمل بالمتحف ، عكف فى « أبريسوث » بويلز ، على إخراج كتابه عن مجموعة « أوراق بردى مرتون » سنة ١٩٤٨ بالاشتراك مع كولفن روبرتس ، ومؤلفه عن « مصر من الإسكندر حتى الفتح الإسلامى » ثم كتابه الأخير عن « العبادات والمعتقدات فى مصر اليونانية — الرومانية » ، وقد نشر سنة ١٩٥٣ ، وله فضلا عن ذلك طائفة من البحوث القيمة المنشورة فى مختلف المجلات العلمية وموسوعات التاريخ القديم بأوربا وأمريكا ، وكان فى أغلب هذه المؤلفات والبحوث يتخذ من تاريخ مصر محوراً لدراساته ، فعنى بنواح عديدة من تاريخ مصر فى حقب متعاقبة هى العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية فكان حجة فيما يكتب .

والمتصفح للكتاب الذى نحن بصدده ، يلمس لأول وهلة مايمتاز به هذا المؤلف من سعة الاطلاع والمعرفة الوثيقة بالمصادر الأصلية من أدبية ووثائق بردية ، ولذلك جاءت أحكامه مدعمة دائماً بالأسانيد والاقتباسات وأتاح للقارئ فرصة التعرف إلى أحوال مصر ، مصورة بقلمه فى ثوب قشيب على نحو ما أوحت به إليه دراسة تلك الوثائق الشائقة .

ومن ميزات هذا الكتاب أنه ، على صغر حجمه ، جاء شاملا لأمهات المسائل والموضوعات التى قد يعرض لها الباحث فى تاريخ مصر فى حقب من أهم الفترات التى مرت بها البلاد وهى عصور البطالمة والرومان والبيزنطيين ، إلى أن جاء الإسلام فأبقى على كثير من الأوضاع والنظم الاقتصادية والاجتماعية التى كانت مرعية من قبل . فالكتاب بهذا الوصف يعتبر من الكتب الأساسية لمن يريد التعرف إلى أحوال مصر فى عصور حاسمة من تاريخها .

على أنى عند ما تصديت لترجمة هذا الكتاب منذ بضع سنوات ، حرصت قبل كل شيء على الحصول على إذن بذلك من ناشره ومؤلفه وقد أذنت بذلك دار كلارندون للطباعة والنشر بأكسفورد كما تفضل المؤلف فزودنى بجميع التعديلات التى رأى إدخالها على المتن المنشور وصحح بعض التواريخ الهامة ؛ وقمت بإدخال كل هذه التعديلات والتصويبات مع الإشارة إلى ذلك فى الحواشى ، وقد زودت الكتاب بطائفة من الصور لأهم الشخصيات والموضوعات من قبيل التوضيح ، وإنى لآمل أن تخرج هذه الترجمة أوفى ماتكون وأن تسد بعض النقص فى هذا الميدان .

المترجم

مقدمة المؤلف

يحتوى هذا الكتاب ، كما جاء فى صفحة العنوان ، على المحاضرات الجريجينوجية (Gregynog) ، التى أُلقيت بإشراف مؤسسة الأوانس ديفيز (Davies) جريجينوج فى كلية ويلز الجامعية بأبريسوث (Aberystwyth) فى نوفبر سنة ١٩٤٦ ؛ على أن أحد شروط تلك المؤسسة يقضى بأن يكون مآل تلك المحاضرات فى نهاية الأمر إلى النشر . وفى سبيل إعداد السلسلة الحالية من المحاضرات لهذا الغرض ، أدخلت عليها ما اقتضت الحال من التحوير فيها لتصبح فصولا ، وانتهزت تلك الفرصة ، لافى مراجعتها فحسب ، بل فى التوسع أيضاً بعض الشىء ، وذلك لكى يخرج منها فى موضوعها الواسع بحثٌ يكون أقل قصوراً ممايتوافر فى محاضرات ، يراعى فى إعداد ها الوقت المخصص لإلقائها وهونحوساعة ؛ وفيما عدا ذلك فإنها طبعت بالصورة التى ألقيت بها .

وكان المنهاج المرسوم لهذه المحاضرات يقضى بأن يكون إلقاؤها على مسمع جمهرة من الناس ، يتألف من أعضاء هيئة التدريس بالكلية ومن الطلاب والجمهور العام . على أنه لم يكن من المتوقع أن يشتمل هذا الجمهور على أكثر من فرد أو فردين، إن وُجدا ،من ذوى الإلمام والمعرفة الوثيقة بعلم أوراق البردى. وعلى ذلك لما كانت أسانيدى مستمدة فى أغلبها من أوراق البردى ، فإنى رأيت من الأصوب أن أستهل موضوعى ببيان وافٍ عن هذه الوثائق وعلم أوراق البردى . وفى الفصول الثلاثة الباقية بدا من الجلى أنه لم يكن هناك محل لمحاولة سرد تاريخ مصر السياسى بطريقة مسلسلة طوال عصر يبلغ زهاء ألف سنة تقع بين غزو الإسكندر والفتح العربى لتلك البلاد ، حتى ولو لم تكن قلة البراهين قد جعلت مثل هذه المهمة أمراً صعب المنال من الناحية العملية . وإن غاية ما أبغيه هو أن أقدم عرضاً عامًّا موجزاً ، متسماً بالوضوح واليسر فى القراءة جهد الطاقة وخالياً من المصطلحات الفنية بقدر الإمكان ومتناولا التطور الاقتصادى والاجتماعى

والإدارى ، مع الاكتفاء بذكر الحوادث والوقائع السياسية والإشارة إليها بمقدار ماقضت به الضرورة الناجمة عن علاقتها وصلتها بصلب الموضوع العام. والفكرة السائدة التى تربطه بين عناصر هذا الموضوع وتجعل منه وحدة شاملة ، هى كما يوحى به العنوان الفرعى ، مصير الهيلينية وسط البيئة المصرية وما جرى من تفاعل بين المظاهر والخصائص الهيلينية وبين مثيلاتها المصرية ، وما طرأ على العنصر الهيلينى من ضعف ألم به شيئاً فشيئاً إلى أن حل به الانهيار.

ولو أن هذا الكتاب صُنّف بوجه خاص لغير الإخصائيين من الناس ، فإنه قد يسترعى ، فيما آمل ، انتباه طائفة من الإخصائيين كذلك باعتباره ، على الأقل ، إلمامة فيها إحاطة يسيرة شاملة بأطراف هذ الموضوع ؛ وعلى ذلك ذيلت هذا الكتاب بحواشٍ خاصة بكل فصل وأوردت فيها الأدلة المتعلقة بمختلف الحقائق والمعلومات منقحاً بعض مالزم الإفصاح عنه بطريقة فيها تحكم وتعسف أكثر مما تسمح به الأدلة والبراهين فى عرض مجمل كهذا . ومراعاة لصالح أولئك القراء من غير الإخصائيين ممن قد يرغبون فى الاستزادة والتعمق فى دراسة هذا الموضوع ، أشرت إلى طائفة من الكتب والمقالات التى قد يجدون فيها بعض الفائدة ؛ ومن أجل هؤلاء القراء أنفسهم ، أضفت عقب الحواشى ثبتاً بأسماء الكتب والمراجع الخاصة بكل فصل ، مسبوقة بثبت أعم للكتب التى تتناول العصر كله . وقد روعيت العناية التامة فى اختيار هذه القوائم من المراجع . وفى مؤلف قُصد به أن يصدر بصفة خاصة لقراء الإنجليزية ، آثرت أن أذكر الكتب التى ظهرت باللغة الإنجليزية ، مما هو ميسور تناوله ، ولو أننى لم أدع منها تلك التى صدرت بلغات أجنبية ، حينما كان من المتعذر وجود كتاب مماثل فى الفائدة ليكون خير بديل باللغة الإنجليزية . وإن قائمة المؤلفات الخاصة بالبردى ، مع الإشارة إلى الأساليب المصطلح عليها فى ذكر تلك المراجع ، على نحو ماورد ضمن ثبت الكتب والمراجع الخاصة بالفصل الأول ، هى مع ذلك وافية إلى درجة لابأس بها ، ولم يحذف منها إلا بعض مؤلفات غير ذات بال . وإن ثبتاً أعم من هذا وأكثر إحاطة ، لما يتضمنه

وينتظمه من أوراق بردية ديموطيقية وقبطية ؛ لنجده فى صفحات ٥ — ١٦ من كتاب مختصر فى علم أوراق البردى (Papyrologisch Handboek) لمؤلفيه بيريمانز (Peremans) وڤيرجوت (Vergote)

وإنه لمن دواعي الغبطة أن أعبر عن شكرى للرئيس ايفور ايڤانز (Ifor Evans) والسلطات المشرفة على كلية ويلز الجامعية لإتاحتهم الفرصة لى للقيام بعمل وجدت فى الاضطلاع به فيضاً من الابتهاج والسرور ، كما أتوجه بالشكر إلى دار كلارندون للنشر والطباعة لقيامها بنشر هذا الكتاب ، وأخص بالتنويه مستر كولڤن ه . روبرتس (C.H. Roberts) الذى تفضل بقراءة المخطوط كله قبل طبعه وأدخل عليه بعض المقترحات القيمة جداً ، كما أزجى شكرى إلى ت . ك .سكيت (T.C. Skeat) من رجال المتحف البريطانى لنهوضه بتحقيق بعض المراجع القليلة فى كتب ومؤلفات لم تكن فى متناولى فى أبريسوث .

وإن أيام التقشف هذه لتحول دون إفراد صفحات برمتها لعمل الإهداء على النحو المرعى قديماً ، وعلى ذلك عولت على أن أدرج هنا إهدائى إلى صديق قديم هو ولهلم شوبارت (Wilhelm Schubart) أقدمه عنواناً على الصداقة الحقة .

هارولد إدريس بِل

فبراير سنة ١٩٤٨

محتويات الكتاب

	صفحة
الفصل الأول : البردى وعلم أوراق البردى	١٣
الفصل الثانى : العصر البطلمى	٤٣
الفصل الثالث : العصر الرومانى	٨٧
الفصل الرابع : العصر البيزنطى	١٣٠
الحواشى المرقمة :	
الفصل الأول :	١٧١
الفصل الثانى :	١٧٥
الفصل الثالث :	١٨٤
الفصل الرابع :	١٩٤
ثبت المراجع :	
قائمة بالمراجع العامة	٢٠٠
قائمة بمراجع الفصل الأول	٢٠٢
قائمة بمراجع الفصل الثانى	٢١٥
قائمة بمراجع الفصل الثالث	٢١٦
قائمة بمراجع الفصل الرابع	٢١٨

الفصل الأول

البردى وعلم أوراق البردى

كانت مصر فى جميع عصور تاريخها تحتل مركزاً خاصاً إلى حدٍّ ما بين بلاد العالم . وسوف يذكر قراء هيرودوت الفقرة الواردة فى الكتاب الثانى من تاريخه التى استطرد فيها من قبيل إثبات صدق دعواه بأن المصريين « ينحون فى أغلب طباعهم وعاداتهم نحواً مغايراً تماماً لما جرى عليه العُرف العام بين سائر البشر »[1] . فذكر ما كان لهم من خصائص عديدة فى الخصال والطباع ؛ على أنه يجب تقبل بعض هذه الأقوال بأكثر من « حفنة من الملح * » لأنه وإن لم يكن هيرودوت بالكذاب الأشر ، كما اتهمه بعض القدامى والمحدثين من النقاد فاعتبروه أحد هؤلاء ، فإنه لم يكن فى جميع الأحوال بالمدقق الفاحص بالقدر الذى كان ينتظر منه . ويبدو أن الأدلاّء من أهل البلاد — وهم الذين كان اعتماده عليهم بلا ريب إلى حد كبير فى كثير مما استقاه من معلومات — راق لهم التغرير به من قبيل العبث والتضليل بين حين وآخر . ولكن قول هيرودوت يُوضح بجلاء روح الاستغراب والدهشة والشعور بشىء فريد غير مألوف ، تملّك هيرودوت فى مصر كما استولى على غيره من السائحين الذين وفدوا إليها ، ومرجع تلك الغرابة التى انفردت بها مصر آخر الأمر ، إلى أسباب جغرافية ومناخية . وتمتد مصر الحديثة بوجه التقريب من خط طول الدرجة الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والعشرين ومن الواحدة والثلاثين إلى الثانية والعشرين من خط العرض وتضم داخل حدودها رقعة تبلغ مساحتها ٣٨٦,١١٠ أميال مربعة ، ولكن الجزء الأكبر من هذه الرقعة هو صحراء جرداء غير مأهولة بالسكان ،

* عن عبارة لاتينية (cum granu salis) جرى بعض علماء التاريخ القديم على اقتباسها ، وقد استعملها رستوفتزف فى كتابه « تاريخ الامبراطورية الرومانية الإجتماعى والإقتصادى » الفصل السادس ، ص ٢٣٣ ، للتعبير عن الشعور بالغضاضة والمضض . (المترجم)

أما مصر الحقيقية ، مصر التى يمكن للإنسان أن يعيش فيها ويحرث أرضها ، فلا تشغل سوى ١٣,٥٧٨ ميلا مربعاً — وهى مساحة لاتزيد كثيراً عن مساحة بلچيكا (التى تبلغ ١١,٧٥٠ ميلا مربعاً) — ويمكن تقسيم هذه الأجزاء من مصر المأهولة بالسكان إلى ثلاثة أقسام : فهناك أولا الدلتا وهى أرض ذات تربة غرينية — وسماها هيرودوت فى شىء كثير من التوفيق كما فعل هيكاتايوس من قبله : « هبة النيل »[٢] .ويرجع تكوينها إلى فجر العصر الحجرى القديم (الپاليوليثى) بفضل ما كان يحمله معه النيل السريع الجريان من غرين فيرسبه عند اتصاله بالبحر ، ثم هناك ثانياً بضع واحات تروى كلها فيما عدا واحدة منها ، بالآبار أو الينابيع التى تصفى فيها المياه الجوفية ، وثالثاً هناك وادى النيل — وهو فى الحق عبارة عن منخفض تحف به صخور من الجانبين ، وتُكوّن جرفاً يُعرف من ناحية بالصحراء الشرقية ومن الناحية الأخرى بالصحراء الليبية . وهذا الوادى ضيق جداً ، ويبلغ أقصى اتساع له فى العرض نحو أربعة عشر ميلاً ، ولكن فى مصر الوسطى يبلغ متوسط العرض نحو تسعة أميال ، وفى مصر العليا ينكمش الوادى حتى يبلغ ميلاً أو ميلين وفى بعض الأمكنة لايزيد اتساعه على شريط ضيق من الأرض المنزرعة على ضفة واحدة من النهر . ومصر فى شكلها أشبه بضفدع فى طور التكوين (فرخ أومايعرف بأبى ذنيبة) ذى رأس كبير وذنب طويل جداً . وطول هذا الذنب ابتداء من القاهرة حتى الحدود الحديثة شمال وادى حلفا يبلغ نحو ٥٦٠ ميلا قياساً بطير الغراب (كناية عن الخط المستقيم) ولكن إذا عملنا حساب الثنيات فى وداى النيل فإن هذا يبلغ ٧٦٠ ميلا ، والمسافة إلى أسوان — التى كانت على مدى أجيال طويلة ، الحد الحقيقى الذى تنتهى عنده مصر القديمة ، ولو أن ذلك لم يكن بصفة دائمة — تقدر بأقل من ٥٥٠ ميلاً .

وتتوقف كل هذه الرقعة على الرى فى بقائها مركزاً تدب الحياة البشرية فى أرجائه ، وفى الحقيقة ليس سقوط المطر بالنادر فى أثناء الشتاء فى الدلتا وفى القاهرة وإنما يقل سقوطه كلما اتجهنا جنوباً ، وفى الأقصر لاتسقط الأمطار بكمية إلا مرة كل ثلاث سنوات تقريباً . ولكن ليس من بين أقاليم مصر

ماتسقط عليه الأمطار بقدر كاف أو فى أوقات منتظمة بحيث يسمح بنمو النباتات . ويمكن أن يصدق القول إجمالا بأنه لاتوجد بقعة فى مصر يمكن أن تنبت فيها سنبلة من القمح أو ورقة من الحشيش دون أن تعتمد فى ريها إما على مياه الفيضان الطبيعى للنيل أو بالوسائل الصناعية ، ومصير أى قطعة من الأرض البور فى بلدة مصرية ألاتنبت بها الحشائش كما هى الحال فى إنجلترا ، بل تبقى مجرد رمال قحلة . ويمكن مشاهدة هذا بدرجة تسترعى النظر عند ما يسافر المرء بوساطة خط السكة الحديد المتفرع من الواسطى فى وادى النيل إلى مدينة الفيوم ، فعند نقطة معينة فى هذه الرحلة يشعر الإنسان فجأة بارتفاع فى مستوى الأرض يبلغ قدماً أو نحو ذلك . وفى الجانب المنخفض من هذه الرقعة المنبسطة نجد الخضرة النضرة والحقول الخصبة ، أما فى الجانب العلوى فليس إلا صحراء مغطاة بالرمال وتكتنفها الصخور .

ولاتروى الواحات ، وهى بطبيعتها عبارة عن منخفضات فى الهضبة الصحراوية ، إلا بالآبار والينابيع كما قلنا آنفاً ، والاستثناء الوحيد من ذلك هو أكبر تلك الواحات وأقربها إلى وادى النيل — تلك هى إقليم الفيوم الذى يقع على مسافة بضعة أميال فقط من الحافة الغربية للوادى ويروى بوساطة بحر يوسف أو قناة يوسف ، وسميت كذلك لأن الخرافة تقول بأن يوسف هو الذى حفرها عندما كان حاكماً لمصر فى عهد فرعون ، وهى فى الحق فرع طبيعى من أفرع النيل يخرج من مجراه الرئيسى بالقرب من أسيوط وبعد رى إقليم الفيوم يفرغ ماتبقى به من مياه فى البحيرة التى تسمى الآن ببركة قارون ولكنها كانت تسمى فى العصور القديمة ببحيرة موريس[٣] .

ونستنتج مما ذكرته أو من أى نظرة سطحية خاطفة لخريطة طبيعية لمصر أنها بلد يعيش فى عزلة تامة وتفصلها الصحراوات شاسعة من كلا جانبيها عن بقية أجزاء العالم ، وهى على هذا النحو بلد صعب المنال على من يروم غزوه . وإنى لأذكر أنى كنت أتسلى عند ما حاول صحفى أن يخفف من روح القلق الذى كان يساور الناس ، عندما أعلنت تركيا الحرب علينا فى الحرب العالمية

الأولى ، بقوله إنه لم يسبق أن كُلل غزو مصر بالنجاح من ناحية فلسطين ، وقد يكون أقرب إلى الصواب أن نقول إن غزوها لم يكلل بالنجاح من أى ناحية أخرى ، ولو أن مثل هذا القول لايخلو كذلك من الإسراف فى عدم الدقة ، فالعدو القادم من البحر عرضة لأن يجد سيره قد تعطل وعرقله تيه من القنوات التى تقطع أوصال الدلتا ؛ وهو الأمر الذى تكشف لجيش الصليبيين تحت إمرة القديس لويس ملك فرنسا فى سنة ١٢٤٩ — ١٢٥٠ ، وكما وجدت « شعوب البحر » من قبل ذلك بزمن طويل فى عهد رمسيس الثالث ، أما العدو الغازى الآتى من ناحية الغرب فإنه يقاسى الأمرين بسبب ضعف مركزه ؛ وهذا ماأدركه « روميل » عند العلمين ودفع ثمنه غالياً؛ فقد كان يحارب بعيداً عن قاعدته التى يرتكز إليها بمسافة تقدر بآلاف الأميال ، وليس من ورائه شيء سوى صحراء ومن أمامه عدو فى مكنته أن ينتفع بجميع موارد وادى النيل . حقيقة إنه وقعت غزوة أو غزوتان موفقتان من ناحية الغرب مثل فتح مصر على يد الخلافة الفاطمية فى سنة ٩٦٩ م . أو حملة نيكيتاس (Nicêtas) وهى التى سوف أتناولها بالذكر فى الفصل الأخير من هذا الكتاب . ولكن القاعدة تصدق بوجه عام فى أن غزاة مصر المظفرين وفدوا عليها من الشرق عبر شبه جزيرة سيناء ثم على طول الفرع الشرقى للنيل إلى حيث تقع الآن القاهرة ، ومن الجنوب يوجد مدخل عن طريق وادى النيل ، ولكن لم يحدث إلا فى القليل النادر أن قامت فى السودان دولة لها من القوة والسلطان ما يكفل لها تهديد مصر بأكثر من شن غارات ، القصد منها أعمال السلب والنهب ؛ وإن ضيق الحور فيما وراء أسوان وصعوبة الملاحة بسبب الشلال الأول جعل من اليسير الدفاع عن هذه البوابة الجنوبية كمفتاح للبلاد .

ولهذا الخصائص والمميزات الطبيعية لمصر أثر هام فى تطور الثقافة المصرية وتشكيل طابعها . أما عن نشأة تلك الحضارة وتطورها فلأن وادى النيل به عاملان مهمان فى الحث على تقدم الحضارة : فمن ناحية هناك التربة ذات الخصوبة العظيمة متى تم ريها كما ينبغى وتغذيتها سنوياً بما يتركه النهر فى أثناء

الفيضان من رواسب الغرين ، ومن الناحية الأخرى كان هناك الداعى المستمر إلى بذل الجهد — وهو جهد فى طابع تعاونى — فى سبيل التحكم فى مياه النهر والمحافظة عليها للانتفاع بها فى فصل التحاريق عند انخفاض النيل ثم فى مسح الأراضى التى كانت تضيع معالم حدودها كل عام بسبب الفيضان . وليست مصر بالبلد الذى يستطيع فيه الإنسان أن يعيش فى يسر وسهولة ولا هم له إلا أن يجنى الثمار التى وهبته إياها الطبيعة السخية دون بذل أى مجهود من جانبه على الإطلاق ، وليست بالبلد التى يستطيع فيها الإنسان أن ينصب مسكنه ويفلح أرضه ويرعى غنمه دون الرجوع إلى أى شخص آخر ، وآخر الأمر ليست بالبلدالذى يستنفد آخر قطرة من جهده لمجرد أن يضمن لنفسه ضرورات الحياة فى أرض تربتها غير خصبة وضد مناخ شديد قاس ، والدعوة إلى بذل الجهد والأمل فى جنى محصول غنى متى بذل مثل هذا الجهد والحصول على بعض الفائض الذى يمكن من قيام نظام اجتماعى له صفة الاستقرار والضمان — تلك كلها أمور كان من شأنها أن تجعل ألا يكون من قبيل الصدفة أن مصر — ويشترك معها بلاد مابين النهرين (وادى الفرات) ووادى السند — توافرت بها المقومات الأولى لقيام أول تطور للحضارة من البدائية الهمجية .

وإن طبيعة هذا البلد قد أثرت كذلك فى طابع الثقافة المصرية ؛ فسكنى المصريين فى واد طويل ضيق تفصلهم عن العالم الخارجى من كلا الجانبين مساحات شاسعة من الصحارى جعلتهم دائماً شعباً يكاد يعيش فى عزلة وذلك على الأقل قبل توافر الوسائل الحديثة فى النقل ؛ وإلى الجنوب ، حيث هيأ خور النيل ممراً ، كانت تسكن شعوب تقل دائماً درجة ثقافتها عن المصريين ، فكانت الصلات والروابط بينهم وبين الحضارات المماثلة أو الأعرق منزلة تجىء فقط من ناحية البحر وعن طريق الدلتا . وكان أمراً طبيعياً أن تكون النظم السائدة لديهم ذات طابع ذاتى إلى حد كبير وأن تكون خاصة بهم أنفسهم فى كثير من الأحوال ، وأن يستمسكوا بعاداتهم وخصالهم البالغة منتهى القدم بمثل هذه الصورة من التشبث والإصرار . ومن الطبيعى كذلك أن

يتطور فيما بينهم نوع من روح العزلة وشعور من الغرور القومى الذى يمكن تبين أثره فى كثير من الخرافات والتقاليد المصرية .

وهناك غير ذلك نتيجة سياسية يجدر ذكرها ، ففى الوادى الطويل الضيق يقوم النيل فى واقع الأمر بمثابة الطريق الرئيسى البديع لحركة المرور والمواصلات ولكن تياره سريع الجريان ولاسبيل مطلقاً لأن تكون المواصلات بين الوجهين القبلى والبحرى من مصر سريعة للغاية قبل أن يصبح استخدام قوة البخار ميسوراً ، وكانت العاصمة فى العصور التاريخية دائماً إما فى الدلتا أو على مقربة منها أو فى أقصى الجنوب فى الإقليم الطيبى (Thebaid) وبمعنى آخر كان المصير أحد أمرين : فإما أن يكون الطرف الشمالى من البلاد أو الجنوبى منها مكاناً قصياً عن مقر الحكومة وهذا يفسر ظاهرة متكررة فى التاريخ المصرى وهى صعوبة الاحتفاظ بالوحدة وميل الأطراف إلى الانفصال ، كلما أصبحت الحكومة المركزية ضعيفة .

وأخيراً هناك نتيجة أثبتت أنها على جانب من الأهمية ليس فى واقع الأمر بالنسبة للتاريخ فى حد ذاته بل للمؤرخ ، فجفاف تربة مصر فيه خير وقاية لاتجارى لحفظ ما دفن فى بطنها من مواد ، ولا مفر من أن يعترى البلى والفناء تلك المواد القابلة للتلف مثل الورق والرق والمنسوجات والخشب ، إن عاجلا أو آجلا ، فى أرض الممالك الأوربية والآسيوية الرطبة ، أما فى الرمال التى تحف فى كل مكان بالمناطق المنتزعة من مصر فإن تلك المواد تبقى فى واقع الأمر أبد الدهر طالما كانت الظروف مواتية ، وقد لا تكون هذه الظروف دائماً ملائمة : فالريح الصرصر العاتية التى تهب من الصحراء تبعث زوبعة من الرمال التى تهب وتتطاير فينجم عن ذلك أن نصوص البردى المدفون فى طياتها غالباً ماتمحى بفعل الاحتكاك ، ويبيد النمل الأبيض أوراق البردى أو الكتان أو الخشب ، ومع ذلك فليست هذه الأسباب ذات أثر فعال على الدوام . وقد أفدنا من التربة المصرية ثروة من الوثائق المكتوبة على أوراق البردى أو المواد الأخرى ، تفوق بكثير جداً ما هو ميسور فى أى بلد آخر فى العالم القديم .

وتعتمد هذه السلسلة من المحاضرات فى المقام الأول على البيّنة الواردة فى هذه الوثائق . ولكن قبل أن أعرض لهذه الوثائق نفسها أوأتناولها بالكلام أرى لزاماً علىّ أن أعالج موضوع البردى كمادة للكتابة وأن أتناول تاريخ الكشف عن أوراق البردى ونشأة هذا العلم * ؛ فمادة الكتابة وهى المقابل القديم للورق الذى نستخدمه (والذى استمدمنه فى الواقع اسمه باللغة الانجليزية) كانت تجهزمن ساق البردى — وهو نبات مائى كان كثير النمو فى مستنقعات الوجه البحرى من قديم الزمان ولو أنه انقرض الآن من هناك ؛ ويبدو أن الكثيرين كان يخامرهم الظن بأنه كان يجهز من قشور هذا النبات ولكن هذا خطأ محض ؛ فساق البردى المثلث الشكل يحتوى على لُبٍّ ليفى به عصارة شديدة اللزوجة وكان يصنع الورق بتقطيع هذا اللباب إلى شرائح رقيقة ثم تصف بعضها بجوار بعض وعندئذ توضع فوقها طبقة ثانية بحيث تكون فى زاوية قائمة بالنسبة للطبقة الأولى وكانت الطبقتان تلتصقان بتأثير الضغط إذ أن عصارة النبات مضافاً إليها ماء النيل تصبح لزجة بدرجة كافية لتحقيق هذا الغرض . وليس هناك ، فيما أعلم ، أى دليل حقيقى يؤيد القول بأن أى مادة لزجة صنعت واستخدمت لهذا الغرض ، والصحيفة التى تم صنعها على هذا النحو بحيث تكون أليافها من أحد جانبيها عمودية ومن الجانب الآخر أفقية تطرق بمدق لتنعيم الألياف الناشفة وعندئذ تصبح صالحة للاستعمال كمادة للكتابة .

ولكنها لم تكن تباع صفحات منفصلة فكل عدد من هذه الصفحات (وكل صفحة تسمى كولّيما kollêma) تلصق بعضها إلى بعض بمعجون اللصق ليتكون منها لفافة طويلة . وعلى هذه الصورة كان يخرج البردى من المصنع . وعلى المشترى أن يقتطع من اللفافة القدر الذى يفى بغرضه . وعند عمل لفافة تتخذ الحيطة عند لصق الصفحات (kollêmata) بعضها إلى بعض كيما تكون جميع الألياف الأفقية فى هذه الصفحات من جانب وتكون جميع الألياف العمودية من الجانب الآخر . والجانب الداخلى أو المعروف بالوجه

* نشر أخيراً (١٩٦٧) العالم البريطانى اريك تيرنر (Eric Turner) كتابه عن « البردى اليونانى » ، عرض فيه المؤلف لهذا الموضوع بإفاضة . (المترجم)

الصحيح (recto) هو الذى تكون فيه الألياف أفقية وهو الذى عنى فى الأصل بأن يستخدم للكتابة عليه ولكنه من اليسير على حد سواء أن يكتب على الجانب الخارجى أو المعروف بالظهر (verso) . وفى الحقيقة كان من غير المألوف تماماً أن يكمل النص المكتوب على الجانب الأفقى (recto) على ظاهره (verso) ولكن استخدام البردى المستعمل بعد أن يصبح النص المكتوب على جانبه الأفقى غير ذى موضوع ، كان شائعاً جداً إما فى مثل تلك الأغراض كالخطابات الخاصة وقوائم الحساب وعمل المسودات وصور من الوثائق الرسمية أو القانونية ومفكرات أو فى المخطوطات الرخيصة من الكتب الأدبية وبخاصة ماكان يُعد فيما يظن لاستعماله كتباً مدرسية .

وكان هناك استثناء واحد من هذه القاعدة التى تقضى بأن تكون الألياف فى اتجاه واحد وذلك أن الصحيفة الخارجية وهى المعروفة بالصحيفة الأولى . (protokollon) كانت تلصق على عكس ذلك بأن تكون الألياف العمودية بها إلى الداخل وأليافها الأفقية إلى الخارج ، وكان السبب فى ذلك أنه فى قرطاس (لفافة) كبير يظهر دائماً بعض الشد فى الطرف الخارجى فإذا كانت الألياف عمودية فى هذا الطرف الخارجى فقد ينجم عن ذلك خطر عدم تماسكها وانفصالها وبالتالى تتعرض البردية للتفكك ؛ وبوضع الألياف الأفقية فى الصفحة الأولى إلى الخارج أمكن تحاشى ذلك الخطر . وفى العصر البيزنطى — ولعله كذلك فى العصر الرومانى — جرت العادة أن يكتب على الوجه الباطنى من الصحيفة الأولى (protokollon) نص يذكر فيه اسم ولقب الموظف الذى كان له حق الإشراف على احتكار البردى وتصريف شئونه[٥] (وكان يلقب فى العصر البيزنطى بالكونت ، الشريف ، ولى النعم والمنح المقدسة) ، وعلى مُضى الزمان أخذ الاسم الذى كان يطلق على الصحيفة الأولى بروتوكولون (prôtokollon) يرتبط بهذا النص ، كما أصبح يطلق كذلك على الموضوع الذى يتلو ذلك ، ومن هنا نشأ الاستعمال المتداول لكلمة بروتوكول (protocol) ، مع أن معناها الأصلى هو « الصحيفة الأولى » فحسب .

ولم يكن البردى وحده هو مادة الكتابة المستعملة فى مصر ، بله العالم القديم بوجه عام ؛ فالجلود بعد تجهيزها كانت تستعمل فى ممالك عديدة بما فى ذلك مصر. وبفضل التحسينات التى أدخلتها المهارة الفنية على الجلود ، تطور البرشمان الرقيق أو الرق الذى آل به الأمر أن أصبح المادة الأساسية فى الكتابة فى العصور الوسطى ، ولايقوم الرق بأى دور فيما لدينا من آثار عثر عليها فى مصر اليونانية – الرومانية قبل القرن الثانى بعد الميلاد ، ولكن من ذلك التاريخ وما بعده ، أخذ يعم استعماله بدرجة مُطَّردة . ولدينا عينات عديدة ترجع إلى العصر البيزنطى ، أغلبها يعرض لموضوع أدبى أو لاهوتى ولكنها تشتمل على بعض الوثائق .

على أن قطع الشقافة كان استخدامها أعم وأشمل ، فالفخار الأحمر الخشن الملمس ، ذو المسام مما كان مستعملا فى مصر وغيرها من البلاد كان يتقبل المداد « الحبر » الذى ينتشر فيه بسهولة . ولما كان من اليسير التقاط كسرات من بقايا الأوانى الفخارية من أى كوم به سَقَط المتاع ، فليست هناك مادة تماثلها من حيث الرخص وسهولة الحصول عليها ، و كانت قطع الشقافة هذه أو « الأستراكا » تستخدم فى جميع الأغراض العاجلة و بخاصة فى كتابة « الإيصالات» الضرائبية ، كما كانت تستخدم كذلك فى تحرير الخطابات الخاصة والمذكرات وكشوف الحساب والكتب المدرسية ؛ وفى أجزاء مصر التى يتيسر فيها الحصول على ألواح من الحجر الجيرى السهل فى قطعه وشطفه كان الناس يعمدون إلى استخدام ألواح وشظايا منه ، وفى المجموعات الأثرية المحفوظة بالمتاحف كانت تكدس، أمثال تلك الألواح من الحجر الجيرى مع الشقافة ويسرى عليها جميعًا الاسم الشامل وهو الشقافة أو الأستراكا .

ومع ذلك فهناك مادة أخرى هى الألواح الخشبية التى كان فى الإمكان استخدامها بإحدى طريقتين : فإما أن تكتب الحروف بقلم ومداد على الخشب الذى كان فى هذه الحالة يُطلى غالبًا باللون الأبيض لكى تظهر الكتابة فيه واضحة جلية ، وإما يكون الخيار بصب شمع مذاب على لوح خشبى ،

أطرافه وحوافيه عالية ، وعندما يبرد الشمع يكوّن سطحاً مستوياً تحفر عليه الكتابة بوساطة أداة معدنية مدببة تسمى بالقلم (stilus) وأحد طرفى هذا القلم مستدير ويمكن الاستعانة به فى تسوية الشمع وصقل سطحه عندما يكون النص المكتوب من قبل به قد استنفد الغرض منه . وفى واقع الأمر كان من اليسير استخدام تلك الألواح على هذا النحو مرات عديدة مما جعلها ذات فائدة فى المدارس بصفة خاصة ، وعندما يكون المراد استعمالها فى المدارس كانت مجموعة منها تربط فى الغالب بخيط يمر فى ثقوب بالأطراف والحواف العالية وقد كسى اللوحان الخارجيان بالشمع من الناحية الداخلية فقط . وهى فى مجموعها أشبه ماتكون بكتاب حديث وكانت تعرف بدفتر ، كودكس (codex) ، وإنه لفى الحق اشتق من مثل تلك المجموعات من الألواح كلٌّ من شكل الدفتر واسمه ، تمييزاً له عن اللفافة (roll) ، ولم يكن استعمال الألواح الشمعية مقصوراً بحال ما على المدارس ؛ بل كانت تستعمل فى المذكرات وقوائم الحساب ومسودات الموضوعات الإنشائية ذات الصبغة الأدبية والخطابات الخاصة وفى كثير من أنواع الوثائق القانونية وبخاصة ماكان من هذه الوثائق أشبه بالوصايا وشهادات الميلاد وتعيين الأوصياء القانونيين ونحو ذلك . وفى الأغراض القانونية والرسمية كان الناس يعمدون إلى استخدام لوح مزدوج مؤلف من صفحتين —وأعنى بذلك لوحين مربوطين معاً . فكانت الوثيقة تكتب من صورتين على الشمع من الداخل وبالقلم والحبر على الخشب من الخارج ثم يربط هذا اللوح المزدوج ويختم بخاتم الشهود ، ويكتب كل واحد منهم اسمه على الخشب أمام خاتمه ، وإذا تسرب الشك إلى صحة وصدق الكتابة الخارجية (scriptura exterior) على أى نحو ، فإن الأختام تفض ويقارن هذا النص بما ورد فى الكتابة الداخلية (scriptura interior)[٦] .

وأخيراً لدينا من مصر كما لدينا من سائر البلاد الأخرى فى العالم اليونانى — الرومانى نقوش عديدة مدونة على الحجر أو البرونز .

لقد قلت إن تربة مصر تحفظ مايدفن فى باطنها من مواد حتى أسرعها

قابلية للتلف والبلى ومع ذلك فلا ينطبق هذا القول إلا على بعض أجزاء مصر ، فالبردى وإن كان مادة بها تماسك فى القوام وقوة الاحتمال إذا استعمل بحكمة وعناية ، سريع التلف إذا تأثر بالرطوبة ، وعلى ذلك فمن العبث أن يجرى البحث عنه فى أية بقعة تصل إليها مياه الفيضان ، ولهذا يتعين استبعاد الدلتا بأسرها كمصدر يحتمل وجود بردى فيه ، وفى الإسكندرية قامت أعظم مكتبة فى العالم القديم وكان فيها مستقر جامعة شهيرة ، وفى أرجائها عم نشاط أدبى واسع النطاق ، فكم من كنوز كان فى المستطاع الكشف عنها هناك لو أن الأحوال كانت مواتية ! ولكن الإسكندرية القديمة هى الآن تحت مستوى البحر ولم يحدث أن استخرجت من أرضها أية قصاصة من ورق البردى .

ولدينا فى واقع الأمر عدد من أوراق البردى مما كتب فى تلك المدينة ولكن العثور عليها كلها تمّ فى مكان آخر ، ولعلها — لسبب من الأسباب — كانت قد نقلت فى الزمن القديم إلى هذه الأمكنة .

وهناك فى واقع الأمر استثناءات من القاعدة التى تقول بأنه لاوجود للبردى فى الدلتا ؛ ففى موقع تانيس (Tanis) على مقربة من الحافة الشرقية للدلتا كشف سير فلندرز پيترى (Flinders Petrie) فى شتاء عام ١٨٨٣ — ١٨٨٤ فى قبو منزل اشتعلت فيه النيران فى الزمن القديم، عن مجموعة من لفائف البردى التى تحولت بتأثير الحرارة إلى حالة بدت كأنها كتل من فحم الخشب ، وكذلك تم كشف آخر فى مكان ثموئيس (Thmouis) * القديمة وكانت تقع على مسافة تقرب من خمسة وثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب الغربى من تانيس ؛ والنار التى التهمت المنازل ، حفظت فى الوقت نفسه البردى من التلف بتأثير الماء ، بتحويله إلى مادة كربونية . وقد أمكن بسط عدد منها وهى فى رُفعها كالشاش الرقيق ، ولايزال فى الإمكان قراءتها إذا سلط عليها القارئ ضوءاً ملائماً ، وقد قدمت اللفائف اليونانية المستخرجة من ثموئيس معلومات قيمة

* ثموئيس أحد أجزاء العاصمة القديمة منديس (Mendes) ومحلها الآن تمى الإمديد ، وهى قرية بمركز السنبلاوين ، دقهلية .

عن الأحوال الاقتصادية السائدة فى الإقليم المنديسى خلال القرن الثانى والحقبة الأولى من القرن الثالث بعد الميلاد(٧) .

وفيما عدا أمثال هذه الحالات الاستثنائية لاسبيل إلى العثور على مجموعات من البردى فى أية طبقة من تربة الأرض التى كان يجرى ريها بانتظام ؛ وهناك بالطبع مستوى لاتكون فيه الرطوبة محسوسة إلا بدرجة طفيفة ، وفى مثل هذه الطبقات قد يُعثر أحياناً على البردى وقد تأثرت حالته حقيقة ولكنه لم يعتره التلف بفعل الرطوبة ، وقد اسودّ شكله حتى أصبح لونه بنياً داكناً أشبه مايكون بنبات متفحم ، وبعد أن أصبح المداد مطفياً يمكن قراءة الكتابة فى الغالب بتعريض الوثيقة للضوء بميل وانحراف .

وهناك ثلاثة مصادر رئيسية للكشف عن أوراق البردى ؛ وأولها أكوام القمامة وسقط المتاع ، التى تكدست فى العصور القديمة كما فى العصور المتأخرة على مقربة من أى مكان مأهول بالسكان ، وفى الغالب علت فوق سطح المستوى العام وكانت تُرى فيها جميع ماأخرجه النشاط البشرى مما استغنى عنه ، من أدوات وأوعية وآنية فخارية ومحتويات سلال المهملات ، وكانت اللفائف الأدبية تمزق فى العادة إرباً إرباً قبل رميها ولكن تمزيقها لم يكن دقيقاً دائماً وعلى ذلك يمكن أن يعثر على قطع ذات حجم كبير جنباً إلى جنب مع الكثير من القصاصات الأصغر ؛ على أنه بفضل ماأبداه العلماء الدارسون من صبر وأناة وبراعة أمكن تجميعها . وعندما يطالع الطالب الحديث الصفحة المطبوعة من مؤلفات مثل مسرحية الإخنيوتاى (Ichneutae) لسفوكليس وقصة هيبسيبلى (Hypsipyle) ليوريبيديس وأناشيد الشكر للآلهة (Paeans) أو البارثينايا (Partheneia) لپندار أو قصيدة الميليامبى (Meliambi) لكركيداس (Cercidas) ، فإنه قد لايدرك دائماً أن هذه المؤلفات على مابها من قصور ونقص فى جزئياتها ، كانت أكثر قصوراً ونقصاً عندما كشفت لأول مرة .

إن الكثير مما نشاهده من قطع وفقرات متصلة فى نص طويل ، قد

صنفت من عشرات من القصاصات الصغيرة ، بل إن قصاصات صغيرة لاتحتوى على أكثر من حرفين أو ثلاثة ، يمكن فى الغالب وضعها فى مكانها الصحيح والاستعانة بها فى تكوين قطعة كبيرة و إعادة صياغاتها . ومثل هذا الجهد المبذول فى نص غير معروف أشبه بفك طلاسم لغز الصور المقطوعة من غير أن يكون لها مفتاح، وقد ضاع النصف أو أكثر من النصف من قطع هذه الصور .

وفى أغلب الأحيان لم تكن الوثائق تمزق قبل رميها ومع ذلك فإنها كانت فى العادة تتلف وتتآكل بتأثير الرمال التى تسفيها الرياح وتتعرض لأضرار بسبب انتباه النمل الأبيض إليها ، والتصرف المعيب الذى كان يعمد إليه فى بعض الأحيان المستكشفون من الأهالى بقطع لفافة كاملة إلى جزءين أو حتى إلى ثلاثة أجزاء ، ثم تُقسم فيما بينهم وتباع منفصلة ، وعلى ذلك فأغلب البردى الذى كان يعثر عليه فى أكوام القمامة وسقط المتاع غير كامل ولكن عدد مابقى منها كاملا بالفعل كبير .

والمصدر الثانى هو خرائب البيوت القديمة أو غيرها من المبانى ؛ وفى هذه أمل أكبر فى العثور على بردى فى حالة تكاد تكون سليمة ، والآمال المعقودة على ذلك لا يجب أن تكون عالية لأنه يجب أن نفترض أنه عند الهجرة من منزل فإن سكانه كانوا ينقلون منه كل ماكان ذا قيمة من محتوياته ، ولكن لم يكن كل فرد حريصاً على أن يخلى مسكنه من جميع محتوياته كلية ، وعلينا أن نحسبْ حساب عوامل أخرى مثل انهيار مسكن أو ضرورة مفاجئة للجلاء والرحيل عن المسكن . وعلى سبيل اليقين إن الكثير من أوراق البردى التى كان بعضها فى أصله عبارة عن قصاصات صغيرة ولكن بعضها الآخر فى حالة جيدة ، تمّ الكشف عنها فى تلك الآثار الخربة .

والمصدر الثالث هو المقابر ، وفى هذا الصدد يجب أن نبادر إلى تصحيح خطأ شائع ، فعند ذكر المقابر فيما يتعلق بالكشف عن البردى يبدو أن الفكرة السائدة هى أن البردى الذى عثر عليه فى المقابر كان قد دفن مع الموتى بوصفه

جزءاً من أثاث المقبرة وهذا يصدق فى الحق على معظم البردى الهيرو غليفى والهيراطيقى وأهم هذه المجموعات كتاب الموتى الذى كان بمثابة كتيب تستخدمه الروح فى أثناء رحلتها إلى أرض أمنتيت (Amentit) أو العالم السفلى ، هيديس (Hades) وهو يحتوى على ما يلزم من صيغ وتعازيم وإجابات صحيحة لما قد يوجه من أسئلة إلى المتوفى ، وعلى ذلك كان أمراً طبيعياً أن يوضع هذا الكتيب مع الميت فى قبره ، كما أنه كان من الطبيعى كذلك أنه إذا كان من القراء فيتعين أن توضع معه بعض الكتب المحببة إلى نفسه ، وكان المصريون يتصورون الحياة الآخرة على أنها قريبة الشبه جداً بالحياة الدنيا وعلى ذلك كان الموتى يزودون بكل ما يلزمهم من طعام وشراب وآنية وحلى وأثاث وتماثيل الأوشابتى (ushabti) من خدم وعمال لأداء الأعمال من أجل سادتهم فى محيطهم الجديد . ويبدو أن بعض أوراق البردى اليونانى دفن لمثل هذا الغرض ، فاللفافة المشتملة على « الفرس » (Persae) لتيموثيوس (Timotheus) ولعلها أقدم نص يونانى مخطوط باق ويرجع العهد بكتابتها إلى الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، قد عثر عليها فى قبر وقد وضعت مع أحد اليونانيين من الموتى ، والأمر كذلك بشأن نص من هومر عثر عليه سير فلندرز پيترى فى هوارة موضوعاً تحت رأس امرأة . وقد تواردت الأخبار بأن ثلاثة برديات أدبية مشهورة مما هو محفوظ بالمتحف البريطانى — وهى رسالة لأرسطاطاليس عن الدستور الآثينى وأناشيد باكخيليدس (Bacchylides) والتمثيليات الهزلية المعتمدة على التقليد لهيروداس (Herôdas) — جاءت من مصدرٍ مماثل ؛ ولكن نظراً لأنها اشتريت من تجار يبذلون دائماً جهد استطاعتهم للعمل على إخفاء المصدر الذى جاءوا منه بهذه السلع ، فإن هذه الأقوال لايمكن التعويل عليها .

على أن مثل تلك الحالات هى الاستثناء . وعندما أتحدث عن المقابر كمصدر نحصل منه على البردى فإنما الإشارة إلى عادة كانت سائدة فى بعض العصور وفى بعض أجزاء من مصر ؛ وهى عمل صناديق للموميات من الورق المقوى « الكرتون » وأعنى بذلك لصق طبقات من البردى أو الكتان بالغراء حتى

تصبح أشبه بالورق المقوى وتشكيلها فى صورة المومياء ثم تغطيتها بالجبس المطلى بلون ، فإذا مافضت هذه الصناديق وفتحت وفصلت طبقاتها بعضها عن بعض وأزيل الطلاء والجبس أصبح فى الإمكان الحصول على البردى الذى كان مستعملا فى العادة كمادة للكتابة قبل نقله ووصوله إلى أيدى صانعى الصناديق .
وبهذه الطريقة أمكن الحصول على نصوص كثيرة ذات قيمة عظيمة من كل من الناحيتين الأدبية والصكية ، ويرجع الفضل فى أقدم الكشوف التى أسفرت عن أوراق البردى اليونانى ، إلى جهود الباحثين أو المنقبين عن « السباخ »وهو تراب ناعم غبارى يغطى المواقع القديمة فى مصر ويعتبره المصريون مخصباً ذا قيمة وينقلون مقادير كبيرة منه لتنثر فى حقولهم ، والبردى الذى يجرى العثور عليه فى أثناء البحث عن السباخ ، يتعين إخطار السلطات المختصة عنه بمقتضى القانون المصرى ، ولكن غنى عن البيان أن هذا لم يكن فى الواقع يحدث أبداً .
فالبردى الذى يتم الكشف عنه ، يجرى التصرف فيه فى واقع الأمر بانتقاله إلى أيدى التجار الذين يبيعونه بدورهم إلى الراغبين فى شرائه من جانب أو إلى المتحف المصرى وقد تمت باكورة الكشف المدون عن أوراق البردى اليونانى فى عام ١٧٧٨ عندما عرض البائعون على سائح نحو خمسين لفافة (أوقرطاسا) فاشترى لفافة واحدة منها ، أما اللفائف الأخرى فقد حرقها الكاشفون عنها ، ولعلهم عمدوا إلى ذلك الإجراء ، فى اعتقادنا ، لما استولى عليهم من يأس نجم عن إخفاقهم فى بيع تلك المجموعة كلها . واللفافة الوحيدة التى نجت من هذا المصير ، وهى المعروفة باسم ورقة* بورجيا (Charta Borgiana) لأنها كانت فى وقت من الأوقات فى حوزة الكاردينال ستيفانو بورجيا (Stephano Borgia) ، هى الآن (أو بالأحرى كانت حتى قيام الحرب) بالمتحف الأهلى فى نابولى ؛ وتشتمل هذه الوثيقة على ثبت بأسماء العمال المسخرين فى إقامة الجسور فى عام ١٩٢ م . وقد تمت كشوف أخرى فى صدر القرن التاسع

* خارتا (charta) كلمة لاتينية يرجع أصلها إلى اليونانية ومعناها ورقة أو صفحة من ألياف ساق البردى وقد صنف على شكل يشبه اللحمة والسدى . (المترجم)

عشر فأسفر الكشف حوالى ١٨٢٠ فى سقارة فى بقعة تقع محل السرابيوم القديم ، عن مجموعة ذات قيمة من اللفائف التى يرجع تاريخها إلى العصر البطلمى وتبع ذلك كشوف أخرى فى فترات غير منتظمة خلال السنوات الواقعة فى منتصف ذلك القرن ، واشتملت هذه على عدد من النصوص السحرية ولفافة أو اثنتين من هومر وبضع خطب مفقودة للخطيب الآثينى هيبريديس (Hyperides) وأغنية شائقة جداً هى الپارثينيون (Partheneion) أو أغنية العذراء من تصنيف الشاعر الإسبرطى « ألكمان » * (Alcman)

ومع أن هذه الكشوف استرعت قدراً عظيماً من العناية والاهتمام فى الدوائر المختصة فلم تكن وفيرة بدرجة تسمح بأن تترك أثراً كبيراً فى الأوساط العلمية المعنية بدراسات العالم القديم بوجه عام . ولكن بدأ الكشف فى أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ، عن كميات عظيمة من البردى فى التلال الشاسعة التى تغطى الآثار أو تؤلف أكواماً وأكداساً من النفايات الباقية من أرسينوى (Arsinoe) عاصمة الإقليم الأرسينويتى حسبما كان يطلق على الفيوم فى العصر اليونانى — الرومانى . وقد استحوذ المشترون الأوربيون على قدر عظيم من هذا البردى الذى آل الكثير منه إلى الأرشيدوق رَيْنر (Rainer) النمساوى فصارت هذه الكمية الأخيرة نواة لمجموعة رَيْنر المشهورة فى فينا ؛ وكان مآل عدد كبير آخر إلى برلين ، كما كانت كميات أقل من ذلك عدداً ، من نصيب اللوفر فى باريس والمتحف البريطانى فى لندرة ؛ ولم يعد يصبح فى الإمكان بعد ذلك أن يتجاهل العلماء هذا المصدر الجديد الذى نستقى منه بعض المعلومات عن العالم القديم .ومنذ ذلك التاريخ بدأ فيض متصل من البردى ينساب إلى المتاحف والمكتبات فى أوربا ثم بعد ذلك إلى نظائرها فى أمريكا . وفى شتاء عام ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، تم أول كشف عن البردى اليونانى على أيدى

* ألكمان — شاعر الأناشيد ، عاش فى إسبرطة فى النصف الثانى من القرن السابع قبل الميلاد ، وأغلب أناشيده متعلق بالولائم والأعياد الإسبرطية ، وقد جمعت هذه الأناشيد والقصائد فى ست كتب وكانت جوقات من العذارى تقوم بإنشاد هذه القصائد . (المترجم)

حفار ذى منهج وأسلوب علمى هو المتوفى سير فلندرز پيترى (وهذا فيما عدا قصاصات قليلة جداً عثر عليها فى تانيس فى سنة ١٨٨٣–١٨٨٤ بين اللفائف المحروقة)، هذا مع أن غايته لم تكن هى البحث عن البردى . فبينما كان يقوم بالحفر والتنقيب فى مقبرة قديمة فى غوروب (Gurob) بالفيوم ، عثر على موميات كثيرة ملفوفة داخل غطاء كرتونى مكون من البردى فلما تم فك هذا الغطاء أخرج ثماراً طيبة هى تلك المجموعة الباهرة المعروفة ببردى پيترى (Petrie Papyri) ، وتاريخها يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، فضلاً عن كثير من الوثائق التى تضمنتها تلك المجموعة ، فإنها اشتملت على بعض من أوراق البردى ذات القيمة والطابع الأدبى . ومن بين هذه قصاصات من لفافة محتوية على محاورتين من محاورات أفلاطون هما لاخيس (Laches) وفيدون (Phaedo) ، وقد دون ما عليها خلال قرن من وفاة أفلاطون . ومن بين هذه المجموعة لفافة أخرى عليها أكثر من مائة بيت شعر من ملحمة شعرية ضائعة ليوريپيديس هى انتيوپى (Antiope) . وقد وفق المتحف البريطانى فى مستهل العقد التاسع (من القرن الماضى) إلى شراء صفقة رابحة من لفائف بردية اشتملت على رسالة ضائعة لأرسطاطاليس خاصة بالدستور الآثينى ، وعلى خطبة أخرى لهيپريديس (Hyperides) ثم على تمثيليات تصويرية (لأخلاق الطغام وحياتهم) أخرجها هيروداس (Herôdas) وبعد ذلك ببضع سنين قلائل ، تلا الكشف عن أشعار لباكخيليديس * (Bacchylides) — وعندئذ يمكن القول بأن علم أوراق البردى قد نال الاعتراف باعتباره فرعاً من الدراسات الكلاسيكية ، قائماً بذاته ولو أنه لم يطلق عليه الاسم الذى عرف به إلا فيما بعد ، أما الأسلوب الفنى والقواعد المصطلح عليها الآن فى نشر البردى فلم تخرج طفرة واحدة بل تطورت شيئاً فشيئاً .

وفى سنة ١٨٩٥ أخذت جمعية مصر (أو المؤسسة المصرية للتمويل كما

---

* أحد شعراء الأناشيد الذين ازدهروا فى القرن الخامس فى بلاد اليونان — توفر على كتابة القصائد والأناشيد التى كان من بينها ما عرف بأناشيد النصر (Epinikoi) تخليداً لذكرى الأبطال فى الألعاب الأولمبية وغيرها . (المترجم)

كانت تسمى آنذاك) للبحث والتنقيب عن الآثار ، تشعر بأن الوقت قد حان لجعل البحث عن البردى اليونانى ضمن نطاق نشاطها ، فقررت إيفاد ثلاثة من علماء أكسفورد المعنيين بالدراسات الكلاسيكية ،وهم :ب. پ. جرنفل، (B.P. Grenfell) ، ا. س. هنت (A.S. Hunt) ، د. ج. هوجارث. (D.G. Hogarth) بُغية إجراء بحث تمهيدى ، فقاموا فى شتاء عام ١٨٩٥ — ١٨٩٦ بالحفر فى مكانين بالفيوم . ولو أن النتائج التى وفقوا إليها لم تكن باهرة تسترعى شيئاً من الانتباه إلا أنها كانت مشجعة لدرجة أنهم فى الشتاء التالى حصلوا على إذن بالحفر والتنقيب فى البهنسا ، وهى محل أكسير نخوس القديمة (Oxyrhynchus) ، وتولى الحفر مرة أخرى « جرنفل » و « هنت» ولم تكن النتائج التى أسفر عنها التنقيب فى ذلك الموسم الأول موفقة فحسب ،بل كانت الكشوف رائعة أخاذة بالألباب ؛ فقد كشف النقاب عن كميات هائلة من البردى واشتملت أولى الكشوف على قصيدة جديدة من شعر سافو (Sappho) وعلى صحيفة من دفتر بردى مخطوط (codex) محتوية على مايعرف بالأقوال المأثورة (Logia) عن المسيح . وفى صيف ١٨٩٧ أنشأت المؤسسة لتمويل الحفر والتنقيب فى مصر ، فرعاً خاصاً بالعصر اليونانى — الرومانى . وبدلاً من عودة « جرنفل » و « هنت» إلى أكسيرنخوس فى الشتاءالتالى ، توجسا خيفة من أن ينجم عن مشروعات الرى الجديدة الإقلال من فرص النجاح التى قد تتاح لهما بالفيوم فآثرا الرجوع إلى ذلك الإقليم حيث عكفا على الحفر والتنقيب طوال مواسم العمل فى السنوات الأربع التالية، وقدوفقا فى الحصول على نتائج مرضية . وفى شتاء ١٨٩٩— ١٩٠٠ قاما بالحفر لحساب جامعة كاليفورنيا فى « أم البرجات» — وهى محل تبتونس القديمة (Tebtunis) على الحافة الجنوبية من الفيوم ، ونظراً لشغفهما بالكشف عن أوراق بردية من العصر البطلمى وبخاصة أن ذلك الكشف العظيم الذى وفق إليه پيترى فى « غوروب » كان لايزال ماثلاً فى الأذهان، فقد عولا على البحث عن جبانة بطلمية . وكم كان السرور عظيما فى أرجاء مخيمهما عند ما وُفقا فى العثور على ضالتهما المنشودة وهى جبانة بطلمية ولكن

خيبة الأمل كانت شديدة بنسبة ذلك عندما كشف النقاب عن قبر واسع تبين أنه لايحتوى إلا على مجرد موميات لتماسيح مقدسة ؛ فالفيوم إقليم كان موطنًا لعبادة إله التمساح سُبك (Sobk) . وكان عمال الحفائر يتطلعون دائمًا إلى منحهم هبات على شكل « بقشيش » إذا ماوفقوا إلى كشف عظيم فاستولى الغضب على أحد هؤلاء العمال لما أصابه من عدم التوفيق وما وصل إليه من نتيجة غير مشجعة فضرب بفأسه أحد هذه التماسيح بعنف واستياء فانشق هذا التمساح وظهر أنه ملفوف فى صفحات مكتوبة من أوراق البردى . وكما صور الأمر « هنت » فى إحدى محاضراته ، ارتفع على الفور ثمن بضاعة التماسيح فبعد أن كانت منذ قليل سلعة خاسرة لامطمع لأحد فيها ، بلغ ثمنها رقمًا كبيراً، ومن هذا المصدر جاءت مجموعة من الوثائق بالغة الأهمية، وهى تنتمى إلى القرن الثانى وأوائل القرن الأول قبل الميلاد وتملأ الآن صفحات الجزء الأول من مجموعة بردى تبتونيس (Tebtunis Papyri) ، وفى الجزءين الآخرين تمّ نشر البردى الخاص بالعصر الرومانى وهو الذى عثر عليه فى الخرائب الأثرية لهذه البلدة ، كما نشر فيهما البردى المستخرج من طيات الكرتون البطلمى ذى النوع الشائع .

وبعد قيام « جرنفل » و« هنت » بالحفر فى بلدة الحيبة (Hibeh) فى وادى النيل ، عادا إلى أكسير نخوس فى سنة ١٩٠٣ واستمرا فى مزاولة أعمال الحفر هناك حتى شتاء ١٩٠٦ — ١٩٠٧ وقد لازمهما التوفيق العظيم فى جهودهما ؛ وفى الحق إن أكسير نخوس كانت أغنى بقعة فى مصر وأوفرها إنتاجاً وبخاصة فى البردى ذى الطابع الأدبى وها هى ذى أناشيد الشكر للآلهة (Paeans) وغيرها من أشعار بندار (Pindar) الضائعة وقصاصات جديدة من شعر سافو (Sappho) والكايوس (القاوس) (Alcaeus) وغيرهما من شعراء الغناء والأناشيد القيثارية وأخرى من مسرحية الإخنيوتاى (Ichneutae) لسفوكليس ومن قصة هيبسيلى (Hypsipyle) ليوريبيديس وأجزاء جوهرية من بضع روايات ضائعة لإيسكلس وقصيدة المليامبى (Meliambi) لمؤلفها كركيداس (Cercidas) ، وقصاصات

كبيرة من كاليماخوس ولفافة كبيرة وإن كانت غير كاملة ، مشتملة على فترة هامة من تاريخ بلاد اليونان فى صدر القرن الرابع قبل الميلاد ، وهناك غير ذلك قصاصتان محتويتان على الأقوال المأثورة عن يسوع المسيح وأجزاء من بضعة أناجيل مشكوك فى صحتها — هذا إلى قصاصات كانت تعتبر حتى الكشف عن بردى شستر بيتى (Chester Beatty) ، أقدم مخطوط باق من إنجيل القديس يوحنا — تلك ماهى إلا القليل من الكنوز التى يدين بها العالم المثقف إلى أكسيرنخوس. وبعد هجر تلك البقعة واستنفاد موارد البحث فيها ، استمر الدكتور يوحنا جونسون (John Johnson) يضطلع بأعمال الحفر والتنقيب من ١٩٠٩ حتى ١٩١٢ فى أماكن أخرى لحساب تلك الجمعية .

ولم يطل العهد بهذا المثل البريطانى حتى أثار الاهتمام فى بلاد أخرى ؛ فأخذت بعثة ألمانية تضطلع بأعمال الحفر فى موقع هيراقليوپوليس القديم (Heracleopolis) فى ١٨٩٩ وكان حظها من النجاح عظيماً ولكن لسوء الحظ اشتعلت النيران فى المركب التى كانت تنقل إلى ألمانيا ماأسفر عنه الكشف ، بينما كانت راسية فى مرفأ همبورج وبذلك فنيت المجموعة عن آخرها ؛ وقد توالت بعد ذلك بعوث ألمانية أخرى ولازمها التوفيق لا فى الكشف عن بردى قيّم فحسب ، بل فى نقله سالماً إلى ألمانيا ، وقد أسهم فى هذا المضمار الفرنسيون والإيطاليون والأمريكيون والبعثة الفرنسية البولندية ، ومصلحة الآثار المصرية — كلٌ بنصيب بينما لم ينقطع أبداً التنقيب الذى كان يزاوله السباخون سواء بترخيص أو خلسة . وحتى ذلك الوقت كانت جميع البقع المشهورة قد استنزفت فى الواقع ، ومالم يتم الكشف عن مواقع أخرى تكون منتجة مثمرة مثل زميلاتها — وهو أمرٌ لم يكن يبدو فى الحسبان — فإن من المحتمل أن ذلك المورد سوف ينضب معينه عاجلا فيما عدا ما يظهر من كشوف فردية بين حين وآخر .وهناك كشفان من هذا النوع كان لهما طابع أخاذ بالألباب ، وكلاهما لايرجع الفضل فيه إلى أعمال الحفر والتنقيب وفق الأسس العلمية بل إن مردهما إلى جهود الحفارين الوطنيين ؛ وقد تم هذا فى السنين الأخيرة نسبياً ؛ وأحد هذين الكشفين — وقد

جرى في عام ١٩٣١ أو ما حولها — ينطوى على مجموعة من الكتب الإنجيلية الأولى من دفاتر البردى وجلها الآن، وليس كلها، في حوزة المستر شستر بيتى[٨] (Chester Beatty) وتأتى من حيث أهميتها في المرتبة الثالية مباشرة للكشف الذى تم على يد تيشندورف (Tischendorf) وهو السفر الإنجيلى المخطوط في الدفتر السينى (Codex Sinaiticus) ؛ أما الكشف الثانى فقد حدث في ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ ؛ ولما كانت الأوراق البردية المشار إليها لم يتم نشرها بعد، فليس في وسعى أن أقول أكثر من أنها قد تثبت في الكثير الغالب مبلغ مالها من أهمية خارقة للعادة للباحثين والدارسين في علم اللاهوت الخاص بآباء الكنيسة * .

وليس الأمر فيما كشف عنه الستار في أرض مصر مقصوراً بحال ما على البردى اليونانى واللاتينى وإنما الكثير منه مكتوب بمختلف أشكال اللغة المصرية من هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية وقبطية . وقد عثر كذلك على عدد وفير من البردى العربى بخلاف أعداد أقل من الوثائق المكتوبة بغيرها من اللغات المختلفة التى كان يتكلمها المتوطنون في مصر . ومعنى كلمة علم البردى من ناحية الصرف والاشتقاق يجب أن تنطوى على دراسة أى نوع من أنواع البردى بأى لغة أو خط . ولكن في واقع الأمر مالم تستعمل مع الكلمة صفة من صفات النعت والتمييز مثل « علم البردى القبطى » فإن مدلول الكلمة بوجه عام كان يقتصر على أوراق البردى المكتوبة باليونانية أو اللاتينية . ولكن إذا كان منطوق الكلمة في ناحية من النواحى أضيق في تطبيقه مما يشير إليه أصل الكلمة واشتقاقها فإن لها مدلولا أوسع من ناحية أخرى لأنها تشتمل على جميع السجلات المكتوبة على الرق والشقافة والأنواع الخشبية وما شابه ذلك مما عثر عليه في مصر وجاءت

* لعل المؤلف يشير هنا إلى أوراق بردية يونانية خاصة بأوريجين كشفت في طرة بالقرب من القاهرة وهى محفوظة الآن بالمتحف المصرى وتوفر على دراستها فرنسى هو الدكتور شيرر ، وبعد بضع سنين تقدم بالنتائج التى أسفرت عنها دراساته في هذه النصوص الدينية إلى السربون لنيل درجة الدكتوراه. وقد نشرتها الجمعية المصرية لعلم البردى . (المترجم) .

صياغته وكتابته بإحدى اللغتين اليونانية أو اللاتينية ، ولا يستبعد من ذلك سوى النقوش المكتوبة على الحجر أو البرونز مما يدخل فى نطاق علم قراءة النقوش ، ويحسن أن أضيف أنه كما هو المنتظر — نظراً لأن اليونانية هى اللغة الرسمية — فالبردى اللاتينى أكثر ندرة من اليونانى .

وإن عدد مانشر من أوراق البردى اليونانى يبلغ الآن حداً كبيراً ، يصل إلى آلاف كثيرة ، أما ماكشف عنه من البردى فيصل إلى عشرات الآلاف ، وإذا جاز فى الماضى أن كان فى المستطاع من غير جهد كبير أن يحمل الإنسان فى رأسه كل ماهو لازم للدراسة البردية ، فإن هذا الأمر أصبح الآن بعيد المنال حتى على أولئك الذين وُهبوا شدة العارضة وقوة الذاكرة ؛ فالمؤلفات التى تعرض لهذا الموضوع متشعبة غاية التشعب. فهناك الكتب المختصرة على مختلف أنواعها مما لم تكن له ضرورة فى أول الأمر ، ليستعين بها الباحث الآن ، فيوجد « كتاب الكلمات » (Worterbuch) أو الفهرس المبوب بالشرح والبيان لما ورد من الكلمات فى الوثائق البردية[٩] وكتاب « أسماء الأعلام » (Namenbuch) أو الفهرس لأسماء الأعلام[١٠] و « كتاب المحيط » (Sammelbuch)[١١] وفيه تم جمع ما كان منشوراً فى الحوليات أو فى غيرها من الوثائق اليونانية المبعثرة من كل نوع وفى كل مادة (بما فى ذلك النقوش) مما يتعلق بمصر . وهناك ثبتٌ بالتصويب والتصحيح للنصوص المنشورة[١٢] و « فهرس عكسى » (Kontrarindex)[١٣] بكل الكلمات الواردة فى البردى ، وقد طبعت فيه بترتيب هجائى عكسى (وفى هذا عونٌ له قيمته للمشتغل بفك تلك الرموز عندما يرى آخر الكلمة فقط ويرغب فى إيجاد الاحتمالات التى يمكن أن تكمل بها) . وكان المرحوم الأستاذ ألريخ ڤلكن (U. Wilcken) يحرر حتى وفاته منذ أمد قصير ، مجلة خاصة بأوراق البردى[١٤] وتقوم الجمعية (الملكية) المصرية لعلم أوراق البردى بإصدار مجلة أخرى[١٥] وحديثاً بدأت مجلة ثالثة فى الصدور فى أمريكا[١٦] ، و زيادة على ذلك فالمقالات الخاصة بعلم أوراق البردى تظهر بكثرة فى دوريات مثل مجلة أيجيبتوس (Aegyptus) (مصر) التى تصدر فى ميلان ، وحوليات مصلحة الآثار (Annales

(du Service (التى تصدر فى القاهرة) ومجلة الكرونيك الخاصة بمصر (Chronique d'Egypte) التى تصدر تباعاً فى بروكسل ومجلة الآثار المصرية (Journal of Egyptian Archaeology) التى تصدر فى لندرة ، وقد عقدت خمسة مؤتمرات عالمية لعلم أوراق البردى ، وكان عقد المؤتمر السادس موضع الحديث عندما نشبت الحرب فى أوربا فى سنة ١٩٣٩ * .

وبالطبع جاء البردى الذى يتم الكشف عنه متفاوتاً للغاية فى طابعه وأهميته ، نظراً لأن الاختيار فيه خاضع لمحض أهواء الصدف وليس للاختيار المتعمد أى مجال فى ذلك ، ويتراوح البردى بين لفائف كبيرة الحجم وعلى حالة جيدة من الصيانة ، وبين قصاصات تكاد تكون عديمة القيمة ، ويشتمل هذا البردى على قطع من المؤلفات الأدبية ، دالة على أسمى مراتب الجدارة والاستحقاق ، من دُرر الكتاب الكلاسيكيين إلى ماجادت به قرائح الشعرورين المحليين فى القرى المصرية . وتمتد حقبتها من هومر إلى كتّاب القرن السادس الميلادى ؛ والبردى المسيحى — سواء أكان إنجيليًّا أم لاهوتيًّا — ذو وفرة فى عدده ؛ والديانة الوثنية لها بضعة نصوص تمثلها ؛ والسحر له ما يوضحه بوفرة ، أما الوثائق فعلى كل نوع ، بين عامة وخاصة ومنها صور من المراسيم الملكية أو الإمبراطورية ، إلى مذكرات سريعة دوّنها سكان خاملو الذكر فى قرية غير مهمة ، أو محاولات أولى لتلاميذ المدارس فى تحسين الخط . ويمتد العصر الذى تتناوله هذه الوثائق

---

* جرى عقد هذا المؤتمر السادس فى باريس فى ٢٩ أغسطس — ٤ سبتمبر سنة ١٩٤٩ والسابع فى جنيف من الاثنين أول سبتمبر حتى السبت ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢ والثامن فى فينا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٥ .

ونشرت أعمال هذه المؤتمرات والبحوث التى ألقيت فى كل منها وأسهم مترجم هذا الكتاب فى المؤتمر الأخير ببحث عن « خزنة الغلال (sitologi) فى مصر الرومانية ودورهم فى النظم المالية والإدارية » — وهو منشور ضمن بحوث المؤتمر فى فينا . والمقرر أن يعقد المؤتمر العالمى التاسع فى « أوسلو » بالنرويج فى ٢٩ — ٢٢ أغسطس ١٩٥٨ . وأخيراً عقد المؤتمر الثالث عشر فى ماربورج بألمانيا الغربية فى ٢ أغسطس حتى ٦ منه سنة ١٩٧١ . (المترجم)

من سنة ٣١١ ق . م . وهو تاريخ أقدم بردية صكية كشفت حتى الآن ، إلى ما بعد نهاية القرن الأول من الهجرة ، وأعنى بالتقريب حتى منتصف القرن الثامن الميلادى . ومن بين مختلف أنواع الوثائق توجد للسنن والشرائع الملكية أو الإمبراطورية ؛ وهى المصدر الذى يستقى منه فى الكثير الغالب معلومات قيمة عن السياسة الإدارية أو القضائية . والأدلة المستقاة من آحاد هذه السنن واللوائح ، تكملها اللفائف الرائعة التى نشرها « جرنفل » (Grenfell) وعلق عليها تحت عنوان « قوانين الضرائب والإيردات لبطلميوس فيلادلفوس »[١٧] وهى التى تسوق ضمن ماتقدمه من معلومات أخرى ، أدلة قيمة تتعلق بالاحتكار البطلمى للزيوت ، كما تكملها بردية تعادلها فى الروعة ، عثر عليها فى تبتونس (Tebtunis) ،[١٨] وقد جاء فيها سلسلة من التعليمات التى وضعها أحد وزراء المالية البطلمية ليسترشد بها أحد مرءوسيه فى الإدارة المالية ؛ ويضاف إلى ذلك من العصر الرومانى ما أطلق عليه « جنومون » (Gnomon) وهى القواعد والتعليمات التى سنتها الإدارة المالية المعروفة «بالحساب الخاص» أو الإديوس لوجوس[١٩] (Idios Logos) ؛ والمراسلات الرسمية والمفكرات أودفاتر اليوميات الخاصة بالموظفين الإداريين تقدم لنا لمحات عن الإجراءات الرتيبة التى تصدر من جانب الحكومة ؛ وسجلات الضرائب وتقديراتها تكشف عن المبادئ المرعية فى جباية الضرائب ، وعدد لاحصر له من إيصالات الضرائب يوضح كذلك نظام الضرائب وهو مطبق . وكشوف مسح الأراضى مذيلة بتقارير عن الأجزاء التى لم تُرو والمشبعة بالمياه وبيانات بالملك والعقار ، تقدم لنا العون على ترسم السياسة العقارية التى اتبعتها الحكومات المتعاقبة وتعرّف خطوطها الرئيسية إلى حد كبير . فقوائم الإحصاء وماتفيض به من البيانات تكشف عن الأساليب المتبعة فى تسجيل وتدوين أسماء السكان فى مصر من أجل الأغراض المتعلقة بالإدارة . ويكمل مابهذه القوائم والبيانات من بينة شهادات للمواليد والوفيات والوثائق القانونية على مختلف أنواعها والعرائض والتقارير عن القضايا وعقود الزواج وعقود الطلاق وعقود التمرين والتدريب المهنى أو المشاركة والبيوع وعقود الإيجار والقروض والرهون والإيصالات وأوامر الدفع المحولة على

أصحاب المصارف والوصايا والهبات — كل هذه قد وسّعت كثيراً جداً من نطاق معرفتنا بالنظم القضائية القديمة وكذلك بالحياة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية التي زاد فى إيضاحها ماتضمنته الخطابات الخاصة وقوائم الحساب والالتماسات والتقارير عن المنازعات القضائية (وهى فى أغلبها تشتمل على تفاصيل طليّة) وما كان من الوثائق مثل قوائم الجرد أو تخصيصات المهر والصداق فى عقود الزواج ثم الوصايا . وأخيراً لدينا قدر عظيم من الأدلة التى توضح حالة التعليم فى مصر اليونانية — الرومانية : فمن كتب مدرسية ومن كراسات كان يؤدى فيها الطلاب تمريناتهم ، إلى إشارات واردة فى خطابات خاصة .

وفى واقع الأمر قد توافرت لدينا عن مصر اليونانية — الرومانية ثروة من الأدلة المؤيدة بالوثائق مما لم يتح لأى جزء آخر من العالم القديم . ولمثل هذه الأدلة قيمة خاصة نظراً للطابع الذى تتسم به المصادر التاريخية التى فى متناولنا ، وفيما عدا حالات قليلة كان المؤرخون القدماء مهتمين على الأخص بالوقائع والأحداث السياسية ، ولم تلق الأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية من عنايتهم سوى قدر قليل جداً ، بل إن ثوسيديديس (Thucydides) — وهو بلا ريب أعظم المؤرخين قاطبة — لايذكر لنا سوى القليل عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى عصره ، ويرد هذا فى العادة ضمناً وعن طريق السياق وإذا شئنا الحصول على مثل تلك المعلومات فعلينا أن نتجه إلى رواية هزلية ، ومحاورات أفلاطون ، وإلى خطب الخطباء الآثينيين ، أما عن العصور المتأخرة وعن روما فمردّنا إلى رسائل شيشرون وخطبه ، وإلى هوراس (Horace) وپروپرتيوس (Propertius) ، وإلى خطابات پلينى الأصغر ، وأشعار مارشال (Martial) ولكن مثل هذه الأدلة لاتتوافر لدينا من المصادر الأدبية إلا لفترات قليلة ولمناطق محدودة . ومن كل قطر من أقطار العالم القديم وُجد مُدّخر من النقوش مطرد فى زيادته . أما المساعدات والمعونة التى قدمها علم قراءة النقوش لمادة المعرفة التاريخية فهائلة ، ومع ذلك فحتى النقوش ليس لها من النطاق الواسع والاتصال المباشر مثل مانجده فى البردى . وفى العادة لاتنقش وثيقة على حجر أو برونز مالم تعتبر لها بعض العلاقة على الأقل

بمناسبة عامة لها صفة الدوام، مهما بدت تلك المناسبة ضئيلة أحياناً لجيل لاحق . فهناك بعض التقاليد والرسميات فيما يختص بأى نقش بينما أن خطاباً مكتوباً على بردية أو سلسلة من المفكرات قد تكشف لنا عما يختلج فى نفس شخص مغمور تماماً ، من نفثات تدفقت لساعتها دون أى تعمل، ولكنه مع ذلك ليس أقل أهمية بالنسبة لمؤرخ حديث لأنه بذلك يكشف عن وجهة نظر الرجل العادى . وفى واقع الأمر إن من نلقاهم بوجه عام من ثنايا أوراق البردى هم الرجل العادى أو المرأة العادية من الأوساط غير المميزة فى جميع الطبقات ، ابتداء من أثرياء المواطنين الأحرار الساكنين فى حواضر الأقسام المصرية إلى القرويين ذوى الحرف والفلاحين المغمورين ، وعلى ذلك كان اتصالنا مباشراً ووثيقاً بدوائر كادت أن تكون غير ممثلة على الإطلاق فيما يسرده المؤرخ السياسى من قصص وأخبار أو حتى فى مثل ماذكرته من المؤلفات الأدبية .

وإنه لمن المساعدات القيمة بوجه خاص فى الدراسات التاريخية أن تتوافر لدينا معلومات عن الحياة اليومية لجمهرة الناس ؛ فالزبد الطافى على سطح الحياة البشرية هو أغلب مايسجله التاريخ السياسى ، أما جميع ماتحت ذلك على تعاقب الأجيال وتوالى جميع صروف الحدثان فتسير فيه حياة الإنسان العادية على وتيرة واحدة وتتألف فى أغلبها من تفاهات لا تستحق تسجيلاً مستقلاً على نحو ماتعمد أوراق البردى إلى الكشف لنا عنه ، وهى بهذا العمل تساعد على تصحيح ذلك الحيز الذى لامناص من أن يقع فيه ذلك السفر المسجل للحوادث الاستثنائية والبارزة وهو المعروف بالتاريخ .

ومع ذلك فمن الواجب التوكيد بأن فائدة البردى كمصدر للمعرفة التاريخية له شوائبه وقصوره فى نواح معينة، فمن ناحية كما بينت فى أول الأمر، كانت مصر دائماً بلداً له طابع خاص إلى حدما ، يعتبرها رجال البلاد الأخرى أجنبية ولها غرابتها وظروفها الاستثنائية، وليس فى وسعنا دائماً أن يطبق على عالم البحر المتوسط بوجه عام تلك النتائج التى لدينا من الأدلة الكافية مانهض على اعتبارها صحيحة بالنسبة لمصر ، ونعود فنقول إن أوراق البردى نفسها ليست موزعة توزيعاً عادلاً لا من

الناحية المكانية (الطبوغرافية) ولامن الناحية الزمنية ، فبالنسبة للدلتا بوجه عام تكاد تكون أوراق البردى معدومة تماماً وبالنسبة للإسكندرية وهى أشد إفصاحاً وأفضل بياناً بما أخرجته من بردى ، فإنه غير كاف ويعتوره القصور التام . وفى صعيد مصر كانت توجد مدينة يونانية وهى بطلمية (Ptolemais) ولو كانت لدينا معلومات مفصلة عنها لكان لذلك قيمة عظيمة[٢٠]؛ ولكن لم يسفر البحث عن وجود بردى فى هذه البقعة واقتصر الأمر على عدد قليل منه من أماكن أخرى وعلى نقش أو نقشين ، نستمد منها بصيصاً خافتاً من النور . والآن اختلفت الظروف والأوضاع كثيراً فى شتى أرجاء البلاد ، فما يصدق على الفيوم ، قد يكون مضللاً تماماً إذا طبق على الإقليم الطيبى ؛ والأدلة المستقاة من أحدهما ، قد لاتصدق على الدلتا ومن الناحية الزمنية كذلك جاءت الأدلة مشوبة بالترقيع ، فالقرن الخامس الميلادى يمثل عصراً لايزال غير مدعم بالوثائق على الإطلاق ؛ وكذلك الحال فى القرن الأول قبل الميلاد ، بل إنه فى عصر توافرت لدينا منه وثائق كثيرة قد نجد أن هذه الوثائق تنطبق على الأخص على بقعة أو بقعتين بالذات من المناطق التى جاء منها البردى أو الأستراكا ، على حين أن البقع الأخرى تنقصها وثائق من ذلك العصر ؛ وعلى ذلك عند وصف حالة مصر فى أى عصر تكون قد توافرت لدينا فيه مادة غزيرة بالنسبة لإقليم بذاته ، بينما هى ناقصة بالنسبة لأقاليم أخرى توافرلها الغنى إلى درجة معقولة فى وثائقها من عصر آخر ، قد يكون هذا التسجيل والتدوين الذى قصدنا به أن يكون مرآة للحالة العامة السائدة فى مصر ، لايصدق ولايصور إلاجزءاً منها ، ومرده فى هذا الجزء إلى مجرد أسباب محلية فيه .

وفضلاً عن ذلك ، فهناك تحذير آخر لابد أن نعيه دائماً ؛ ففى دراستنا للوثائق يستهوينا فى الغالب الإغراء بأن نضفى عليها من الثقة والتصديق ما نكون أكثر ضناً بإعطائه لأقوال مؤرخ ما . والمفروض لأول وهلة أنه ولو أن الأخير قد لايتحرى الصدق فيمايقول فالوثائق تكشف لنا عن الحقيقة ، على أنه لايمكن أن يكون هناك مغالطة وتضليل أشد من هذا . فالوثائق أكثر ماتكون أقوالاً

من جانب واحد ، وبعضها كتب بقصد التغرير والتضليل المتعمد ، وهذه مثلها مثل مزاعم المؤرخ ، أولى بأن توضع فى الميزان ويجرى تمحيصها على ضوء البيّنة والأدلة الأخرى ، إن وُجدتِ ، أو فى ضوء الاحتمال والإمكان بوجه عام، بل إنه حتى لو صدقت فإن مثل تلك الأدلة قد تضلل بنا بسهولة ، فالناس لا يدونون العرائض أو يزجون بأنفسهم فى ساحة القضاء كيما يدللوا على مبلغ شعورهم بالطمأنينة والرضا ، وإنما يعمدون إلى ذلك الإجراء بسبب بعض الخلاف والنزاع أو لما يشكون منه من مظلمة أو يعتريهم من بعض اضطراب فى مجرى حياتهم العادية . وعندما مانفرغ من قراءة عدد من الالتماسات والشكاوى أو سجلات القضايا الخاصة بأحد الأمكنة المتعلقة بعصر من العصور ، فإننا عرضة للخروج بفكرة مضمونها أن الأحوال السائدة فى ذلك العصر كانت غير مرضية وأن جميع الموظفين مرتشون وتعوزهم الكفاية وأن المركز الاقتصادى حرج وأن التقاضى وحب النزاع أصبح رذيلة متفشية . وقد يتسرب إلينا نسيان الحقيقة بأنه فى مقابل كل رجل تورط فى مثل هذه الأمور قد يوجد عشرات أو مئات ممن ليس لديهم أى سبب جدى للسخط والشكوى. والبيّنة التى تسوقها أوراق البردى هى فى واقع الأمر أدعى إلى أن تقارن ، إن كان هذا ميسوراً (ولسوء الحظ ليس هذا فى المستطاع فى أغلب الأحوال) بما يتوافر من أدلة أخرى ، ربما كانت فى المتناول : كالأدلة المستقاة من علم الآثار ، وهى التى قد تميط اللثام ، بما تكشف عنه من مساكن أو أثاث أو ما شابه ذلك ، عن أمارات اليسر والرخاء مما لا سبيل إلى استنباطه من البيّنة التى يسوقها البردى ، وكالأدلة التى تقدمها النّميّات فى دراستها لأكداس العملة ، وما إلى ذلك من بيّنة أخرى . ومع اتخاذ جميع الاحتياطات وعمل كل التحفظات ، لا بد أن يشعر عالم البردى بالإدراك القوى الذى يتملكه بقابليته للوقوع بنفسه فى الخطأ . ومن قبيل الاستثناء — وليس القاعدة — أن تكون الوثيقة البردية كاملة وغير تالفة ، وكثير من البرديات التى يمكن أن توصف بأنها مفاتيح فى عالم الوثائق ، تشوبها عيوب جوهرية ، فالنصوص المتداولة بيننا ، تتوقف إلى حدٍّ كبير أو صغير على

التخمين فى إصلاح ما بها من نقص ، كما أن الصعوبات فى قراءة النصوص البردية إما بسبب الاحتكاك فى طيات البردية أو الإهمال فى الكتابة ، ليست بالأمر غير العادى على الإطلاق ، والبيّنة على الدوام ناقصة وعرَضية ، عمادها على الصدف . وإذا كان الأمر قد اقتضى أن يكون اختيار البردى متروكاً لمحض الصدفة التى حفظته وكشفته لنا وألا يكون العامل فى ذلك هو الاختيار عن قصد ، مما جعله فى أغلب الظن أكثر شمولاً وأوسع تمثيلاً ، فإن هناك عيباً يعتوره وهو أن الوثائق التى بقيت محفوظة ربما لم تكن هى التى يقع عليها اختيار مؤرخ قدير على اعتبار أن لها بالغ الأهمية ، فالباحث الذى يتصدى لدراسة أوراق البردى يواجه دائماً مشكلة الاعتماد على الفروض والنظريات واستخراج الاستنباطات من أدلة مشوبة فى الغالب بشىء من الغموض ، وقلما تكون أكثر من مغرضة ؛ وعند مايضيف اثنين إلى اثنين فإنه لا يسعه إلا أن يتصور أنه قد لا يحصل منها على أربعة ، بل على خمسة أو ستة .

وفى سياق الفصول الثلاثة التالية سوف يكون لزاماً علىّ أن أجمل الكلام عن التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر على مدى فترة طولها نحو ألف سنة ، وإنه لمن المستحيل — بل قد يكون من المضنى لدرجة لا تحتمل — أن نسرد الأدلة المسوّغة لكل حقيقة وقول يذكر . وأرى من الواجب علىّ أن أطلب من قرائى أن يتذكروا أن هذا العرض سوف يكون بالضرورة مصوغاً بعبارة فيها تحكم ، ليس له بالضبط مايسوّغه ، وسوف يتضح مما ذكرته أن علم أوراق البردى ليس بعلم مستقل وإنما هو فى جوهره ، كما أسماه العالم الألمانى ڤلكن ، علم مساعد (Hilfsdisziplin) ، وفرع من الدراسات القديمة (الكلاسيكية) وبصفة خاصة من التاريخ القديم ، وله فى الحق مجاله الخاص به ومصطلحات فنية خاصة يستخدمها ، ولكنه من ناحية لابد أن يعتمد على فروع من الدراسة خارجة عنه ، ومن ناحية أخرى يساهم فى الحاصل الكلى للمعرفة بنصيب ، هو وحده الذى يستطيع أن يقدمه . وهو مدين للمؤرخ بالظهيرة أو الخلفية والإطار الذى تخرج فيه الوثائق التى يعالجها هذا العلم ولاغنى له عن الانتفاع بالنقوش التى يقوم بنشرها وتفسيرها المشتغل بعلم قراءة النقوش ثم التعويل

فى مختلف العصور على ماترجم من البردى الديموطيقى والقبطى والعربى بوساطة العالم بالمصريات والعلماء باللغة القبطية أو اللغة العربية. وفى استطاعة المشتغل بالنمّيات أن يقدم مساعدة جليلة فى تفسير الأدلة التى يسوقها البردى عن مشاكل النقد ، ويقوم عالم الآثار بكشف النقاب عن الآثار المادية الباقية من ذلك المجتمع الذى دُوِّن فى محيطه ذلك البردى ويقدم اللغوى والنحوى العون بما يقومان به من دراسة لغوية ، وفوق كل ذلك فمن الضرورى أن يتعاون فقهاء القانون إذا كانت الرغبة أن يتم تفسير الوثائق القانونية الكثيرة على الوجه الصحيح . ومن الناحية الأخرى فإن علم أوراق البردى يقدم لكل تلك الفروع الأخرى من المعرفة مادة ذات قيمة وعلى أعظم جانب من الأهمية. وإن مؤرخ العالم القديم الذى يتجاهل الأدلة المستقاة من البردى ، ليستحق أن يوصم بالتهور ويستوجب اللوم . ويرجع الفضل إلى البردى فى أن العالِم الحديث، الخبير بالخطوط والكتابات القديمة يستطيع أن يرجع فى دراسته للخط اليونانى إلى مدى قرون أسبق مما كان ميسوراً لأسلافه فى صدر القرن التاسع عشر ؛ ويجد النحوى والمشتغل بعلم الأصوات فى الوثائق المكتوبة بأسلوب غير مستكمل للطابع الأدبى ، أدلة فائقة القيمة على تطور اللغة اليونانية . وبالنسبة للباحث فى الدراسات القديمة بوجه عام ، زاد التراث الموجود من الأدب اليونانى بدرجة محسوسة . وبفضل الكشوف التى تمت فى مصر أمكن توضيح وشرح عدد ليس بالقليل من المشاكل الأدبية واستفادت دراسة القانون القديم إلى درجة يصعب أن نبالغ فيها ، من الوثائق القانونية التى حفظتها أوراق البردى. وأخيراً، إذا كان على المشتغل بعلم أوراق البردى أن يعوِّل فى الغالب على مايلقاه من مساعدة من الدراسات الديموطيقية أو القبطية أو العربية ، فالباحثون فى هذه الميادين مدينون له على الدوام بالمواد التى يقدمها .

وفى الحق إننا واجدون فى علم أوراق البردى ، كما فى كثير من ميادين الدراسات الأخرى ، السرور ووازع العمل المشترك لتحقيق مقصد أسمى. وهذا العمل عالمى فى طابعه وكان دائماً كذلك . وعلى العموم فعلم أوراق البردى جاء خلواً بدرجة عجيبة من تلك الضغائن والأحقاد الأليمة والمنافسات الشخصية أو القومية ، مما كدر صفو بعض فروع الدراسة والبحث ، قديمها أو حديثها .

الفصل الثانى

العصر البطلمى

فى أوائل نوفبر عام ٣٣٣ قبل الميلاد قُدر للإسكندر الأكبر — وهو الذى كان منذ ستة أشهر انقضت قد هزم قوى ولاة الفرس عند نهر غرانيكوس (Granicus) — أن يلتقى بجيش يقوده الملك العظيم بنفسه عند إسوس (Issus) فى سيليشيا (Cilicia) ، وكان التفاوت فى أعداد القوات هائلاً وتنظيمات دارا (Darius) تنم عن مهارة كبرى فاقت خطط قواده فى الموقعة السابقة ، ولكن عبقرية الإسكندر كانت تعادل آلافاً مؤلفة من قوات الجيش ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى جن جنون الملك العظيم وعوّل على الهرب والفرار إلى قلب آسيا ، وأصبح جيشه ، فيما عدا فرقة المرتزقة من اليونانيين ، أشتاتاً تلوذ بالفرار بعد أن وهنت عزيمتها وذهب ريحها .

وكان إذ ذاك أمام الإسكندر طريقان ليختار أحدهما : فنى وسعه أن يقتفى أثر « دارا » ويحاول لتوه تسويغ الادعاء الذى كان قد أعلنه وشيكاً بأنه أصبح سيد آسيا ؛ أو إن شاء يترك الفرس يلمون شمل جيشهم بينما يتفرغ بنفسه إلى دعم مركزه وتوطيد أقدامه فى الغرب . وهو وإن لم يبلغ من العمر إلا ثلاثة وعشرين عاماً فإنه كان قد أوتى عقل الرجل السياسى العظيم والقائد الحكيم ، ولذا قر قراره على أن يختار السياسة الأسلم عاقبة مع أنها أقل روعة واستهواء للأبصار. إنه كان موقناً أن الأمر يتطلب من « دارا » فترة طويلة من الوقت ليتم تعبئة جيوش آسيا وحشدها ، ثم تذكر من الناحية الأخرى أن الأسطول الفارسى لا يزال رابضاً من خلفه ولاسبيل له بتحديه ، بل وقد يستطيع هذا الأسطول أن يقطع سبل الاتصال بينه وبين مقدونيا تماماً . وإذاً فمن الأحوط أن يأخذ بالسياسة الحكيمة التى كانت تملى عليه أن يضمن ولاء شواطىء حوض البحر المتوسط الشرقى حيث اتخذ الأسطول المعادى قواعده التى لا يستطيع

بدونها البقاء طويلاً فى نشاطه . وعلى ذلك يمم شطر الجنوب واحتل بدون كبير عناء المدن الشمالية الواقعة على الشاطئ السورى واستولى على « صور » بعد حصار طويل شاق سالت فيه الدماء ثم استمر فى زحفه صوب مصر .

وقبل سقوط « صور » تطلب الأمر منه أن يتخذ قراراً خطيراً يتوقف عليه تقرير المصير وذلك عندما كتب « دارا » يعرض عليه أن يزوجه من ابنته ويعقد معاهدة تحالف معه ويولّيه الحكم على الإمبراطورية الفارسية غربى الفرات. وكان هذا العرض مغرياً : فلو أن الإسكندر قبله أو بالأحرى لو أنه كان قد قتل عند الغرانيكوس حيث يرجع الفضل إلى سيف كليتوس (Cleitus) فى إنقاذه من الموت على يدى الوالى الفارسى سبيثريداتيس (Spithridates) — لتغير تاريخ العالم بأسره؛ ولكن آمال الإسكندر وأطماعه كانت قد اتسعت آفاقها منذ « إسس » فلما أعلن قائده الأمين پارمينيون (Parmenio) أنه لو كان محل الإسكندر لقبل هذا العرض ، اكتفى الإسكندر بالرد الآتى : « وهذا ما كنت فاعله لو أننى كنت پارمينيون » .

وما كانت مصر أبداً عضواً راضياً طيعاً فى الإمبراطورية الفارسية؛ بل إن هناك تنافراً أساسياً فى الطبع والمزاج بين المصريين وهم المشركون الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة ويعبدون الصور والأصنام ، وبين الفرس مع ما جبلوا عليه من كراهية لعبادة الأوثان وما طبعوا عليه من ميول وحدانية . وكما كانت الحال فى فرنسا عند وقوعها فى حالة حرب مع إنجلترا ، تعمد إلى تقديم العون للساخطين من الأيرلنديين فكذلك فعل اليونانيون فشجعوا على قيام الثورات فى مصر وقدموا العون والمساعدة للمصريين ، على أن البلاد كانت طوال الشطر الأكبر من القرن الرابع قبل الميلاد ، مستقلة فعلاً ، وحدث أن الفرس قبيل مقدم الإسكندر بعشر سنوات فقط قضوا على آخر فرعون مصرى؛ ولما أدرك الوالى الفارسى مازاكيس (Mazacês) أنه لاجدوى من المقاومة استولى عليه اليأس وسلم بدون قتال ودخل الإسكندر ممفيس حيث تقمص فى صورة الهيلينى الصميم ، الراغب فى إبراز مدى التباين بينه وبين الفرس فقدم الولاء والخشوع للآلهة المحلية

ورضى به الناس ، فيما يبدو بلا نزاع ، ملكاً على مصر . واحتفل بهذه المناسبة بوصفه هيلينياً صميماً كذلك ، بإقامة المباريات فى الألعاب وتنظيم احتفال تمثيلى وموسيقى ، اشترك فيه بعض الفنانين البارزين فى بلاد اليونان وكان هذا فى خريف عام ٣٣٢ ق.م. ومن ممفيس سار بمحاذاة الفرع الغربى للنيل إلى كانوبوس حيث أسس فى شقة من الأرض الرملية المحصورة بين بحيرة مريوط والبحر ، مدينة الإسكندرية اليونانية وقد سميت تخليداً لاسمه نفسه ؛ ومنها رحل إلى واحة سيوة لاستشارة وحى آمون وهو الإله المصرى الذى تعرف عليه اليونانيون على أنه يقابل عندهم إلههم زيوس (Zeus). أما لماذا فعل الإسكندر ذلك وما هى الأسئلة التى تقدم بها إلى الوحى وما هى الإجابات التى لقيها — فكل ذلك مسائل شائكة ، حار المؤرخون فى مناقشتها والتعرف على كنهها منذ ذلك الحين ولن نصل أبداً إلى سبر غورها ومعرفة الجواب الصحيح عنها لأن الإسكندر حفظ سره لنفسه . إنه بعث لأمه ينبئها بأنه سوف يطلعها وحدها على سره بنفسه عقب عودته ولكنه لما لم يرجع إلى مقدونيا فقد أخذ معه هذا السر الدفين إلى قبره .(١)

ومع ذلك فإن أمراً واحداً نعرفه على سبيل اليقين وهو أن كاهن آمون حياه على اعتبار أنه ابن الإله ، وفى نظر المصرى كانت هذه هى التحية التقليدية الواجبة لأى ملك على مصر وما كان الإسكندر إلا ملكاً عليها إذ ذاك ولكنه لم يعرف كنه ذلك الأمر ؛ [فآمون عنده هو بمثابة زيوس ، الإله الأعظم لدى شعبه اليونانى] * وعلى ذلك تركت هذه الواقعة فى نفسه أثراً عميقاً باقياً ، وهو بما أوتى من طبع جبل على حب عميق للتدين وسعة الخيال ، كان دائم الشعور بأن شخصه يحظى بشىء من التأييد والعناية السماوية الخاصة ، ومن ذلك الحين أخذ يتصور نفسه على أنه مرتبط بآمون بعلاقة خاصة ** وأن حملته ماهى إلا تكليف من نوع ما ، بعثته العناية الإلهية لأدائه(٢) . وعلى مضى السنين

* حذفت هذه الفقرة فى التعديل والتصحيح الذى بعث به إلى سير « هارولد بل » كما عدلت الفقرة التالية لها على نحو ما جاء فى المتن .

** هذه الفقرة معدلة بحذف عبارة « الابن المختار لزيوس آمون » .

وتواليها أخذت أفكاره تنضج وتتبلور ثم تتسع آفاقها شيئاً فشيئاً ؛ وكانت صفته عندما رسا على آسيا تقوم على أنه خليفة لأبيه ووارث له وملك على مقدونيا وقائد عام لبلاد اليونان وأداة مختارة للأخذ بثأر اليونانيين وصبّ جام غضبهم على عدوهم التقليدى وهو الفرس . ثم مالبث أن أصبح بنفسه إذ ذاك ملك فارس والحاكم بأمره شبه المؤله وكانت رسالته تنطوى على شفاء الجروح والأحقاد القديمة ورأب هوات العداوة الدفينة ورتق شقة الخلاف . وبعد عودته إلى سوسا (Susa) من حملاته المظفرة التى ساقته حتى صميم البنجاب ، أقام حفل عرس عظيم فى سوسا وفيه تم زواجه هو نفسه من ابنة دارا كما عقد ثمانون من المقدونيين البارزين على زوجات فارسيات أو إيرانيات ، ولم يكن هذا الإجراء مجرد عمل أملته السياسة وإنما كان مشهداً رمزيًّا يكاد رباطه يبلغ حد التقديس ، وفيه كناية عن فكرته الرائعة المتضمنة عقد زفاف أوربا على آسيا ؛ لأننا فى أغلب الظن على حق ، حسبما أثبته الدكتور تارن (Tarn) * ، فى تصديق أقوال المؤرخين القدماء بأن الإسكندر كان أول من أعلن فى صراحة ووضوح عن فكرة وحدة الجنس البشرى ، وهى أن الناس جميعاً إخوة يؤلف بين قلوبهم جميعاً رابطة البنوة للإله المعبود[٣] .

وما من أحد من قواد الإسكندر كان فى الحقيقة يبدى العطف أو يفهم تمام الفهم مبلغ ماتنطوى عليه أفكار الإسكندر ذات الأفق الواسع ، فلما توفى فى الثالث عشر من شهر يونيه سنة ٣٢٣ ق . م . بسبب حمى الملاريا التى أصابته وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره كان المصير المحتوم لمشروعاته أن تطوى غير كاملة ؛ ولكنه كان من قبل ذلك قد أنجز منها قدراً يكفى لتغيير مجرى التاريخ ، وكانت قوة الظروف القاهرة وحدها هى التى فرضت مزج أوربا بآسيا ، فالإمبراطورية الفارسية لم يعد لها كيان أو وجود وأصبح يتحكم فى

* نشر الدكتور تارن فى سنة ١٩٤٨ كتاباً عن الإسكندر فى جزءين ، أفرد الجزء الأول لسيرته وأحاط فيه بأعماله وفتوحه ، متقصياً للدوافع والأسباب التى حفزت الإسكندر إلى جلائل الأعمال فى الإنشاء والتعمير وتوحيد العالم القديم و تحطيم الفوارق بين اليونانى والفارسى . وقد نشرت منذ أكثر من عشر سنوات ترجمة هذا الكتاب إلى العربية واضطلع بهذا العمل زكى على . (المترجم)

مصائرها إذ ذاك ابتداءً من حدودها الشمالية إلى الجنوبية ومن الغربية إلى الشرقية ، المقدونيون الذين كان يتوافر فيهم جميعاً على الأقل قدر لابأس به من الثقافة الهيلينية ؛ ومن أجل توطيد أركان سلطانهم فى ممتلكاتهم هذه ، بل ولخير هذه الممتلكات ورفاهيتها ، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاعتماد على العون والمساعدة التى يقدمها لهم المرتزقة من جند اليونان والعلماء اليونانيون والاقتصاديون والإداريون والفنانون من اليونان ، وحيثما كان يذهب الإسكندر كان يمضى فى تأسيس مدن على النسق اليونانى فنهج خلفاؤه فى آسيا على هذا المنوال . وكما حدث فى القرن السادس عشر حيث تقاطرت أفواج من الأسبان المغامرين نحو الغرب ، يسعون إلى طلب الرزق ويبحثون عن الثراء فى العالم الجديد ، أو كما حدث فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما نزح أناس من بريطانيا باحثين عن عمل يحققون من ورائه كسباً ومجداً فى جزر الهند الشرقية أو راغبين فى الاستقرار فى المستعمرات بأمريكا الشمالية ، فكذلك جرى فى خلال القرن الذى تلا موت الإسكندر ، إذ انساب تيار كالسيل المنهمر لاينقطع من المهاجرين اليونان نحو الشرق والجنوب ، غمر البلاد التى كان يرجع الفضل لعبقرية الإسكندر فى أن فتحت لهم أبوابها ؛ وقد أخذ هؤلاء معهم فنهم وأدبهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة ونظمهم المدنية ونواديهم الرياضية والثقافية وألعابهم وأعيادهم . وما كانت وجهة تلك الحركة الفكرية والروحية صوب ناحية واحدة دون أخرى ، فلما وجد أولئك المتوطنون أن الشقة بعدت بهم عن وطنهم اليونانى وأنهم حيث يقيمون يعيش بين ظهرانيهم آسيويون أو مصريون ، كان حتماً مقضياً أن يستبسلوا إلى الاندماج فى الوسط المحيط بهم ؛ وعلى الرغم من أن الحكام الجدد أبدوا السخط والتبرم بسياسة الإسكندر التى استنها وهى تقضى بمعاملة الفرس على أنهم نظراء لهم ، فإن أولئك الحكام لم يسعهم إلا أن يطلبوا إلى الأهلين من رعاياهم أن يعاونوهم فى أعمال الحكومة ، بل إنهم أنفسهم قد استسلموا إلى المؤثرات الشرقية .

ومابى من حاجة إلى الدخول فى تفاصيل الحروب التى أعقبت موت الإسكندر ؛ وموضوع النزاع ومحور الخلاف كان يدور فى أول الأمر حول ما إذا كان فى

المستطاع ضمان وحدة الإمبراطورية ثم مَن يحمل عبء السلطة الرئيسية فيها ، فلماتبين فيما بعد أن الوحدة ضاعت إلى غير رجعة انقلب الأمر إلى صراع بين الدول المتعاقبة من أجل تحقيق السيادة والسيطرة السياسية والاقتصادية ؛ وأحد هؤلاء القواد فيما يبدو لم تستهوه السلطة العليا فى تلك الإمبراطورية مطلقاً فلم يسع إليها ، ذلك هو بطلميوس بن لاجوس (Ptolemy, son of Lagus) أحد أركان حرب الإسكندر السبعة والقائمين على حراسته ، وكان فى تقدير هذا القائد أن عصفوراً سميناً طيباً فى اليد خير من بضعة عصافير فى الغابة . وقد استطاع فى التسوية التى تمت عقب وفاة الملك أن يضمن لنفسه الولاية على مصر لتكون « ساترابية * » خالصة له . وقد رضى بأن يوطد مركزه ويثبت أقدامه فيها وحالفه التوفيق أكثر من مرة فى إحباط ماكان يدبر من مؤامرات لخلعه ، ولكنه ماكان ليخرج من حصنه المنيع إلا بين حين وآخر لمساعدة من كان يبدو له أن كفته فى الغلبة والنجح أرجح . وكان فيما يقدمه من عون ، حريصاً على ألا يبدى من النشاط ماقد يجر عليه التعرض لأخطار لاداعى إليها . وكانت رغبة الإسكندر قد بدت فى أن يدفن بواحة سيوة معبد والده آمون ، ولما كان بطلميوس يعلم أن لپيرديكاس الوصى مآرب أخرى ، عوّل على التعجيل بالاستيلاء على جثة الملك ورحل بها فى الحال إلى ولايته (ساترابيته) ليقوم بدفنها — مع كل هذا — لا فى الواحة بل فى ممفيس ، وقد تم نقلها بعد ذلك على يد ابنه بطلميوس الثانى إلى مكان اشتهر وعرف باسم « سيما » ** أو المقبرة فى الإسكندرية ، إلا إن ذلك كان من قبيل الاحتياط الحكيم ؛ وقد وجد يومينيس (Eumenês) — وهو اليونانى الوحيد بين أبطال النزاع فى الحروب الأهلية — أن فى مركزه بعض الحرج بالنسبة لمنافسيه من المقدونيين وأن من المجدى له أن يحمل معه خيمة الإسكندر على سبيل الحرز فيستطيع عرضها على الناس حتى يخيل إليهم أنها

---

* ساترابية (satrapy) نظام فارسى معناه الولاية من أملاك الفرس يولّى عليها حاكم بلقب ساتراب (satrap) أو مرزبان . (المترجم)

** كلمة سيما (Sêma) محرفة من سوما (sôma) اليونانية ومعناها جسد . (المترجم)

لا تزال مأهولة بروح سيده العظيم، فما أعظم فوزَ بطلميوس وما أكبر نفعه ، وهو المقدونى المولد ، بالاستحواذ على جثة الملك فعلاً !

تولى الحكم فى مصر أول الأمر بطلميوس بوصفه والياً (ساتربا) وقد جاء فى ديباجة أقدم وثيقة بردية مما كشف عنه من البردى اليونانى المؤرّخ [٤] ما يلى : « إنه فى السنة السابعة من حكم الإسكندر بن الإسكندر والرابعة عشرة من ولاية بطلميوس فى شهر ديوس * » أعنى سنة ٣١١ ق. م. وعقب موت الإسكندر انتخب أخ له غير شقيق كان مصاباً بالخبل فى قواه العقلية ، وهو فيليب أريدايوس (Philip Arrhidaeus) ، شريكاً فى الملك مع ابن الإسكندر المنتظر — وقد تمت ولادته بعد ذلك ببضعة أسابيع —من أميرة من أهل باكتريا (بلخ) تسمى روكسانا (Roxanê) وفى سنة ٣١٧ لقى فيليب حتفه اغتيالاً بتدبير من أم الإسكندر أوليمبياس (Olympias) وقد أعدمت الأخيرة بدورها فيما بعد بأمر من كساندر (Cassander) الذى نصب من نفسه سيداً على مقدونيا ، وفى سنة ٣١١ وهى السنة التى أرخ فيها العقد السالف الذكر ، قتل كساندر كلا من الإسكندر الصغير وأمه روكسانا فأصبح العرش شاغراً من غير ملك إذ ذاك ، ولكن الحكام القابضين فعلاً على ناصية الأمور درجوا على أن يطلقوا على أنفسهم حتى سنة ٣٠٦ الولاة ، مجردين من أى لقب آخر . وفى هذه السنة بالذات عمد أنتيجونس (Antigonus) وكان لايزال من دعاة مبدأ وحدة الإمبراطورية ، إلى اتخاذ اللقب الملكى لنفسه فجاوبه على ذلك منافسوه وهم : كساندر والى مقدونيا ، وسيلوكوس (Seleucus) والى سوريا وبطلميوس والى مصر ، باتخاذ إجراء مماثل ، وأعلن كل منهم فيما يخصه ، نفسه ملكاً على ولايته ، وهكذا ظهر فى حيز الوجود ثلاث ممالك كبرى ، قدر لها أن تسيطر على العالم الهيلينى حتى تم للإمبراطورية الرومانية التهام الواحدة

* ديوس (Dius) أحد أشهر السنة المقدونية وهى سنة قمرية ، كان يستخدمها المقدونيون فى مصر فى تأريخ وثائقهم وبخاصة فى الفترة الأولى من الحكم البطلمى ثم ما لبثوا أن تأثروا بالمحيط المصرى ، وبخاصة فى ريف مصر فأرخوا بالسنة الفرعونية (الشمسية) . (المترجم)

تلو الأخرى من هذه الممالك.

وقد أصبح بطلميوس إذ ذاك ملكاً على مصر وفرعوناً لها وهو فى نظر رعاياه من المصريين بمثابة إله، وكان يبدو عليه أنه جندى بشوش مخلص غيور ولكنه كان داهية حصيف الرأى ومقدونياً صميماً من طبقة الأشراف الأقلاء ؛ وكان راعياً ونصيراً للآداب والمعرفة اليونانية ولم يكن هو نفسه خلواً من الثقافة ؛ فهو مؤلف سيرة غزوات الإسكندر وحروبه وهى وإن لم يوجد لها أثر للآن إلا أنها كانت بطريق غير مباشر أحد مصادرنا القيمة جداً إذ أنها استخدمت فى تصانيف المؤرخين الذين حفظت مؤلفاتهم من الضياع ؛ وقد انتهج فى مصر سياسة مغايرة للسياسة التى سار عليها سيلوكوس فى سوريا وكان الأخير قد حذا حذو الإسكندر فى اتباع سياسة تأسيس المدن ، ولكن بطلميوس ، وهو على حد سواء كان يتخذ عماداً له ما كان يلقاه من المساعدة اليونانية ، قد آثر إسكان جنده من المرتزقة لا فى المدن ذات الطابع اليونانى ، بل بين ظهرانى الشعب المصرى إما فى محيط الأراضى الزراعية أو فى عواصم النومات أو المحافظات التى انقسمت إليها مصر ، وكانت أمهات المدن هذه (mêtropoleis) حسبما كان يطلق عليها ، فى أغلب الظن بلداناً ذات مساحة لا بأس بها ؛ ولكنها كانت فى تقدير اليونانيين لا تزيد فى الحق كثيراً على قرى مفخمة وذلك لأنه على الرغم من إطلاق اليونانيين عليها اسما اصطلاحياً فى عجزه كلمة مدينة أى پوليس (polis) مثل هرموپوليس (Hermopolis) أى مدينة هرميس (Hermes) (الأشمونين ، مركز ملوى) أو هيراقليوپوليس (Hêracleopolis) أى مدينة هرقل (Heracles) ، فإنها لم تكن تتمتع بأى قسط من الحكم الذاتى ، فليس هناك مجلس يضم شمل الأحرار فيها ، وليس بها سناتو (مجلس شيوخ أو مسنين) إنما كانت تخضع لسلطات موظف موكل بتولى الحكم فى محيط ذلك الإقليم . ولم يؤسس بطلميوس سوى مدينة يونانية واحدة سميت بطلمية (Ptolemais) نسبة إليه ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من النيل فى مصر العليا ، (محلها الآن المنشاة بمديرية سوهاج) ، وهى بالإضافة إلى الإسكندرية وإلى المدينة

اليونانية القديمة نقراطيس (Naucratis) الواقعة فى غرب الدلتا (محلها نقراش وكوم جعيف ونبيرة مركز إيتاى البارود). ، تمثل وحدها فى مصر الفكرة الهيلينية التقليدية عن البوليس (polis) أو المدينة وما تتمتع به من حكم ذاتى[٥] .

وقد قيل من قبيل الظن إن بطلميوس الأول وخلفاءه، بدلاً من أن ينتهجوا السياسة التى ابتدعها الإسكندر وشرعهالهم ،حادوا عنها من حيث المبدأ بالتفرقة بين اليونانيين (ومن باب أولى المقدونيين) وبين المصريين ، فكان الفريق الأول يمثل سادة القوم (Herrenvolk) أما الفريق الثانى فكان قوامه الكافة المحكومين من الرعية الذين هم فى منزلة دنيا ، وقد أقصوا نتيجة لذلك عن الجيش وجميع المناصب الإدارية العليا . بل إن هناك رأيا مدعماً بالحجج يقول بأن اتخاذ الإسكندرية كحاضرة للبلاد بدلاً من ممفيس حيث طاب أول الأمر لابن لاجوس المقام وبأن نقل جثمان الإسكندر إلى الـ « سيما » (Sêma) فى مدينة الإسكندرية — كل ذلك كان عنواناً على التخلى نهائياً عن أى ميل ، ربما كان قد بدأ فى أول الأمر ،إلى اتخاذ المصريين شركاء على قدم المساواة فى الدولة[٦] . ومن الجائز أن هذا الرأى يحتاج إلى شىء من التعديل والتمحيص ؛ فمما لاريب فيه أن بعض أوجه الاختلاف فى منزلة الناس وأحوالهم من الناحية القانونية كانت قائمة بالفعل ، ولنذكر على سبيل المثال أن القوات المقدونية كانت متمتعة ببعض الامتيازات وأن أعمال السخرة أو التعرض لأداء الواجبات اللازمة لصيانة قنوات الرى والمحافظة على الجسور ربما كانت فرضاً لازم الأداء على أهل الريف من المصريين وحدهم (ولو أن هذا القول يعوزه التحقيق)[٧] . أما اليونانيون ومن على شاكلتهم من المستوطنين الآخرين فكانت تنتظمهم جاليات تسمى پوليتيماتا (Politeumata) أو جماعات قوامها رابطة الجنس ولها قوانينها الخاصة بها ؛ ولكن ليس لدينا فى الحقيقة أى دليل مادى على وجود مثل هذه التفرقة الشديدة القائمة على أساس التفاوت فى الجنس على النحو الذى تقول به تلك النظرية ؛ فالبطالمة الأولون ، مهما كان تشربهم بروح الثقافة الهيلينية ، لم يكشفوا فى سياستهم الرسمية عن أى اهتمام بالنظريات البحتة سواء أكانت ذات طابع

اقتصادى أم سياسى ، فكانوا إداريين متسمين بالحزم وصلابة الرأى كما كانوا رجال أعمال غيورين على أن يهيئوا للدولة التى أسسوها كل مايلزمها من الاستقرار والثراء والنفوذ فى العالم ؛ وكانت تحدوهم فى سياستهم هذه اعتبارات ذات طابع عملى بحت ؛ وما حدث فى أى عصر منذ أيام عظمة الإمبراطورية فى حقبة الألف الثانى قبل الميلاد أن كان المصريون جنوداً من الطراز الأول ، وعلى ذلك عوّل البطالمة بعد أن انقطعت سبل الاتصال بينهم وبين وطنهم الأصلى فى مقدونيا التى زودت الإسكندر بنواة جيشه ،على أن يعتمدوا بوجه خاص فى تعبئة جيوشهم على الجند المرتزقة من يونانيين ومقدونيين وفرس وآسيويين مطبوعين بالطابع الهيلينى ، وكان بطلميوس الأول هو البادئ بانتهاج سياسة إسكان أكبر عدد ممكن من الجند المرتزقة فى مصر حيث تسلموا أنصبة من الأرض على شريطة أن يكونوا مستعدين لأداء الخدمة العسكرية كلما دعت الحاجة إلى ذلك . ثم إن الزيادة المطردة فى الاستعاضة بالاقتصاد النقدى القائم على استخدام العملة المسكوكة ، عن الاقتصاد الطبيعى أو العينى وهو أقدم عهداً والعماد فيه على الغلال ، ويرجع بدء هذا التطور من قبل إلى حكم الفرس — كانت تتطلب بالطبع الاستعانة بجهود رجال المال من اليونانيين ، كما كانت الحاجة ماسة إلى علماء الرياضة والإخصائيين فى الفنون من اليونانيين للنهوض بمشروعات البطالمة من استصلاح للأراضى والقيام بالتجارب الزراعية على أسس علمية ، كما استعانت الدولة بالإداريين من اليونانيين فى بناء حكومة مركزية دقيقة ، اضطلعت بحكم البلاد وإدارة شئونها . وكانت لهجة الكوينى (koinê) أو صورة اللغة اليونانية فى شكلها العالمى معتمدة على اللهجة الآتيكية ، بل إنها حلت محل اللهجة المقدونية،قد أصبحت اللسان المستعمل فى دوائر البلاط الملكى والجيش وفى دواوين الإدارة ؛ وكانت أنظار ملوك هذه الأسرة البطلمية متجهة صوب الأفق الخارجى عن مصر ، ونحو عالم الحوض الشرقى من البحر المتوسط حيث اشرأبت نفوسهم طموحاً وطمعاً فى القيام بدور رئيسى فى محيطه . ولم تكن مصر بالنسبة إليهم سوى محور ارتكاز قوتهم ومخزن « شونة »

غلال تموينهم ومورد ثرائهم .وليس لدينا من دليل ينهض على أن أحد ملوك البطالمة من قبل كليوباترة الأخيرة "هم" بتعلم اللغة المصرية على الإطلاق والتحدث بها.

فالمصريون حينذاك ، وهم الذين بالأمس رحبوا بمقدم الإسكندر واعتبروه مخلصاً لهم ، كان لهم بعض العذر فيما خامرهم من شعور بأنهم فى عهد البطالمة إنما كانوا يعاملون فى الواقع ، إن لم يكن نظرياً ، على أساس أنهم شعب ذليل مقهور . وكان شعورهم بتلك المذلة والمنزلة الدنيا قد تأكد لديهم بما كانوا عليه من عدم المساواة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وكان بعض الكهنة من ذوى المراتب السامية ونفر قليل من أفراد المصريين الذين تولوا وظائف هامة فى السلك الإدارى ، يؤلفون نوعاً من الأرستقراطية الوطنية ، ولكن الغالبية العظمى من المصريين كانوا ينتمون إلى طبقة منزلتها فى المجتمع أدنى من منزلة المستوطنين من اليونانيين فى مصر فكان من المصريين من اتخذوا الحرف والصناعات مهنة لهم ، ومنهم من استأجر الأرض الملكية ؛ ولو أن بعضهم تسلم حصصاً من الأرض (klêroi) أو استحوذ على قدر من الأرض « الخاصة » فإن حصصهم وأنصبتهم كانت فى العادة أقل من مثيلاتها لدى اليونانيين . وفى الحق إنهم كانوا بوجه عام فئة المستأجرين والمستخدمين ، فهم الأداة المنفذة والطبقة الكادحة والعاملة باليد ويقابلها من الناحية الأخرى طبقة بيدها السلطة الإدارية ولها هيمنة ونفوذ . ولاريب أن المصريين كانوا يشعرون بما هم عليه من منزلة دنيا ، وكثيرون منهم كانوا يقابلون ما يعدونه من قبيل احتقار اليونانيين لشأنهم ، بالعدوان والنفور ؛ وكان أمراً طبيعياً أن يقابلوا فعال أولئك اليونانيين بشىء من الأنفة القومية والاحتقار لأساليب وأقدار أولئك المستوطنين « المحدثين المتحذلقين »[٨] .ولدينا دليل قاطع مشتمل على بعض قطع من الأدب المتأجج بروح الوطنية والمنطوى على بعض النبوءات ، يشير إلى وجود حزب وطنى ناهض كانت تداعبه الأحلام ويتطلع إلى اليوم الذى ينتظر فيه طرد ذلك الملك الأجنبى البغيض من البلاد . ولعل الشعب المصرى فى جملته قد قبل الوضع الجديد فى شيء من الاستسلام ؛ والكثيرون منهم تعلموا اللغة اليونانية واتخذوا

لأنفسهم أسماء يونانية وانتفعوا بقدر المستطاع من جراء تغير الأحوال والأوضاع ؛ بل إننا نجد فى القرن الثالث قبل الميلاد مصريين وإن كانوا فى الحقيقة غير متولين أسمى المناصب الإدارية إلا أنهم كانوا يشغلون وظائف لها بعض السلطان وكانت طبقة الكهنة محط التقاليد الوطنية الصميمة ومستودعها الأساسى ؛ وفى أكثر من مرة زودت البلاد بالقادة والزعماء فى الثورات الشعبية ، وما لبثت هذه الطائفة أن وجدت أن الحكام الجدد أخف ظلاً وأقل تنافراً وبغضاً من الحكام القدامى . ولو أن ملوك البطالمة الأول لم يطيقوا أى تحد لسلطانهم فإن أسرة البطالمة بوجه عام أبقت للكهنة امتيازاتهم وقامت بتشييد معابد جديدة وتوسيع القديمة وزخرفتها وتجميلها ؛ ويرجع الفضل إلى كاهن مصرى هو مانيتون (Manetho) فى أنه — على مايظهر — لقى من التشجيع الملكى ماساعده على تصنيف تاريخ لمصر باليونانية ، جمعه مما وجده بسجلات المعابد ومما تواترت به التقاليد المتوارثة . وهذا التاريخ وإن كان مفقوداً الآن فيما عدا نتفاً وفقرات باقية منه إلا أن هذه الأجزاء كانت — إلى أن حلت رموز الكتابة الهيروغليفية — تقوم عن طريق استخدامها بوساطة الكتاب الذين عاشوا بعد مانيتون ، مقام المرجع الأساسى الباقى لدينا عن العصور الأولى من تاريخ مصر . ومن بين الحروب الداخلية التى نشبت فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد واستنزفت قوى الملكية ، اندلعت بضع ثورات وحركات قومية كان الوازع لها حب الوطنية ؛ ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثالث ترامت إلى سمعنا أنباء عن قيام اعتصابات وطنية ، ولكن لم يحدث فى وقت ما أن كان هناك عصيان عام بين الوطنيين من المصريين ضد حكامهم المقدونيين . وفى تلك القلاقل التى سلفت الإشارة إليها كان هناك دائماً مصريون يُظاهرون الحكومة ويضلعون معها ، كما كان هناك غيرهم وقفوا فى صف الجانب الشعبى وناصروه ؛ بل إننا وجدنا فى سنة ١٣٠ق .م . مصرياً يسمى پاءوس (Paôs) تولى القيادة على الجيش الملكى بوصفه حاكماً على الإقليم الطيبى .

أما اليونانيون فى مصر ، فهما كان اعتزاز أولئك المواطنين الأحرار المقيمين فى الإسكندرية وبطلمية بتقاليدهم اليونانية المتوارثة ، ومهما بلغ من احتقارهم

للمصريين والنظر إليهم على أنهم أعاجم متبربرون فإن اليونانيين الذين استقر بهم المقام فى الأقاليم الريفية ما لبثوا أن فقدوا ما يمكن أن يكونوا قد أظهروه أول الأمر من اعتزاز بشخصيتهم وترفع عن مخالطة غيرهم ؛ فأخذ يعم التزاوج بينهم وبين الأهلين وبدءوا يسمحون باتخاذ أسماء مصرية يطلقونها على أفراد أسرهم ويتشكلون ويتطبعون شيئاً فشيئاً بظروف البيئة المحيطة بهم بمختلف الطرق والأوضاع . وفى خطاب من البردى يرجع تاريخه إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٩) ، تتحدث كاتبته عن ابنها وقد أخذ يتعلم اللغة المصرية على أنها وسيلة من وسائل تحسين أحواله المادية ؛ وكان هذا التطبع والاستيعاب ملحوظاً بصفة خاصة فى نطاق الديانة ، فكان اليونانيون يتظاهرون دائماً بأنهم متسامحون ، يتقبلون الآلهة الأجنبية بقبول حسن ؛ فكان يُتعرف على ذاتية الآلهة والإلهات المصرية بين نظرائها ونظيراتها عند اليونانيين ؛ وعند مانقرأ أسماء الآلهة اليونانية الواردة فى أوراق البردى يتحتم علينا دائماً أن نسائل أنفسنا : أليس مرمى تلك الإشارة إلى بعض الآلهة أو الإلهات المصرية ؟ وفى الحق أنه ليغلب على الظن أن مباشرة العبادة الفعلية للآلهة الأوليمبية على الأقل قد انقرضت لحد كبير بين المستوطنين ثم حلّ محلها الخضوع للمعتقدات الدينية المحلية أو للآلهة المصرية . وفى سنتى ٩٨ ، ٩٥ قبل الميلاد تكشفت لنا جماعات من الشبيبة اليونانية ممن يعرفون بالإيفيبيين (Ephebes) المثقفين وفق التقاليد الهيلينية المتوارثة ، يقدمون الطقوس والقرابين للإله التمساح بالفيوم .

وفى عهد بطلميوس الأول ظهرت عبادة جديدة هى عبادة سيرابيس (Sarapis) وقد اعتبرت بدعاً قصد بها الملك أن تكون حلقة اتصال بين رعاياه من اليونانيين والمصريين ؛ ولا يزال الأصل الذى اشتقت منه هذه العبادة محل نقاش وخلاف كبيرين ، وقد جاءت الأقوال الواردة فى كتابات المؤلفين القدماء متضمنة أن بطلميوس الأول(١٠) هو الذى أحضر التمثال الذى كان رمز هذه العبادة من سينوپى (Sinope) أو من مكان آخر بآسيا مدعاة إلى تطرق البحث عن مصدر أسيوى ترجع إليه هذه العبادة ، وقد بذلت محاولة للتعرف على سيرابيس على أنه

هو ذات الإله البابلى شار — أپسى (Shar-apsi) ولكن بعد أن انبرى ڤلكن[11] (Wilcken) لبحث هذا الموضوع بحثاً وافياً توخى فيه الدقة ، يبدو أنه لم يعد هناك أدنى شك فى أن ذلك الإله الجديد إن هو فى الحقيقة إلا صورة من أوسور — آپيس (Osorapis) المصرى وقد اصطبغ بصبغة هيلينية . والعجل آپيس (Apis) الذى كان يُعبد فى ممفيس وهو من بين الحيوانات المقدسة كلها التى كانت تعبد فى مصر ، أكثر معرفة لنا ، وقد جرى الناس على تصوره بعد الممات مطابقاً إلى درجة عجيبة لصورة أوزيريس (Osiris) ، إله العالم الآخر وأصبح فى الحق هو أوزيريس — أپيس (Osiris Apis) ولم يكن أوزيس — أپيس ، فى رأى ڤلكن ، هو أحد عجول أپيس بعد الممات وإنما هو صورة مجسدة ترمز لجميع الموتى من هاته العجول منذ البداية إلى مابعد ذلك بالتسلسل؛ وهناك دليل على أنه كان يعبد فى جوار ممفيس حتى بين اليونانيين وذلك قبل ظهور سيراپيس ، ويبدو أن مافعله بطلميوس ينطوى على رفع منزلة ذلك الإله المحلى إلى مرتبة لائقة بالحواضر وتمثيله للناس طبقاً للأفكار اليونانية (مستعيناً فى ذلك فى أغلب الظن بتمثال مجلوب من سينوبى أو من مكان آخر) فى صورة رجل فى مقتبل العمر ذى جمال فتان ، أشبه فى ذلك بزيوس اليونانى .

وإن إلهاً مصريًّا ، بكل ما كان يُسبغ عليه من بهاء سحرى مشوب بهالة من الغموض الذى كان يحيط بالديانة المصرية فى العالم القديم ، كما استمر بعد ذلك محيطاً بها ، كان مع ذلك يصور فى شكل إنسان ، فيعيد إلى الأذهان إله بلاد اليونان الأعظم ، فهل هناك أفضل من ذلك ملتقى يمكن تصوره للجمع بين اليونانى والمصرى ؟ ومع ذلك فإن كان هذا هو القصد الحقيقى الذى رمى بطلميوس إليه (واليونانيون كانوا بلا ريب على استعداد تام لتقبل العبادات المصرية دون حاجة ماسة إلى مثل تلك الرابطة) فإنه أخفق فى بلوغ غاية النجاح؛ وفى خارج ممفيس والإسكندرية وكلاهما يمثل المركز الرئيسى لهذه العبادة ، يبدو أن سيراپيس لم يلق سوى القليل من التأييد والقبول لدى الأهالى من المصريين ، ولم يزد إقبال الغالبية العظمى من المستوطنين من اليونانيين على ذلك

بكثير* . وفى الحق أن حظوته لدى الجمهور فى مصر كانت ذات طابع محلى لدرجة أن الإشارة إليه فى خطاب خاص كانت تفسر دائماً بأنها دليل على أن كاتبه على الأرجح كان سكندريا أو بعث برسالته من تلك المدينة[١٢]. أما فى خارج مصر فقصته على خلاف ذلك تماماً ، ويبدو أنه ليس بعيد الاحتمال على الإطلاق أن يكون قد أسيء فهم مقاصد بطلميوس ، وفضلاً عن أن تلك العبادة قد تركزت فى الإسكندرية حيث كان سيرابيس هو فى الوقت نفسه الإله المشترك والقطب الذى يلتقى عنده — على حد قولهم — تلك الجمهرة الخليطة من الناس وهو الرابطة بين تلك المؤسسة الهيلينية الجديدة وبين مصر ، فإن ذلك الإله قد ابتدع فى الحقيقة (إن صح هذا القول) بقصد الاستهلاك الخارجى أكثر منه للاستهلاك المحلى فكان المقصود بسيرابيس أن يكون الإله الراعى للإمبراطورية البطلمية وأن يضفى عليها مزيداً من الهيبة والمنزلة بإضافة ذلك الإله المصرى إلى مجموعة الآلهة العالمية الهيلينستية ، وقد وفق بطلميوس فى ذلك توفيقاً عظيماً . ومن قبل ذلك فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد كانت قد بدت أمارات ذلك الخور والضعف الروحى المتأصل وهو الذى كان طابعاً مميزاً وعنواناً على القرون الأخيرة من عهد الوثنية . وإنا فى الحق لعلى أتم استعداد لتصور ذلك العصر الكلاسيكى من التاريخ اليونانى نفسه مغموراً فى ضحى الشمس التى كانت تسطع عليه بأشعتها اللؤلؤية على الدوام ، ومع ذلك فإن « الشعور بالخطيئة » لم يكن بحال ما غير معروف ؛ ولكن بعد انهيار دول المدن ونشأة المدن الكبرى من أمثال الإسكندرية وأنطاكية (Antioch) ثم قيام عهود الاستبداد الحربى على نطاق واسع ، تفشى ذلك الشعور بالخطيئة بدرجة ملحوظة وصاحبه أن عم الرجاء فى ظهور ديانة من نوع ما ، يكون فيها الفداء للناس وضمان حياة الآخرة التى يرجى فيها إصلاح المفاسد والعثرات التى كانوا يتردون فيها فى الحياة الدنيا وكان من أجل إشباع ذلك الميل فى الناس أن انتشرت

* هناك مقال مستفيض عن مدى الانتشار الواسع لعبادة سيرابيس وإقبال الناس عليها بحسب ما جاء فى أوراق البردى من العصر اليونانى الرومانى والمقال منشور فى العدد التاسع من مجلة الدراسات البردية التى صدرت فى القاهرة فى أغسطس سنة ١٩٧١ وهو بالإنجليزية من تصنيف وتأليف المترجم .

عبادات بلاد اليونان القديمة ، المنطوية على الطقوس السرية ومنها عبادة ديميتر (Demeter) فى إلوسيس (Eleusis) وعبادة ديونيسوس — زاجريوس -Dionysus) (Zagreus ، ولكن فى هذا العصر الجديد كان الناس يتطلعون إلى الشرق ويتلمسون فى آفاقه بعض الخلاص والسلوى . وكانت عبادة سيرابيس ، الذى طابقت شخصيته الإله أوزوريس ، مصحوبة بإيزيس (Isis) ، زوجة الإله الأخير ، ومعها ابنها حورس (Horus) أو هاربوقراطيس (Harpocrates) قد عم انتشارها فى عالم البحر المتوسط حتى وصلت آخر المطاف إلى بريطانيا القاصية . وتحت ألوية آلهة من أمثال الأم الكبرى الفريجية وميثراس (Mithras) الفارسى * ، وسيرابيس المصرى ، قدر للوثنية أن تخوض معركتها الأخيرة ضد المسيحية فى القرنين الثالث والرابع .

وهكذا كان اتحاد أوربا بآسيا (مع ما ينطوى عليه ذلك من دخول مصر فى هذا الصدد) : وهو الحلم الذى كان قد جال بخاطر الإسكندر ، آخذاً سبيله إلى التحقيق تلقائياً ، نتيجة لفتوح الإسكندر الحربية ؛ ولكن شتان أن يتم هذا على نحو يتفق مع الخطوط الرئيسية أو يطابق الأسس التى كان الإسكندر قد رسمها ، من التزام المشاركة والمعاونة بين الطرفين على قدم المساواة ؛ وإنما كانت العلاقة بينهما علاقة الفاتح الغازى بالمهزومين الخاضعين ؛ ولكن إذا كان الشرقيون أو كثرتهم الكبرى قد اتخذوا لأنفسهم اللغة اليونانية لساناً ، والزى اليونانى لباساً ، واستوعبوا قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية ، فإن اليونانيين بدورهم قد اقتبسوا كثيراً من البيئة الشرقية التى تحيط بهم ، وبخاصة فى نطاق الدين ، ويصدق هذا القول بصفة خاصة على مصر حيث كان معظم المتوطنين من الأجانب غير مقيمين فى دول المدن التى توافرت فيها الكفاية

---

* ميثراس هذا ، إله فارسى يمثل النور والحكمة ، وكان فى أول الأمر يتمثل فى عبادة الشمس التى أخذت تتشكل بما تقتبسه من العبادات الأخرى ثم انتشرت تلك العبادة فى روما فى عهد القياصرة وأصبح عُبّاده كثيرين . وما لبثت المسيحية أن وجدت فيهم قوة شكيمة وصعوبة مراس إذ كانوا يذودون عن حياضهم ويظهرون حماة لديانتهم ، وتتمثل تلك العبادة فى شاب بهى الطلعة يلبس القبعة والرداء الفريجى ويركع فوق ثور وينقض على رقبته لينهشها . (المترجم)

الذاتية وتمتعت بالحكم الذاتى ، وإنما كانوا متفرقين منتشرين فى أنحاء البلاد بين ظهرانى الأهلين من المصريين ، وذلك فى بلد عرف بشدة الحرص على الاحتفاظ بشخصيته وذاتيته ؛ وعلى هذا النحو تكونت ثقافة خليطة امتزجت فيها العناصر اليونانية بالعناصر الشرقية امتزاجاً تاماً لاتنفصم عراه ، وهيأ ذلك أرضاً صالحة نبتت فيها المسيحية ووفر لها بحق من الضمانات والمستلزمات الضرورية ماساعد على قيام المسيحية وانتشارها [١٣] ؛ ولكن ذلك المركب المزجى لم يعرف الاستقرار على حال ، فالهيلينية بعد أن أخذ ينساب إليها فيض لا ينقطع من المؤثرات الشرقية المبردة والمطفئة لجذوتها ، ما كان فى وسعها أن تصمد لهذا كله مالم تلق العون الفعلى من الحكومة القائمة ، وبخاصة أن تلك الهيلينية لم تكن تزيد كثيراً عن غشاء أو طلاء يكسو ماتحته من ثقافة عريقة فى القدم ، وهى بحكم أصلها غريبة على اليونانيين . وهذا الغشاء فى مصر أرق مايكون فى الإقليم الطيبى الذى كان أبعد الأقاليم عن الإسكندرية وعن عالم البحر المتوسط ، وقد بلغ نفوذ رجال الدين فى ذلك الإقليم النائى أقوى مايكون ؛ ولعله كان يضم أقل عدد ممكن من المتوطنين من اليونان (ولو أن مانقوله فى هذا الشأن هو من قبيل الحدس والتخمين) .

وقد آن لنا أن نصف نظام الحكم الذى كان سائداً فى مصر البطلمية (مع الاقتصار بحكم الضرورة على مجرد المعالم الرئيسية) . والأدلة التى لدينا فى هذا الصدد يكاد أغلبها يكون مستقى من البردى والوثائق المماثلة . والبردى الذى يرجع عهده إلى بطلميوس الأول قليل غاية القلة ، وليس غنياً بالمعلومات فى موضوعنا الذى نحن بصدده بينما كان البردى الخاص بعصر خلفه وفيراً فى مقداره ، نفيساً فى قيمته . وعلى ذلك فأى وصف لحالة مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد لابد أن يعتمد بصفة خاصة على أدلة لايرجع عهدها إلى ماقبل حكم بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، ولكن لاسبيل إلى الشك فى أن هذا الملك كان ينهج سياسة هى من وحى أبيه . وفضلاً عن ذلك فإن مالدينا من وثائق كان مصدره فى الغالب من الفيوم ، على أن هذا الإقليم ليس بالإقليم المثالى

فى كثير من النواحى ؛ أمامعلوماتنا عن الإقليم الطيبى فى القرن الثالث فطفيفة ، وفيما يختص بالدلتا فلا تزال دون ذلك . أما عن العصر المتأخر من تاريخ مصر البطلمية فأدلته مشوبة بالقصور لما يعتريها من ترقيع ، فبينما هى وفيرة نوعاً ما فيما يختص ببعض الأقاليم والعصور إذا بها غيروافية على الإطلاق بالنسبة لأقاليم أخرى . ولكن فى وسعنا أن نعمل على صياغة صورة متسقة متجانسة ، وإن كانت غير وافية ، لتبيان النظام القائم فى عهد بطلميوس الثانى ثم إنه من اليسير أن نتتبع التطور الذى اعترى بعض نواحى هذا النظام فيما بعد .

بل إننا لو ضربنا صفحاً كلية عن تلك الممتلكات الأجنبية من برقة وقبرص وسوريا والمدن اليونانية الواقعة فى آسيا الصغرى أو فى الجزر — وكلها أملاك كان لها شأنها وأهميتها الملحوظة فى معترك السياسة البطلمية إبان القرن الثالث — فإن مصر لا يمكن أن توصف بأنها كانت دولة موحدة الأوصال ولها طابعها القوى وإنما كانت فعلاً حكومة مطلقة بيروقراطية المظهر ، مؤلفة من عناصر شديدة التباين ؛ فكانت الإسكندرية ونقراطيس وبطلمية دول مدن حرة من حيث المظهر والشكل ولها كيان ذاتى . أما فى الواقع فكانت تخضع بالطبع بطريقة فعالة للإشراف الملكى ولكنها بقيت محتفظة بقوانينها الخاصة بها وهى التى كانت تُحرم الزواج بين الأحرار فيها وبين المصريين ، وكانت جميع أساليب الحكومة الذاتية وأدواتها مكفولة لديها . أما المتوطنون فى الأقاليم الريفية من يونان وغيرهم فكانوا ينتظمون كما أوضحتُ، فى جاليات (Politeumata) لها بعض نظمها (غير المعروفة على سبيل التحقيق) ولها قوانينها المرعية الخاصة بها . ثم هناك آخر الأمر أهل البلاد من المصريين وقد أخذ أفراد الطبقات العليا من بينهم ممن انطبعوا بالطابع اليونانى ، فى التزايد وإظهار الميل الشديد إلى الاختلاط بالمتوطنين من اليونانيين ولكن عامة الفلاحين احتفظوا بكل خصائصهم القديمة وأسلوبهم فى الحياة فكانوا يتكلمون لغتهم الوطنية ويصيغون عقودهم ذات الصفة القانونية باللغة الديموطيقية التى كانت آخر صورة للكتابة المصرية

القديمة * . وكان للقرارات والأوامر التى تصدر عن الملك ، الأسبقية دائماً على نظيراتها من التشريعات والأوامر التى تصدرها المدن اليونانية ، كما لها الأسبقية على تلك التى تصدر عن الجاليات الأجنبية (Politeumata) ، وكذلك على القانون الأهلى الذى استمر مرعياً ويخضع المصريون لأحكامه فى كل مايتصل بالأغراض المدنية فى حياتهم [١٤] ، وكان القضاء وتوزيع العدالة بين المتوطنين من اليونانيين النازحين إلى ريف البلاد وأقاليمها ، يجرى بوساطة محاكم متنقلة تعرف بالخريماتيستاى ** (Chrematistae) ، على حين كان المصريون يتقاضون أمام محاكم شعبية هى اللاوكريتاى (Laocritae) (من « لاؤوس » (Laos) ، كلمة يونانية لها مدلول يقابل فى المعنى كلمة أهالى عندنا والمقطع الأخير ، كريتاى ، معناه قضاة) ؛ أما فيما يختص بالقضايا المدنية التى

---

* كانت الديموطيقية خطاً تدون به لغة الشعب المصرى فى العصر البطلمى وما قبله ، وهى اختصار للكتابة الهيراطيقية التى كانت بدورها مختصرة عن الهيروغليفية . وكلمة ديموطيقية تسمية يونانية ، نسبة إلى ديموس بمعنى شعب ، أطلقها هيرودوت فى منتصف القرن الخامس على كتابة المصريين فى عهده وأصبحت تعرف بها فى العصور اليونانية التالية . وهى من حيث الأسلوب والقواعد ، مختلفة اختلافاً كبيراً عن أسلوب العصور السابقة للغة المصرية وذلك بسبب عناصر التفكير الأجنبى والقواعد اللغوية والمصطلحات التى جلبتها العناصر الأجنبية وبخاصة العناصر اليونانية التى اختلط بها الشعب المصرى ، وعلى ذلك جاء أسلوب الديموطيقية مختلفاً عن أسلوب الهيراطيقية أو الهيروغليفية .

والديموطيقية لغة كل الطبقات من خاصة وعامة وكان يُكتب بها أدب مصرى وقانون وتدون بها الرسائل والوثائق والنقوش والنصوص وصكوك البيع والشراء وعقود الاتفاق والزواج ومختلف أنواع المعاملات ، كما ظهرت بها كتابات سحرية وفلكية . وما أكثر الوثائق الديموطيقية على مختلف أنواعها ، بما هو مكدس بشتى المتاحف ، تخفى بين طياتها أفكار الشعب المصرى وألوان حياته وأحوال أفراده وأسلوب معيشتهم فى العصر اليونانى الرومانى . (المترجم)

** محاكم الخريماتيستاى قضاتها من اليونانيين الذين تعرض عليهم القضايا التى يكون فيها أطراف النزاع من اليونانيين وتكون المستندات فى هذه القضايا باليونانية ، ارجع إلى مقال فى مجلة الجمعية الأثرية بالإسكندرية للمترجم عن المحاكم فى مصر البطلمية ، وقد صدر بالإنجليزية فى العدد رقم ٣٦ ، سنة ١٩٤٥ وفيه عرض للمحاكم الشعبية (اللاوكريتاى) واختصاصاتها . (المترجم)

تنشأ بين اليونانيين والمصريين فكان أمر الفصل فيها يرجع فى القرن الثالث قبل الميلاد إلى محكمة مختلطة (Koinodikion) ثم انقرضت هذه المحكمة بعد ذلك . ولدينا أمر ملكى تاريخه عام ١١٨ ق . م[١٥] ونصه أنه فى القضايا التى يكون فيها النزاع بين اليونانيين والمصريين قائماً على عقود يونانية فإن الفصل فيها يكون مرده إلى محاكم الخريماتيستاى ، ولكن فى القضايا التى يكون محور النزاع فيها مستنداً إلى عقود ديمقوطيقية فإن الأمر فى شأنها يعرض على اللاوكريتاى ؛ وفيما عدا تلك المحاكم فإن السلطة القضائية كان يباشرها مختلف الموظفين الإداريين وخاصة فيما يتصل ببعض القضايا التى يكون لها اتصال وثيق بنظام الاحتكارات الملكية وما كان متعلقاً ببعض الطبقات مثل طبقة الفلاحين الملكيين * .

وكان يؤلف بين جميع هذه العناصر المتباينة رباط من التبعية المشتركة والخضوع لإرادة الملك ؛ فهو وحده المصدر الذى يُستمد منه القضاء والعدالة ويُرجع إليه فى جميع مظاهر السلطة الإدارية . وكانت مصر ضيعة الملك ، وكبار الموظفين والإداريين فيها بمثابة أتباعه ورجال « دُوّاره » بل إننا نجد إشارة وتأييداً لهذه الفكرة فى لقب وزير المالية ذى الحول والطول وهو ديؤيكيتيس (dioikétés) ومعناه الحرفى مُدير ؛ ومصر منذ أقدم العصور الخالدة كانت منقسمة إلى أقسام إدارية هى النومات أو المديريات (المحافظات) ويقوم بالإشراف على كل منها

* كان الفلاحون الملكيون يمثلون طبقة متميزة إلى حد ما عن سائر المزارعين ، وهذه الطبقة كانت تعرف بالاسم الآتى (georgoi basilikoi) ؛ ويفلحون الأرض الملكية (gê basilikê) ومن أجل ذلك خصتهم الحكومة ببعض الرعاية وأسبغت عليهم من الحماية ما مكنهم من أداء مهمتهم فى فلاحة الأرض فى يسر وحفظ لهم كرامتهم فى فصل العمل فكان لهم من الضمانات والحصانة ما يحول دون أن يساق أفراد هذه الطبقة إلى المحاكم أو يستدعون لأداء الشهادة وما إلى ذلك مما قد يعطل الأعمال الزراعية التى يضطلعون بها وبخاصة فى أوقات بذر البذور وجنى المحصولات. فكان محرماً على المحضرين (praktores) ومن على شاكلتهم من رجال الضبطية القضائية استدعاء رجال هذه الطبقة إلى المحاكم أو الحد من حرياتهم خشية أن يترتب على ذلك تعطيل العمليات الزراعية وفى هذا إلحاق أضرار محققة بالجيب الملكى والخزانة الملكية (to basilikon) . (المترجم)

حاكم المديرية أو النومارك وفى عهد البطالمة كانت الأعباء الملقاة على كاهل ذلك النومارك آخذة فى التناقص الشديد على مضى الزمان إلى حد أن أصبح هذا الرئيس آخر الأمر لايعدو موظفاً ماليًّا ضئيل الأهمية بينما صار القائد (strategos) وهو الذى كان يختار فى أول الأمر من اليونانيين على الدوام ، يُعين أصلاً فى كل مديرية بقصد الإشراف على القوات العسكرية المرابطة فى نطاقها ثم مالبث أن اختص بالأعباء المدنية والمالية وأصبح فى الواقع الحاكم الفعلى فى مديريته . وكان السكرتير الملكى يعاونه تحت إشرافه ويقوم مقامه فى حالة غيابه ، وكان هناك سكرتيرون مختصون بالأجزاء الصغرى فى المديرية ولكل قرية على حدة .

وأنفس عنصر فى هذه الضيعة الكبرى يتمثل فى الأرض ذات التربة التى بلغت من حيث الخصوبة حدًّا لانظير له إذا ماتم ريُّها على الوجه المطلوب وتزويدها سنويًّا بذلك الغرين الغنى ، المتخلف عن فيضان النيل . وكان الملك وحده نظرياً صاحب الأرض واحتفظ فى حيازته فعلاً بقدر كبير من أجود الأراضى وهذا هو ماكان يطلق عليه « الأرض الملكية » التى كانت تؤجر إلى فلاحين كانوا يُعرفون « بالمستأجرين الملكيين » وكانت تلك الإيجارات تنطوى على عقود حرة وقت إبرامها ولو أنه فى الأوقات التى كان يتعذر فيها الحصول على عطاءات يتقدم بها أصحابها طوعاً واختياراً كانت الحكومة تعمد أحياناً إلى وسيلة الإكراه والإجبار ، وكان المستأجرون الملكيون من أحرار الرجال وليسوا من رقيق الأرض وإن كانت حريتهم من النوع المنقوص فلم يكن يسمح لهم بمغادرة أنصبتهم من الأرض فى أثناء مباشرة العمليات الزراعية ، وقد سمعنا عن انتقال فلاحين إلى مناطق أخرى حيث كانت تجرى عملية استصلاح أرض جديدة ، ومع ذلك فقد كان فى وسع الدولة أن تلغى فى أى لحظة أى عقد من عقود الإيجار وأن تنقل تلك الأرض إلى يد مستأجر آخر يكون عطاؤه أعلى قيمة من زميله المطرود ، ومن الناحية الأخرى فإن أولئك المستأجرين الملكيين كانوا يحظون بقسط وافر من الامتيازات وينعمون بقدر من رعاية الحكومة وحمايتها لصوالحهم.

ومع ذلك فعلى الرغم من أن الملك كان نظريًّا هو المالك الأوحد فإنه لم يكن

المستحوذ عليها بمفرده ، إذ يمكن التعرف على قدر من الملكية الخاصة ، وُجد حتى فى صدر عصر البطالمة ، بل إن قدراً أعظم من ذلك عرف فى الفترات المتأخرة من ذلك العصر ، فالأرض التى لم تكن خاضعة للإشراف الملكى المباشر كانت تكنى بالأرض المتروكة (gê en aphesei) * وعلى ذلك فالضياع التى كانت دائماً فى حيازة المعابد على الرغم من أن الإشراف الفعلى عليها انتقل إلى أيدى البطالمة ، أصبحت تدار لحساب المعابد وتمثل قسماً خاصاً يعرف « بالأرض المقدسة » ، وهناك قسم آخر من الأرض كان يجرى منحه ، كما قيل آنفا ، فى شكل أنصبة عقارية (kléroi) إلى المتوطنين العسكريين الذين كانوا يعرفون بالكليروكيين (klérouchoi) ، وبهذا التنظيم حقق البطالمة غرضين كانا محط آمالهم ، فمن ناحية جعلوا من النصيب العقارى منحة متوقفة على التزام أداء الخدمة العسكرية وبذلك ضمنوا معيناً لا ينضب من الجند المدربين المرتبطين بالبلاد برهائن ، وعلى ذلك جعلوا أمر انصرافهم إلى سيد آخر وميلهم إلى تحويل خدماتهم إليه أقل احتمالا من الجند المرتزقة المجلوبين من السوق العامة ؛ ومن الناحية الأخرى كفل البطالمة للبلاد توسعاً عظيماً فى مساحة الأرض المنزرعة . وفى الحق إنهم كرسوا لهذا الغرض أراضى صالحة للزراعة تماماً ، ولعل هذا كان بحق ، الإجراء المرعى فى أول الأمر [١٦] ، ولكن هذه الأنصبة فى الكثير الغالب كانت من أراض غير جيدة أو مهملة ، بل إن هذا الإجراء كان يتكرر حدوثه فى زيادة مطردة على مضى الزمان . وكانت تلك المنح مشروطة بوجوب العمل على استصلاحها وزراعتها ولو أن هذا الاستصلاح لم يكن يتم فى جميع الأحوال على أيدى أولئك الجند الإقطاعيين أنفسهم ولعل هذا لم يكن النظام الغالب . وكان منح تلك الأنصبة لمدى الحياة فقط ولكن بما أنه كان فى صالح الملك أن يحتفظ بالمورد الذى يستمد منه المتوطنين العسكريين فقد أصبح أمراً طبيعياً أن يؤول إلى أرشد أبناء الجندى

---

* هذه عبارة يونانية معناها الأرض المتخلى عنها والمتروكة نهائياً ، وقد أصبحت اصطلاحاً يطلق على قسم كبير شامل لعدة أنواع فى نظام الأرض على عهد البطالمة . (المترجم)

الإقطاعي نصيب أبيه من الأرض (kléros) عقب وفاته ، بل إننا نجد أنصبة من الأرض كان يجرى إقطاعها ولهاصفة الدوام[١٧] . وعلى ذلك أخذت تلك الأنصبة شيئاً فشيئاً طابع الإرث وبدا عليها بالتالى مظهر الملكية ، ولكن من الناحية النظرية لم يكن من المحتمل على الإطلاق أن تخرج هذه الأنصبة فى العصر البطلمى عن كونها أرض حيازة يتمتع أصحابها بحق الارتفاق عليها ، ولو أن عمليات التهريب والتحايل جعلت من اليسير أن تصبح هذه الأراضى قابلة للبيع والشراء .

وإن منحاً من الضياع الواسعة المعروفة بأراضى الهبات (dôreai) لكبار الموظفين والمقربين إلى البلاط الملكى لتتضمن كذلك التزام إصلاح الأراضى البور ، وكانت أمثال تلك المنح تعطى كذلك لمدى الحياة فقط ، فإذا ماتوفى واضع اليد عليها كانت الأرض تعود إلى الملك ، وكان الجند الإقطاعيون فى أغلب الأحوال ينزلون على السكان المحليين ويشاركونهم فى محال إقامتهم ، وعرفت مساكنهم على هذا النحو بمآوى الجند أو الثكنات (stathmoi) ؛ وفى آخر المطاف نعلم بوجود مايسمى « بأرض الملكية الخاصة » (gê idioktêtos) ، وهذه فى الأحوال العادية على أى حال كانت تتألف من حدائق الخضراوات والبساتين وأحراش النخيل والكروم ، وهى جميعها كانت تتطلب قسطاً معلوماً من الاستصلاح وتحتاج فى زراعتها إلى تربة من الأرض لاتصلح لزراعة القمح ، ومن المحتمل أن هذه الأرض كانت تستغل بمقتضى صكوك للإيجار إما وراثية أو طويلة الأمد . ولو أنه فى هذا النوع من الأرض كذلك كانت تجرى معاملات وبيوع ذات صفة قانونية، فليس من المحتمل أن الملكية الحقيقية قامت لهاقائمة على الإطلاق فى الأزمنة البطلمية . وفى الحق إن الأمر ، على النحو الذى صوره الدكتور تارن [١٨] ، هو أن الأرض الخاصة فى العصر البطلمى « لم تكن ملكية بل هى حق ارتفاق وانتفاع » .

وبهذه الوسيلة أضاف البطالمة الأولون مساحات شاسعة إلى رقعة الأراضى المنزرعة فى مصر ، وأدلتنا فى هذا الشأن ترجع بصفة خاصة إلى الفيوم أوالإقليم الأرسينويتى على عهد كل من بطلميوس الثانى والثالث ، وأغلبها مستمد من

بردى پيترى (Petrie Papyri) الذى يشتمل على أوراق كليون (Cleon) مدير الأعمال والمنشآت ، والمشرف على مشرعات الاستصلاح الكبرى التى قام بها بطلميوس فيلادلفوس ، وتلك الأدلة مستقاة كذلك من الأرشيف الخاص بزينون (Zenon) بن أجريوفون (Agreophon) وهو الذى كان مندوب وزير المالية ، أپولونيوس (Apollonius) حوالى هذا العصر نفسه للإشراف على هبته (dorea) التى تبلغ مساحتها عشرة آلاف آرورات فى فيلادلفيا[١٩] ، (محلها الآن روبايات أوخرابة الجرزا) . وقد استغلت كل الوسائل والموارد التى كانت فى طاقة علم الهندسة عند اليونان فطبقت فى أعمال الرى واستصلاح الأرض فأصبح بفضل الزراعة على تلك الأسس العلمية ، من المستطاع فى بعض الأحوال الحصول على عدد من المحصولات يصل إلى ثلاثة فى سنة واحدة . وعلى سبيل الاستطراد نسوق ملاحظة وردت فى مذكرة رفعها بعض الفلاحين قالوا فيها : « إنه توجد جملة أخطاء جسيمة متعلقة بعشرة الآلاف آرورات وذلك بسبب عدم وجود خبير زراعى ، فابعث إلى بعض منا واستمع منهم إلى مالدينا من أقوال »[٢٠]، وقد تحمل هذه العبارة فى طياتها دليلاً على وجود الشحناء والبغضاء بين الفلاح ذى الخبرة وزميله الذى يعتمد على الأساليب العلمية ، (وهو شعور ليس بالجديد) ، وقد شهدت الزراعة المصرية ضروباً منوعة من التجديد على أوسع نطاق وذلك باستحداث محصولات جديدة أو التوسع فى زراعة أخرى قديمة ، وفى أجزاء من مصر كانت زراعة الكروم تمارس حتى فى عهد الفراعنة ولكن المشروب القومى فى مصر كان يتألف من الجعة المقطرة من الشعير ، أما اليونانيون فكانوا من شاربى النبيذ ، ولم يدخر البطالمة وسعاً فى تشجيع زراعة الكروم فى الأراضى الأقل خصوبة ، وقد وجد منتجو الكروم فى المكوس العالية المفروضة على النبيذ المستورد من الخارج حماية لهم ، كما حظيت زراعة الزيتون كذلك بالعون والتشجيع . والزيتون، مثله مثل الكروم، كانت تجرى زراعته فى مصر الفرعونية ولكن هذا كان بالأخص لاستهلاكه فى الأكل ، وعقب استيطان اليونانيين واستقرارهم فى البلاد حدث توسع عظيم

فى مساحات أحراش الزيتون ، الذى كان له عندهم أعظم جانب من الأهمية ؛ وزيت الزيتون هذا (وهو مع ذلك ذو قيمة منخفضة من حيث نوعه ، إذا جاز لنا أن نصدق قول استرابون) كان يجرى استخراجه بكميات وافرة وتفرض لحمايته المكوس العالية على الزيت المستورد ؛ وقد تأقلمت سلالات جديدة من القمح وجلب الثوم ومختلف أنواع الكرنب الجيد ، كما زرعت أشجار الفاكهة على اختلاف أنواعها ، وغرست الورود على نطاق واسع ، ولعل ذلك اشتمل على غيرها من الأزهار للزومها لأكاليل الزهور التى كان اليونانيون يزينون بها أنفسهم فى الولائم ، وقد جلبت فصائل جديدة من الحيوانات وبخاصة من الغنم التى تنتج صوفاً يمتاز على النوع المصرى بجودته وذلك لتحسين السلالات المحلية فى مصر . ولعل استئناس الجمل فى مصر قد تحقق إذ ذاك لأول مرة بطريقة فعالة[٢١] ، وعم التوسع فى النحالة وأصبحت تربية الخنازير ذات أهمية خاصة (وذلك لصالح المستوطنين من اليونانيين والقصر الملكى لأن الخنزير يعتبر فى نظر المصريين حيواناً نجساً) ، وكانت مصر على الدوام تشكو فقراً فى الأخشاب ولذا عمل البطالمة كذلك على اتخاذ مايلزم من إجراء لمعالجة هذا النقص . وعلى ذلك كتب أبولاونيوس لعامله ووكيله زينون يقول : « اغرس من أشجار الشربين مايزيد على ثلثمائة منها إن كان هذا فى المستطاع ، وعلى أى حال ليس أقل من ذلك ، على أن يكون هذا فى جميع أرجاء البستان وحول مزرعة الكرم وأحراش الزيتون ، لأن تلك الشجرة ذات منظر خلاب وسوف تكون ذات فائدة جلى للملك »[٢٢] .

ولم يكن ذلك النشاط الملكى مقصوراً على شئون الزراعة فقد توطد نظام الاقتصاد النقدى فى جميع صوره وأشكاله فى بلد كان جل اعتماده بصفة خاصة على أساليب المقايضة حتى ذلك الحين . وسك بطلميوس الأول نقداً ثابتاً من الذهب والفضة والنحاس ، أخذ يعم تداوله ؛ ثم مالبث أن تناول هذه العملة سلسلة متعاقبة من التغييرات والتبديلات فى العصور التالية ، وليس هنا مجال

للدخول فى تفصيلاتها إذ لا يسمح الوقت بالتعرض لها ، وكانت تتفاوت النسب بين الذهب والفضة ثم بين الفضة والنحاس فى مختلف العصور ، وقد تأسست المصارف وفى الإمكان تتبع نشأة نظام مصرفى فيما لدينا من سجلات ، والوقوف على مبلغ ماوصل إليه من تطور وتقدم[٢٣]، ومع ذلك فلم يستلزم هذا أن ينقرض الاقتصاد العتيق القائم على المقايضة بصفة شاملة : فالإيجارات المستحقة على الأراضى الملكية وكذلك بعض المرتبات كان يجرى دفعها عيناً ، كما أنه لم يتيسر بحال من الأحوال التخلص من المقايضة فى الحياة التجارية ، وكانت تتجمع الحبوب فى مخازن الغلال و « الشون » التابعة للدولة (thêsauroi) والتى تستخدم كذلك بمثابة مخازن للإيداع تحت تصرف أصحاب الحسابات الخاصة ، شأنها فى ذلك شأن المصارف التى كانت تُحصل فيها الضرائب النقدية . وفى العصر الرومانى ، وإن كان ذلك غير ميسور فى عهد البطالمة ، كان دفع الحقوق والوفاء بالالتزامات سواء أكان نقداً أم عيناً من الحبوب ، يتم بانتظام بمجرد إجراء عملية تحويل من حساب لآخر فى السجلات والدفاتر الخاصة بالمصرف أو شونة الغلال حتى فى الحالات التى تتعدد فيها المصارف . وتوجد بين أوراق البردى الباقية من ذلك العصر وثائق يصح مقارنتها ومضاهاتها تماماً بالصك الحديث .

وكان نظام الاحتكارات الملكية شاملاً ، جرى تطبيقه طبقاً لأوضاع بلغت حد القسوة فى شدتها وفيها ملاءمة لشتى المطالب ومختلف الحاجات ، وتتوافق مع سياسة البطالمة المتسمة بالطابع العملى البحت والخالية من الاعتبارات النظرية . ومن بين هذه الاحتكارات عرف نظام المصارف ؛ فإلى جانب المصارف الملكية التى اضطلعت بالأعمال الخاصة ، كما باشرت أعمال الدولة سواء بسواء ، يبدو أنه كانت توجد مصارف خاصة[٢٤] ، تمنح الحكومة التزامها للأفراد . والزيت هو الاحتكار الوحيد الذى نعرف عنه الشىء الكثير : إذ وصلت إلينا معلومات وفيرة عنه ، مستقاة من أوراق البردى التى نشرها « جرنفل » (Grenfell) تحت عنوان « قوانين الإيرادات على عهد بطلميوس فيلادلفوس » ؛ ومنذ القدم كانت تنمو فى مصر نباتات يستخرج منها الزيت ، فمن سمسم ، إلى حب الملوك ، وبذر

الكتان ، والعصفر ، والعلقم أو الحنظل ؛ وعلى عهد البطالمة خضعت زراعة هذه النباتات للإشراف الدقيق ؛ فالحكومة هي التي تحدد مقدار الأرض التي تخصص لهذه الغاية في كل إقليم أو محافظة وهي التي ترقب عملية بذر البذور وجني المحصولات بعين ساهرة وهي التي تقدم البذور اللازمة للفلاحين وتقدر المحصول بمنتهى الدقة ، فربعه يذهب وفاء للضريبة المقررة والباقي يسلمه الفلاحون إلى الملتزمين نظير ثمن مقرر ، ويستخرج الزيت في معاصر خاضعة لإشراف الدولة ويعمل فيها عمال هم من أحرار الرجال وليسوا عبيداً ، ومع ذلك فلم يكن مسموحاً لهم بترك مساكنهم ومحال إقامتهم في أثناء موسم العمل . أما المعاصر الخاصة التي يرجع تاريخ إنشائها إلى ماقبل قيام هذا العهد الجديد فقد أصبح من المحرم تشغيلها إذ ذاك فيما عدا ما كان منها تابعاً للمعابد التي أبيح لها عصر ما يلزمها من الزيوت ، على أن يقتصر ذلك على مدى شهرين في العام . وفي خلال بقية العام كانت معاصر المعابد تختم ، شأنها في هذا شأن المعاصر الملكية عندما تتعطل هذه عن العمل فعلاً . وكان حق البيع يمثل التزاماً في أيدي تجار الجملة والتجزئة ، الذين كان عليهم مع ذلك أن يبيعوا الزيت للجمهور بسعر يجرى تحديده بوساطة الحكومة ، وهو سعر باهظ جداً ، كان الملك يجني من ورائه أرباحاً قدرها الدكتور تارن برقم عال « يتراوح بين ٧٠ ٪ على زيت السمسم و ٣٠٠ ٪ أو مايزيد على الحنظل »[٢٥] . وقد فرضت الحكومة ضريبة على الاستيراد ، بلغت ٥٠ ٪ على زيت الزيتون الذي يبدو أنه لم يكن ضمن مايشمله نظام الاحتكار .

والاحتكار الثاني هو المنسوجات من تيل وصوف وقنب على السواء ، وقد أطلقت الحكومة يد المعابد فسمحت لها بالاستمرار في صناعة التيل الرفيع المسمى بيسوس (byssos) وهو الذي اشتهرت به المعابد ، وكان الغرض من ذلك بوجه خاص هو الوفاء بما يلزمها منه (إذ أنه كان محرماً على الكهنة ارتداء الملابس الصوفية) ، ولكن كان مفروضاً على هذه المعابد كذلك أن تقدم قدراً معيناً من ذلك التيل الرفيع للملك بقصد تصديره . ومن بين الاحتكارات الأخرى يمكن أن نعدد الملح والنطرون والجعة وهي المشروب الوطني الشائع بين

المصريين ، ولكن تقطير الجعة ربما كان أمراً مسموحاً به للأفراد فى بيوتهم .

وقد توافر للبطالمة من هذه الاحتكارات والإيجارات المقررة على أراضى الدولة ، دخل عظيم وإيراد نقدى وعينى كبير ويتضاعف هذا الإيراد بفضل المتحصل من مختلف الضرائب ؛ فكانت تُجبى الضرائب على الأراضى المقطعة للجند المسرحين وغيرها من الأراضى « المتروكة » كما كان يحصل رسم الأيلولة على انتقال الضياع وتوريثها وتُفرض الرخص على حق مباشرة مختلف الحرف والصناعات وتقرر الضرائب على عمليات البيوع وعلى كثير من السلع المتداولة بين الناس وعلى الملكية العقارية وعلى الدخل الناجم عن تولى الوظائف الكهنوتية ؛ ويُجبى الخراج أو ضريبة الرأس من طابع ما — وإن كانت ماهيتها مع ذلك ليست مما اتفق عليه العلماء . وأخيراً كان يطبق نظام دقيق تُجبى بمقتضاه العوائد والمكوس التى كان منها ماهو مقرر على الزيت المستورد من الخارج وكان الغرض من ذلك قطعاً حماية الزيوت المحلية بينما كان القصد من البعض الآخر مقصوراً على أن تكون مصدر إيراد فحسب ، وكانت الطريقة المتبعة فى جباية الضرائب هى الالتزام وذلك فيما عدا ما كان يدفع من هذه الضرائب عيناً ؛ إذ أن المسئولين عن تحصيل هذا النوع الأخير هم الموظفون التابعون للحكومة ، فكان حق جباية مختلف الضرائب يُعرض فى المزاد كل عام ويرسو على من يتقدم بأعلى عطاء ، وكانت الحكومة تفرض على ملتزم الضرائب مراقبة شديدة فى كل مرحلة من مراحل تلك العملية ، وكان ذلك الإجراء فى صالح كل من الملك ودافعى الضرائب ولا بد أنه لم يكن من اليسير الاستفادة إلى حد كبير من هذه الصفقات ولو أنه يبدو أن وجود المزايدين كان ميسوراً فى بادئ الأمر إلى حد لا بأس به ثم أصبح فيما بعد صعب المنال على مضى الزمان .

وقد نهض البطالمة بالتجارة الخارجية وأولوها تشجيعاً عظيماً ، ومصر وإن كانت غنية من حيث الثروة الزراعية إلا أنها فقيرة فى نواح عديدة من مصادر الإنتاج ، فأصبح حتماً عليها أن تبحث عنها فى الخارج . ومن بين الواردات المصرية فى العصر البطلمى : الخشب ، والمعادن ، والنبيذ ، وزيت الزيتون ،

والسمك المحفوظ ، والفاكهة على اختلاف أنواعها ، والجبن ، والعبيد ، والخيل ؛ وكانت أثمان هذه البضائع تدفعها مصر من القمح الذى كان أعظم صادراتها قيمة لأنها كانت الشونة الرئيسية للغلال فى شرق البحر المتوسط ، ولكنها كانت تُصدر كذلك البردى حتى أصبحت الدولة الوحيدة الموردة لهذه السلعة فى كل أنحاء العالم القديم،وكانت مصر تصدر تيل ال « بيسوس » الرفيع والزجاج — وبخاصة ماكان منه متعدد الألوان حتى أصبحت الإسكندرية ذات شهرة عالمية به ، كما تُصدر الرخام وطائفة أخرى من مختلف أنواع الحجر ؛ وقد شهدت مصر نشاطاً ملحوظاً فى حركة التجارة العابرة : فمن بلاد الصومال وشرق أفريقيا ، ومن بلاد العرب وجزر الهند ، كان يرد الذهب والأحجار الكريمة واللآلىء والعاج والتوابل والأصباغ وبعض الأخشاب النادرة والقطن والحرير. وكانت هذه السلع تنقل براً من موانى البحر الأحمر مجتازة الطرق الصحراوية إلى قفط فى وادى النيل ، ولهذا الغرض وكذلك من أجل النقل الداخلى كان البطالمة فى الغالب أول من يسَّر استيطان الجمال فى مصر على النحو الذى ذكرناه آنفاً . وفى الأحوال التى لم يكن يعاد تصدير هذه البضائع مباشرة ، كانت تستخدم فى صنع منتجات أكثر إتقاناً بفضل ما أوتيه ذوو الحرف من المصريين من مهارة وذلك لسد حاجة الاستهلاك الداخلى أو لإعادة تصديرها من جديد .

وكانت الإسكندرية المرفأ الرئيسى وأعظم المدن التجارية والصناعية فى مصر ، بل وأكثر مؤسسات الإسكندر جميعها نجاحاً على الإطلاق . ومما لاريب فيه أن الإسكندر كان يسترشد فى تصرفاته وأعماله بما كان يلقاه محلياً من نصح وتوجيه ولكن عينه البصيرة النفاذة هى التى رأت فى قرية راقودة التعسة المأهولة بالصيادين موقعاً صالحاً لقيام مدينة عظيمة . وقد خطط الإسكندرية المهندس دينوقراتيس (Dinocratês) الرودى وفق أحدث مبادئ تخطيط البلدان فشغلت رقعة ضيقة من الأرض الرملية المحصورة بين بحيرة مريوط والبحر ، وأمام تلك الشقة قامت فى عرض البحر جزيرة فاروس (Pharos) التى أصبحت باتصالها بالأرض اليابسة من القارة بجسر ، تُكوّن مرفأ آمناً رحبا

على الجانب الشرقى ، ومرفأ آخر من الناحية الغربية أكبر فى مساحته ولكنه أكثر تعرضاً لأنواء البحر وأقل أمناً . وفى الجهة الغربية من المدينة اندمجت راقودة القديمة التى أصبحت حينذاك تؤلف الحى الوطنى المصرى ، وعلى مسافة بضعة أميال إلى الشرق كانت تقوم كانوبيس (Canôpus) التى صارت ملاذاً يتردد عليه جمهرة الناس بقصد الملذات والمسرات مما أكسبها سمعة خلقية تدعو إلى الريبة إلى أقصى حد ؛ ومدينة الإسكندرية مستطيلة فى شكلها ورسمها ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عريض مستقيم هو الشارع الكانوبى وتحف بجانبيه بوائك ظليلة وتقطعه شوارع أخرى فسيحة . وبالمدينة خمسة أحياء تسمى بأسماء الأحرف الأولى الخمسة من حروف الهجاء اليونانية وهى : الألف ، والباء ، والجيم ، والدال ، والإبسيلون (Epsilon) .

ومنذ البداية كان السكان أمشاجاً خليطاً ، وتتألف النواة من هيئة المواطنين الأحرار المستكملى الحقوق وهم يونانيون لحماً ودماً ، أو هم كذلك فى أغلبهم . وكانت هذه النواة منظمة على نسق المدينة الدولة فى مظهرها اليونانى الصميم ؛ فمن قبائل وديمات (أحياء) ، إلى مجلس شيوخ ومجمع عام شامل للأحرار ، إلى الموظفين المألوفين . ولم يكن للمدينة مجلس شيوخ على عهد الرومان حتى حكم سبتميوس سيفيروس(Septimius Severus) ، ولا يزال الأمر موضع خلاف فيما إذا كان أغسطس قد وجد ذلك المجلس قائماً بها ثم ألغاه أم لم يجده ،وفى اعتقادى الشخصى أنه لم يكن للإسكندرية مجلس شيوخ عند الغزو الرومانى ؛ ولما كان من المتعذر أن نتصور أن الإسكندر أسس مدينة دون أن يوفر لها مجلس شيوخ [٢٦] ، فإنه لزام علينا أن نستنبط أن ملكاً من ملوك البطالمة الأخيرين هو الذى ألغاه فى أعقاب إحدى المعارك المتعاقبة التى كانت تنشب بين الملوك والمدينة . والمقدونيون بوجه عام لم يكونوا يؤلفون فيما يبدو جزءاً من هيئة المواطنين الأحرار ، ولو أن المستعمرين الأصليين كانوا بلاريب يضمون بين شملهم مقدونيين وبعض هؤلاء على الأقل كانوا يؤلفون النخبة المختارة ويمدون فرق الحرس ورجال البلاط وبعض الوظائف الكبرى بالعناصر اللازمة . وكثيرون من

اليونانيين الوافدين من بقاع أخرى من العالم القديم قد استقر بهم المقام فى الإسكندرية ولكنهم لم يحصلوا على الحقوق المدنية الخاصة بتلك المدينة، وكان هناك عنصر كبير من السكان المصريين . وكان اليهود يمثلون عنصراً هاما بين حشد آخر من المتوطنين الأجانب . وقد اختص اليهود أنفسهم بحى الدلتا الكائن على مقربة من القصر الملكى ليكون محلاً لسكناهم ولكنهم انتشروا فيما بعدحتى أصبحوا يشغلون القسم الأكبر من حى آخر وهو حى البيتا (الباء) ؛ وفيلون (Philo) على حق فيما أنبأنا به من أنه فى عصره كانت بِيَعُ اليهود منتشرة فى كل جزء من أجزاء المدينة ولم يكونوا من المواطنين الأحرار ولكنهم كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة . فكانت لهم محاكمهم الخاصة بهم ودار سجلاتهم ومجلس يضم شيوخهم وموظف معروف برئيس الفخذ(genarch) وآخرهو شيخ القوم (ethnarch) . وعلى أرصفة الميناء وفى شوارع المدينة كان يُرى حشد كبير متباين ، مستمد من أجناس كثيرة وتتكلم لغات ولهجات عديدة . وقد قدم لنا ثيوكريتس (Theocritus) فى قصيدته المسماة « النائحات فى عيد أدونيس » (Adoniazusae) صورة رائعة لهذا الحشد إذ قال غريب عندما سمع امرأتين تتحادثان : « أيتها المرأة الكريمة ، ألا تكفين عن تلك الثرثرة التى لا تنقطع مثل زوج من الحمام . إن هؤلاء النسوة يثقلن علىّ لدرجة الإعياء بلهجتهن الدورية ذات اللكنة الثقيلة » . فأجابته براكسينوا (Praxinoa) الحادة المزاج على ذلك بقولها : « ياإلهى ! من أين ياترى أتى الزمان بذلك الإنسان ؟ وما شأنك بنا إذا عنّ لنا أن نهذى كما نشاء ؟ عليك أن تشترى عبيدك قبل أن تأمر وتنهى فيهم . اعلم أنك تجابه قوماً من أهل سيراكيوز وتصدر لهن أوامرك . . . وما أظن الدوريين إلا قادرين بحق أن يتحدثوا باللهجة الدورية ؟ » ، وياليت الأمر اقتصر على هذا بل إن الهنود كانوا يشاهدون فى الإسكندرية وخاصة بعد كشف الرياح الموسمية (ولعل هذا تحقق فى صدر العصر الرومانى)[٢٧] ، مما يسر الإبحار من أفريقيا إلى الهند بدلاً من التزام السير حذو الشاطىء ؛ ولكن من قبل ذلك فى عهد بطلميوس الثانى أنفذ أسوكا (Asoka) البوذى إمبراطور

الهند رسله إلى الملك يحملون أنباء بأن موعد الخلاص والتوبة قد حان ؛ وقد يعجب المرء لما لقيته تعاليم جوتاما (Gautama) الرحيم من صدى فى قلب بطلميوس الذى كان شغوفاً بحبه للدنيا واشتهوته ملذاتها .

وما لبثت الإسكندرية أن صارت محط إعجاب العالم وبخاصة عندما أصبحت العاصمة بدلاً من ممفيس ، وليس تاريخ ذلك معروفا على سبيل التأكيد . وعلى « فاروس » أقيم الفنار المشهور الذى أطلق اسمه على أبنية مماثلة فى لغات حديثة عديدة عن طريق الاقتباس . وفى المكان المعروف باسم « سيما » (Sema) كان يرقد جثمان الإسكندر العظيم ؛ وفى حى راقودة بالذات كان يقوم « السرابيوم » الذى لم يكن أقل عظمة وشهرة [٢٨] ، ولهذا دلالته الواضحة وفيه توكيد للفكرة القائلة بأن سيرابيس (Sarapis) ماهو إلا إله مصرى . أما دار الندوة الثقافية والرياضية وهى الجمنازيوم (Gymnasium) الفخمة والملعب (Stadium) وحلبة السباق (Hippodrome) والملهى والقصر الملكى فهى أبنية أخرى ذاع صيتها ، وكان القصر يقوم على شبه جزيرة صغيرة واقعة شرقى الميناء . وعلى مقربة منه ، كان يقوم المتحف (Museum) والمكتبة . وكان المتحف فى أصل نشأته معبداً للتاسوع الإلهى من ربات الفنون (Muses) وهو فى واقع الأمر كان يجمع بين ماهو أشبه بأكاديمية حديثة وجامعة ؛ وهنا استقر المقام بعدد من الباحثين والعلماء ورجال الأدب الذين توافرت لهم أسباب الحياة من طعام ومقام بلا مقابل وكانوا معفون من الضرائب . وقد أعد البطالمة لهم مكتبة تزخر بالكتب التى جمعوها ووضعوها فى متناولهم فأصبحت آخر الأمر تحتوى على قدرٍ من اللفائف تبلغ نحو نصف مليون ، ولكى يضاعف بطلميوس الثالث هذه المجموعة أصدر أمراً يقضى بأنه على جميع المسافرين الذين يرسون بسفنهم فى مرفأ الإسكندرية ، أن يودعوا ما قد يحتويه متاعهم من كتب ، وكلما دعت الحاجة كانت المكتبة تستولى عليها وتقدم لصاحبها نسخة رسمية معتمدة بديلا عنها . وقد قيل كذلك إنه استعار من أثينا النسخ الرسمية من مؤلفات إيسكلس (Aeschylus) وسوفوكليس (Sophocles)

ويوريبيديس (Euripides) لكي يحصل على صور مستخرجة منها تكون مطابقة للأصل ، بعد أن دفع مبلغاً كبيراً قدره خمسة عشر تالنتات [٢٩] ، (Talentum) وذلك على سبيل الضمان إلى أن تُرد، ولكن الثابت أنه فضل أن يضحي بهذا المبلغ على أن يرد تلك الأصول التى بعث إلى أثينا بنسخ منها على سبيل البدل . وفى تلك المكتبة وضعت أسس علوم منها تصنيف الكتب ووصفها ونقد النصوص والمتون وجمعت قوائم حاوية لفنون الأدب اليونانى الكلاسيكى وظهرت نصوص هومر وغيره من المؤلفين خالية من كثير من التحريف الذى كان قد علق بها فخرجت فى صور قشيبة تناقلها الناس فيما بعد ولم يطرأ عليها سوى تغيير طفيف نسبياً حتى العصور الحديثة .؛ وابتدع أسلوب الضبط والترقيم مما كان مصدر ضيق وسخط فى أحيان كثيرة لدى تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة فى الوقت الحاضر ، كما ابتدعت علامات الفصل التى لقيت هوى وترحيباً أكبر . ولم يهمل شأن العلوم والرياضيات ، ففى الإسكندرية حدث أن وفق أريستارخوس (Aristarchus) [٣٠] فى الاهتداء إلى دوران الأرض حول الشمس مستبقاً كوبرنيقوس (Copernicus) فى ذلك الكشف وكان فيها أن لازم التوفيق إراتسثينيس (Eratosthenes) فى قياس محيط الأرض (إلى درجة يوثق بها من الصحة)* وفيها أخرج إقليديس (Euclid) كتابه المسمى « العناصر » وفيها أن هيرون (Heron) اخترع أو وصف من اختراع لآخر ، الآلة البخارية والآلة التى تدار بوضع عملة صغيرة فى ثقب بها . وكان لمدرسة الطب بالإسكندرية شهرة ذائعة وبخاصة فى التشريح والجراحة ، وفى الإسكندرية تمت الترجمة اليونانية للتوراة (العهد القديم) وهى المعروفة بالسبعينية وذلك لخدمة مصالح اليهود المنتشرين فى بقاع الأرض ، وفى الإسكندرية أخرج فيلون (Philo) مذهبه فى التوحيد واللاهوت .

ومما لاريب فيه أن الحكم البطلمى جلب لمصر فى أول الأمر زيادة عظيمة

* عدل المؤلف العبارة الآتية (والوصول فى تقديره إلى رقم يختلف عن الرقم الحقيقى بنحو خمسين ميلاً) إلى النص المثبت فى المتن بين قوسين .

فى مبلغ ثروتها ورخائها فأصبحت الإدارة متسمة بالقدرة والكفاية مما جعلها قادرة على حفظ النظام والسهر على تحسين وسائل الرى مما أدى إلى زيادة شاسعة فى مساحة الأرض المنزرعة وتنوع كبير فى المحصولات وبمقدرة على الانتفاع إلى أقصى حد بالأراضى الأقل خصوبة وتشجيع للصناعة وتوسع مطرد فى التجارة الخارجية ؛ وهذه كلها كانت من خير الثمار التى نجمت عن الحكم البطلمى ؛ ولكن بقاء هذه الرفاهية والمحافظة عليها بعد انتهاء فورة النشاط الأول كان متوقفاً على عاملين لاضمان لهما : فمن ناحية كان من مستلزمات هذا دوام توافر المقدرة والكفاية فى الأداة الحكومية ومن ناحية أخرى ضرورة معاونة المحكومين طوعاً وبطريقة إيجابية فعالة ؛ ولعل هذا العامل الأخير لم يتوافر مطلقاً فيما يختص بالمصريين ؛ ومن المعقول أن نجد نفراً من المصريين قد رحبوا بالعهد الجديد فى شىء من التحمس والغيرة عليه ؛ ولاريب أن الكثيرين منهم عملوا على الكسب من وراء هذا العهد ولكن يبدو أن صدى هذا فى نفوس الفلاحين بوجه عام ، وبخاصة فى صعيد مصر ، كان واحداً إذ كان ينطوى فى أحسن الأحوال على الاستسلام السلبى وفى أسوئها على الامتعاض الشديد والإعراض البغيض ؛ وقد يتسرب الشك فيما إذا كان الفلاح المصرى العادى كان يدرك تماماً مبلغ ماأصابه من تحسن ملحوظ فى حظه ونصيبه ؛ إنه كان يكد ويشقى طوال الأجيال الماضية وكان يدفع استحقاقاته إلى الملك ورجال الدين وإلى سيد الأرض وصاحبها ، وبقى على حاله هذا فى عهد الأسرة المقدونية ، وطالما حافظت الحكومة الجديدة على بقاء السلم الداخلى وطاردت شبح المجاعة ، فإن الفلاح كان يجنى بعض النفع من ورائها ولكنه لم يشعر أبداً بأنه كان شريكاً فى الدولة ، فسادته الجدد كانوا أجانب وأغراباً يقيمون بمنأى منه ، ويدور محور سياستهم فى أفق خارجى حول عالم البحر المتوسط بقصد تحقيق غايات بعيدة كل البعد عن إدراكه ولم يكن يعنيه فى شىء مجدُ الإسكندرية ، وهى تلك المدينة الأجنبية التى كانت تُعدّ مع التجاوز الشديد جزءاً من مصر (بل إن الوصف الرسمى الذى كان يطلق عليها هو

أنها « ملحقة بمصر وواقعة على تخومها * » وإن كان ذلك على الأقل فى العصور المتأخرة) ؛ والبطالمة الذين أوتوا حظاً أكبر من المقدرة والكفاية اتخذوا بالطبع من الإجراءات مايكفل التقدم والنجاح لضيعتهم ولكن عنايتهم بشئون هذه الضيعة لم تزد فى أفضل الأحوال عن العمل على مراعاة مصلحتهم الذاتية بطريقة مستنيرة ** ، وكانت الغاية التى رمى إليها البطالمة على النحو الذى صورته الآنسة بريو (Préaux) *** وهى « تكديس أقصى مايمكن جمعه من الثروة والإقلال من المصروفات لأدنى حد وإحداث أقل ما يمكن من التغييرات فى النظام القائم والتعرض لأقل مايمكن من الأخطار » ، وتلك ولاريب سياسة حكيمة وإن كانت لا تنطوى على شىء من البطولة ، تجلت فى مدير ضيعة ولكن الأمة لايمكن أبداً أن تساس أمورها على أنها مجرد ضيعة فما هى إلا مجتمع من البشر ، لكل فرد منهم حقوق ومطالب وحاجيات ويتطلب الأمر تحقيق غايات أبعد من ذلك الهدف الاقتصادى ، وإيجاد مقصد ومرمى خلقى إذا كان المقصود لمّ شمل هذا الجمع فى وحدة تدب فيها الحياة ؛ ونعود فنقتبس من الآنسة بريو : « لايمكن أبداً أن ينجم عن الفكرة الاقتصادية هدف وغاية خلقية »[٣١] .

وعلى ذلك كلما أصاب الوهن والانحلال طباع أفراد البيت المالك تدهورت قوة المملكة وولى رخاؤها ؛ كان البطالمة الثلاثة الأول جميعهم حكاماً قادرين ؛

---

* عرفت الإسكندرية من حيث موقعها بالنسبة لمصر ببعدها وأطلق عليها الإصلاح اللاتينى الآتى "Alexandria ad Aegyptum" كناية عن ذلك . (المترجم)

** انظر المقال الرائع الذى دبجه المؤرخ الأمريكى وسترمان ونشر فى أعمال المؤتمر الخامس لعلم أوراق البردى . وفيه يشيد بالجهود التى بذلها ملوك البطالمة لتحسين أحوال رعاياهم وينفى عنهم التقصير فيما ألقى عليهم من مهام وتبعات قِبل الشعب ويقيس الخدمات التى أدوها على ما قام به نظراؤهم فى الممالك الأخرى فى ذلك العصر . (المترجم)

*** كلير بريو أستاذة التاريخ القديم بجامعة بروكسل صاحبة نظرية الاقتصاد الموجّه فى كتابها المنشور فى بروكسل سنة ١٩٣٩ وعنوانه . L'Economie royale des Lagides وفى مقالاتها العديدة عن الاقتصاد الموجّه (Économie dirigée) فى أعداد متعاقبة من مجلة : Chronique d'Egypte (المترجم)

فبطلميوس الثانى محب للفخامة منغمس فى الملذات ، أرق فى تكوينه وجسمانه من أبيه وهو بالنسبة لأبيه أقرب مايكون شبهاً من سليمان بالنسبة إلى داود ؛ ومع ذلك فالنصوص البردية تثبت أنه أوتى نشاطاً ومقدرة إدارية ملحوظة على السواء ، ولعل بعض هذا كان راجعاً إلى أخته أرسينوى (الثانية) التى استطاعت بعد أن نجحت فى إقصاء زوجته وكانت تسمى كذلك أرسينوى وإبعادها إلى المنفى ، فأصبحت أخته زوجة شرعية له . والزواج بين الأخ والأخت الشقيقين فى نظر المشاعر اليونانية مصدر إيذاء ومحط ازدراء يكاد يبلغ فى مقداره مثلما هو فى نظرنا ، فكان الأمر يتطلب من شعراء البلاط ورجال الدعاية بذل أقصى جهودهم وفنهم فى سبيل جعله مستساغاً [٣٢] . ومع ذلك فأرسينوى الثانية (Arsinoê II) التى كانت مثلا صادقاً لنساء هذا البيت المالك ، أوتيت حظاً عظيماً من قوة العزيمة والمقدرة وسعة الحيلة فلا محل لأن يعتورها تأنيب الضمير فى شيء ، وقد أثبتت أنها شريكة نافعة جداً فى توطيد العرش وكانت على أتم استعداد للتغاضى والتجاوز عن عدم وفاء زوجها لها فى أحوال عديدة ، وقد أسبغ عليها لقب فيلادلفوس أى « المحبة لأخيها » وبعد وفاتها وتأليهها عندما اشترك معها بطلميوس فى مراتب الشرف والتأليه أصبح لقب عبادتهما هو « الإلهان الأخوان » (Theoi Adelphoi) وكان بطلميوس الأول قد أله بلقب سوتير أى « المخلص » وابن بطلميوس الثانى وخليفته منح لقب « يورجيتيس » (Euergetes) أى « المحسن » ومن ذلك الوقت فصاعداً كان ملوك هذه الأسرة ويسمون جميعاً باسم بطلميوس ، يحملون لقب العبادة التى كانوا يعبدون بها حتى فى أثناء حياتهم .

ومنذ تولية بطلميوس الرابع فيلوباتور (Philopator) أى الإله المحب لأبيه ، دب التدهور المنذر بوقوع كارثة ، وقد جاء فيلوباتور فى وصف مخطوطة كهنوتية على أنه هو « حورس الشاب والابن القوى الذى جعله والده يظهر للناس كملك ، وهو سيد تيجان الأفعى ، ذو الحول والطول العظيم والقلب المنطوى على الوفاء والإخلاص للآلهة وهو الذى وسعت حمايته الناس وعلت

كلمته فوق خصومه الألداء وهو الذى يُسبغ الخير والبركة على مصر ويُكسب المعابد بهاءً وبهجة وهو الذى يوطد ويدعم القوانين التى أعلنها توت (Thôth) أعظم العظماء على الملأ ، وهو سيد أعياد الثلاثين عاماً ، بل هو مثل بتاح العظيم ، ملك أشبه بالشمس ، ملك الوجهين القبلى والبحرى ، وهو سلالة الإلهين الخيّرين وهو الذى رضى عنه بتاح ووهبته الشمس النصر وهو صورة حية لآمون ، ذلك هو الملك بطلميوس ، الحى أبد الآبدين ، ومحبوب إيزيس » (٣٣) .
ولكنه كان فى الحق غرا فاجراً متهتكاً مستضعفاً ذليلاً وألعوبة فى يدى وزيره سوسيبيوس الذى لا ضمير عنده ولا فضيلة له ، وأداة تحركها خليلته الشريرة أجاثوكليا (Agathoclea) وأخوها أجاثوكليس (Agathocles) وهو أشر منها ثم أمهما البشعة أو ينانثى (Oenanthe) وهم عصابة من المجرمين الأدنياء ، لم يسبق لهم مثيل فى حكم إمبراطورية حتى قيام عهد النازى (٣٤) . كان من شأن انغماسه فى الملذات الحقيرة أن أدى إلى إهمال شئون كل من الجيش والأسطول ، فلما همّ أنطيوخوس (Antiochus) العظيم ملك سوريا المعروف بطموحه ومقدرته ، بالهجوم على الممتلكات السورية التابعة لمصر لم تكن هناك فى واقع الأمر قوة فى البلاد تستطيع أن تصده وتدرأ خطره عن البلاد ، وبفضل الدبلوماسية الماهرة التى أظهرها سوسيبيوس (فمهما كانت أخلاقه وخصاله فإنه لاريب كان بارعاً قديراً) أمكن وقف أنطيوخوس عند حده إلى أن تمت الاستعدادات لملاقاته فاستخدم المرتزقة من الجند واستُدعى المحاربون القدامى المستقرون فى أرجاء البلاد وتم تدريبهم على أحسن وجه وأعيد تنظيم الجيش تنظيما شاملا وسُلّح المصريون الذين كانوا حتى ذلك الوقت لا يقومون سوى بأعمال الميليشيا وقوات الصف الثانى وتدربوا وفق النموذج اليونانى والمقدونى على شكل فيلق . ونجم عن ذلك أنه عندما كشف سوسيبيوس القناع ورفض قبول مطالب أنطيوخوس الذى استأنف هجومه ، كسبت القوات المصرية نصراً مبيناً فى موقعة رفح فى اليوم الثانى والعشرين من يونيو سنة ٢١٧ ق . م .

ومع ذلك فقد أثبتت الأيام أن رفح كسبٌ مشوب بالشوائب والشكوك

فالمصريون الذين عوملوا لأول مرة على قدم المساواة مع اليونانيين من الناحية العسكرية ، تملكهم الغرور والاعتزاز بالنفس من جديد، ومن ذلك الحين أخذت الثورات تنشب من وقت لآخر وتقع غالباً فى الإقليم الطيبى ، ولكن ليس هذا على سبيل الحصر بحال ما . فهذا الإقليم كان دائماً الموطن الذى نبتت فيه القومية المصرية ولعله كان فى المستطاع مناهضة هذه الحركات القومية بطريقة فعالة وأكثر جدوى لو أن الأمر اقتصر على هذه الصعوبة وحدها ولكن الأسرة البطلمية شُغلت فى أغلب القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بالمشاحنات الداخلية ، كما أن مصر كانت مهددة طوال هذه الحقبة بالخطر الذى كان يدهمها من الخارج ؛ وكانت قد ظهرت فى الأفق دولة امتد ظلها وسلطانها على جميع عالم البحر المتوسط وسببت فى كل الممالك الهيلينستية شعوراً بعدم الاطمئنان وعدم الاستقرار، وفى أول الأمر عملت تلك القوة لصالح مصر ؛ وإلى عهد مبكر يرجع إلى عام ٢٧٣ قبل الميلاد عقد بطلميوس الثانى معاهدة تجارية مع تلك الجمهورية الرومانية ، وبعد النهاية المظفرة للحرب البونية الثانية عندما أصبحت روما متغلغلة فى أخص شئون الحوض الشرقى من البحر المتوسط وَجدت فى مصر أداة صالحة لتوازن بها قوة سوريا ولم تكن العلاقة بين الدولتين بحالة ما خالية من تبادل المصالح بين الطرفين ولكنها أثبتت — فى مناسبات — أنها كانت لخير مصر وصالحها .

وصحب هذا الخطر المحيق من الخارج حالة عدم الاستقرار الدائم من الداخل ، سواء أكان هذا فى شكل شقاق أسرى بين أفراد البيت المالك أم فى مظهر ثورات قومية ، بل إن هذه المظاهر نفسها ساهمت بقسط كبير فى ذلك الاضمحلال الاقتصادى الذى بدأت تظهر بوادره منذ عهد الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور (Philopator) ، وكان فيلادلفوس قد استحدث عملة نحاسية للتعامل الدائم وذلك إلى جانب العملة السائدة من الذهب والفضة ، وبذلك أقام نظاماً معدنياً ثلاثياً فكان التعامل فى العملة النحاسية يجرى بين المصريين بوجه خاص أما التعامل بالمعادن الثمينة فاقتصر

على اليونانيين فى الكثير الغالب . وفى عهد فيلوباتور استحدث معيار نحاسى جديد اتخذ أساساً فى ساك العملة تبلغ نسبته من الفضة والنحاس ١ إلى ٦٠ ، وفى عهد خلفه ومن تلاه من بعده وجدنا عصوراً من التضخم أدى إلى انكماش فى الدخل وصحبه لجوء الموظفين إلى وسائل الضغط والإكراه على السكان ، جاوبه الناس بإعلان السخط واللجوء إلى المقاومة السلبية ثم العصيان والثورة فعلاً ؛ وقد يحاول الملوك وضع حد لتلك المساوئ ولكن سلطانهم على الموظفين المحليين كان محدوداً (٣٥) . ومن الجلى الواضح أنه فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد تفشت الكوارث الاقتصادية وسوء الحكم وعمت القلاقل وصاحب ذلك تأخر وضعف فى التجارة الخارجية. وأدى ازدياد ضعف سلطان الحكومة المركزية إلى تفشى الحركات الانفصالية المحلية وعمل ترضيات وإعفاءات لكسب سلطان الكهنة ثم التسليم بين حين وآخر أمام الضغط من جانب أفراد أقوياء أو انتشار روح المقاومة الجماعية بين عامة الفلاحين بل إن هذا فى الحق كان مؤداه سواد حالة أعادت إلى الذكرى عهود الانحلال والتفكك مثلما كان فى عصر الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية وفيها استهلال لنظيرتها فى صدر العصر البيزنطى (٣٦) .

وفى سنة ٢٠٢ انتهز فيليب ملك مقدونيا وأنطيوخوس ملك سوريا فرصة تولى ملك شاب هو بطلميوس الخامس ، الإله المتجلى (Epiphanês) عرش مصر وكونا تحالفاً كان القصد منه سلب مصر أملاكها الخارجية فاكتسح أنطيوخوس ممتلكاتها السورية واكتسح فيليب ممتلكاتها فى البحر الإيجى دون أى اعتراض من جانب روما ولكن ليس بالأمر المستحيل أن يكون للنفوذ الرومانى أثره فى الحيلولة بين أنطيوخوس ومحاولته غزو مصر نفسها . وفى سنة ١٧٠ قبل الميلاد عندما لحقت الهزيمة الشنيعة بوزراء الملك الصغير بطلميوس السادس فيلوميتور ، الإله المحب لأمه ، من جراء محاولتهم استرداد الأملاك السورية المضاعة ، انتهز أنطيوخوس إبيفانيس (Epiphanês) فرصة انشغال روما واشتباكها فى نزاع نشب بينها وبين مقدونيا فغزا مصر ، وكما نعلم من

البينة التى جاءت فى وثيقة بردية[٣٧] استطاع بالفعل أن يعلن نفسه ملكاً متوجاً على مصر ولكن سروره بهذا اللقب كان قصير الأمد إذ انتهى الأمر فى سنة ١٦٨ بتدخل روما بعد قضائها على مقدونيا نهائياً وإرسالها سفيرها جايوس بوبيليوس لايناس (Gaius Popillius Laenas) ليطلب إليه الانسحاب ، ولما حاول أنطيوخوس هذا التلكؤ والتسويف فى الأمر خط السفير ورجال حاشيته دائرة فى الرمال حول الملك وأعلن أن الأمر يقتضى أن يبدى الملك الجواب قبل مبارحته تلك الدائرة ؛ وإن أساليب روما الدبلوماسية كانت أحياناً تعوزها آداب اللياقة ، إذا لم نقل إنها كانت تنطوى على شىء من الفظاعة والوحشية ؛ ولكن ما كان لأحد أن يتحدى سلطانها وقوتها الغشوم ، فأذعن أنطيوخوس وكظم الغيظ وأنفه صاغر ؛ ومنذ ذلك الوقت ومابعده — وبخاصة بعد أن دخلت سوريا فى حظيرة الأملاك الرومانية ، شأنها فى ذلك شأن مقدونيا — احتفظت مصر باستقلالها لسبب واحد هو أن روما لم تر أن الوقت قد أصبح مواتيا لتنفيذ برنامجها كيما تبتلع مصر .

وما وافى القرن الأخير من الحكم البطلمى حتى تبين لشعب مصر أن الضعف المتزايد من جانب الحكومة والحاجة التى كان يشعر بها المتنافسون الطامعون فى العرش إلى تأييد الرأى العام — كل ذلك جعل المصريين يصلون إلى مركز هو أقرب مايكون إلى قدم المساواة مع اليونانيين مما كانوا يحظون به من تلك المساواة فى عهد البطالمة الأولين ، وإنا لنسمع بوجود مصريين قد وصلوا إلى مراكز لا بأس بها من حيث الأهمية والرفعة فى السلكين المدنى والعسكرى ، وكان المحاربون القدامى من المصريين يستولون على أنصبة من الأرض شأنهم فى ذلك شأن اليونانيين ولو أنها كانت فى العادة أقل فى مساحتها من أنصبة الأخيرين ، كما أن المعبد تلو المعبد كان يحصل من الحكومة على ميزة تخول له حق التمتع بالشفاعة وحماية اللاجئين المستجيرين ، ولكن هذه الرفعة فى المنزلة لم ينجم عنها تحسين فى العلاقات بين المصريين واليونانيين بل إنه فى الحق مع تزايد شعور المصريين بأهميتهم وتناقص احترامهم نحو المتوطنين بين

ظهرانيهم قد تشتد العداوة والبغضاء بين الطرفين ، ولعله من الأغراض الدالة على ذلك أن بطلميوس المتمدونى الناسك الذى تمثل أوراقه جزءاً كبيراً من بردى السرابيوم فى السنين الواقعة فى منتصف القرن الثانى ، كان دائب الشكوى مرات عديدة من التهجم والعدوان عليه « وعلة ذلك أننى يونانى» على حد قوله . وإننا لنعلم أن النبوءات كانت ترى مُبشرة بطرد الأجنبى الغاصب وتحطيم الإسكندرية ؛ واليونانيون من جانبهم مع أنهم أصبحوا فى هذه المرحلة مشيجاً مختلطين من حيث الدم ومتمصرين فى مختلف النواحى ، فإنهم تعلقوا بتقاليدهم الهيلينية ، ولعل هذا كان أدعى لهذا السبب نفسه ، فتمسكوا بألعاب حلبات المصارعة وندواتهم الثقافية والرياضية ونظام هيئات الشبيبة . وإذا كانت خطاباتهم الباقية من عهدهم لاتفصح فى الواقع عن وجود أية عناية من جانبهم بالأدب أو الفن ، فإننا نعرف من النصوص التى كشف عنهاالنقاب فى مصر الوسطى أن روائع الأدب اليونانى الكلاسيكى وبدائعه وفى مقدمتها هومر ، بل وكذلك مؤلفو التمثيليات والخطباء والفلاسفة وشعراء الأناشيد والأغانى — بقيت موضع دراسة الناس ؛ ومع ذلك فلا يحق لنا أن نبالغ فى أمر تلك البغضاء والكراهية النائمة على أساس التعصب الجنسى أو العنصرى، فلدينا أدلة كثيرة على وجود علاقات الود ، بل وقيام أواصر الروابط الوثيقة بين اليونانى والمصرى .

وكانت مصر على مدى فترات طويلة من القرنين الثانى والأول تتردى فى هاوية من الحرب الأهلية وتئن من غصتها وويلاتها ، ويبدو أن الإقليم الطيبى كان من وقت لآخر مستقلا بالفعل عن مقر الحكومة فى الإسكندرية . وفى سنة ٨٥ق.م استمرت طيبة فى الثورة والعصيان مما أدى بها إلى نهاية أليمة بتخريبها والقضاء عليها فعلاً ، وكانت وفقاً للأقاصيص شبه الخرافية « عاصمة البلاد العتيدة فى عصور مجد مصر وعظمتها، تلك هى حال« طيبة ذات الأبواب المائة» كما سماها هوميروس — لأن مابقى منها منذ ذلك الوقت لايعدو بضع قرى متناثرة وسط الآثار المخلفة عن سالف عصرها الزاهر .

وقد أصبحت مصر مرة أخرى فى السنوات الأخيرة من عهد استقلالها عاملا

له وزنه في معترك السياسة فى حوض البحر المتوسط ؛ وقد أخرجت الأسرة البطلمية في شخص آخر مَن مثّلها ، شخصية طبقّت صيتها آفاق العالم . وإن الملاحظة التي كثيراً مايتردد اقتباسها نقلا عن سيدة من العصر الفكتوري ، وقد أبدتها عقب مشاهدتها لتمثيلية « أنطونيو وكليوباترة » : « ما أبعد الشبه بين هذا وبين الحياة الخاصة التي تعيشها ملكتنا العزيزة ! » — لتصور فى لباقة وجهة النظر السائدة لدى جمهرة الناس عن كليوباترة ؛ ولكننا إذا اقتصرنا على اعتبار أنها كانت العاهر ، التي لامثيل لها على نحو ما صوره شكسبير طبقاً للتقاليد المرعية ، بل وأكثر من هذا إذا نظرنا إليها على أنها تلك الشابة اللعوب ؟ التي صورها « شو » (Shaw) فى روايته « قيصر وكليوباترة » ، فإننا لا نكون قد ظلمناها وأسأنا إليها إساءة بالغة فحسب ، بل إننا نكون متجنين على الحقائق التاريخية لأننا فى تعرفنا لتلك الحقائق نكون قد نظرنا إليها بمنظار فيه انحراف خطير عن جادة الصواب: وإن الصورة التي صورها بها خير الثقات من الأحياء ، عن العصر الهيلينستى هى أنها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر على الإطلاق ، وإنها لمنزلة رفيعة بلغتها تلك الملكة ولكنها لم تبلغها دون أن يكون لذلك مايسوغه ؛ ذلك أن الأمد قدطال على النظر إلى كليوباترة بذلك المنظار المشوّه المستمد من الدعاية الرومانية الرسمية ؛ ومهما كانت معايبها ونقائصها الخلقية فإنها كانت امرأة أوتيت ذكاء فذاً وأثبتت أنها خصم لروما ، له وزنه وقيمته * ؛ وذلك أنه طبقاً لما ذكره الدكتور تارن فأحسن القول [٣٨] : « حدث أن روما ، التي لم يسبق أن اهتزت وأدركها الفزع من أية أمة أو شعب ، استولى عليها الخوف فى تاريخها من شخصين اثنين ، أحدهما هانيبال والآخر كان امرأة » ويبدو فى أغلب الظن أن الدكتور « تارن » كان مصيباً [٣٩] فى نسبته إلى كليوباترة نبوءة سبيلينية (Sibylline) ، كان من مقتضاها التنبؤ بالقضاء على روما على يدى ملكة (despoina) غير مسماة ، يكون عهدها فاتحة عصر ذهبى :

---

* أنظر كتاب « كليوباترة . . . » تأليف زكى على ، وقد نشرته وزارة الثقافة فى لجنة البيان العربى منذ حين .

« سوف يخيم الهدوء والسلم على جميع ربوع الأرض الأسيوية وسوف تعم السعادة إذ ذاك أرجاء أوربا ويسود المناخ المثمر المونع على طوال السنين المديدة راسخاً متمكناً فلايعرف زوبعة ولا برداً ، وجالباً معه كل شيء مابين طيور وأنعام تدب فوق سطح الأرض . . . . لأن نظاماً شاملاً وعدلاً مخيما سوف يهبط على الناس عامة من السموات المرصعة بالنجوم ومعهما الوئام المصحوب بالاعتدال الذي يفوق كنوز الغنى فى قيمته بالنسبة للبشر ، وتسود المحبة والصدق والأمانة والإخلاص بين الغرباء ويتوارى بعيداً عن أعين الناس فى تلك الأيام شبح الفقر والعوز والضيق واستباحة القوانين وانتهاك حرمتها ووصمة العار والغضب والحماقة وسفك الدماء والخصام البغيض والمنازعات والمشاحنات المريرة والسرقات الليلية وجميع الشرور والآثام » .

وفيما يبدو أن تلك العاهر العنيدة على نحو ماصورته التقاليد الشائعة بين الناس ليست سوى المخلّص الذى تم على يديه إقامة هذا العهد الذهبى ؛ ومَنْ يدرى ما كان يدور بخلد كليوباترة من أفكار وخواطر ؟ إنها قد تكون مُحبة لأنطونيو وقد لاتكون كذلك كما كان هو على سبيل التأكيد محباً لها ، ومما لاريب فيه أن شغلها الشاغل كان المحافظة على استقلال مصر وتوسيع رقعتها ما استطاعت إلى ذاك سبيلا ثم ضمان عرش البلاد لأبنائها واستخدام هيام أنطونيو وافتتانه بها لتحقيق هذه الغاية ؛ ولكنها كانت فى نظر الكثيرين من الشرقيين رمزاً لروح المقاومة ضد روما وضمان الخلاص من نيرها . ولعل ذلك الالتواء الظاهر فى السياسة الرومانية كان راجعاً فى بعض الأحيان إلى عدم التصميم واختلاف التيارات التى كانت تتجاذب الأحزاب فى سياستها أكثر منه إلى الازدواج والمراءاة عن عمد وقصد ، بينما كان موقف الشرق ووجهة النظر السائدة فيه أقل تسامحاً ورضى ، فحكومة الولايات فى ظل الجمهورية التى كانت إذ ذاك آخذة فى التدهور ، اتسمت بسمات الظلم والاستبداد والاستغلال. وعلى ذلك وجدت تلك الكراهية والبغضاء والآمال الجياشة فى الصدور طوال حقب من السنين تقدر بالعشرات ، موئلا وملاذاً تركن إليه فى شخص كليوباترة

ولكنها مُنيت بالإخفاق مثلما أصاب هانيبال . وبعد « أكتيوم » تبين لها أن أنطونيوس بعد أن تخلى عنه أصدقاؤه وأعوانه وتردّى فى الهاوية وغمرته حمأة من اليأس، قد أصبح لا يُرجى نفعه بالنسبة لها ؛ ولو أنها هى لم تفقد قطرة واحدة من شجاعتها وجرأتها فإن مواردها المادية كانت إذ ذاك غير وافية ولم يعد أمامها من سبيل سوى أحد أمرين إما أن تموت وإما أن تساق مجتازة شوارع روما فى موكب النصر ، فلما ووجهت بالاختيار بين أحد الأمرين لم يكن فى وسعها أن تتردد ؛ ولما وجد الجندى الرومانى كليوباترة وقد أسلمت الروح ومن حولها نساؤها سأل « خارميون » ، وهى تحتضر ، أيليق هذا ؟ فكان جواب « خارميون » على نحو ما نقله شكسبير فى صدق :

« خيراً فعلتْ وهذا ما يليق بأميرة يجرى فى عروقها دم ملكى مدى أجيال طوال » . وإن اختيار كليوباترة للحية التى كان عليها أن تخلصها من مصير الأسر المحتوم لأمر جدير بالاعتبار [٤٠] ، إنها كانت أفعى من الأفاعى المصرية (cobra) ، وهى الحية المقدسة فى مصر السفلى . وبوصفها فرعونا وسيدة القطرين ، لبست كليوباترة التاج المزدوج ، تاج العقاب رمز مصر العليا وتاج الحية رمز مصر السفلى ، والحية هى كاهنة إلّه الشمس وليس فى لدغتها الخلود فحسب بل الألوهية كذلك ، فاختارت كليوباترة الطريق السوى المؤدى إلى الموت ولحقت بحضرة الآلهة ولم يبق أمام أكتافيان إلا أن يضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى .

الفصل الثالث

العصر الرومانى

« قد وضعت مصر تحت سلطان الشعب الرومانى »* ـــ ذلك هو قول أغسطس فى السجل المشهور المتضمن تاريخ حياته ، والمعروف « بالأعمال المجيدة » (Res Gestae) وقد تناول بعض الكتاب المحدثين هذه العبارة بالتفنيد فأدلوا فى نقاشهم بأن مصر لم تكن على الإطلاق ، وبأية صورة من الصور ، ولاية رومانية بالمعنى الصحيح ، بل كانت ملكاً خاصاً للإمبراطور . وفى الحق ليس من سبيل إلى الدفاع عن هذا الرأى ؛ فمصر كانت فى الحقيقة ولاية ولكنها ولاية من طابع خاص . ففى المظهر والشكل كانت الحكومة فى الإمبراطورية الرومانية ، طبقاً للتسوية التى أبرمت سنة ٢٧ ق. م. ، ثنائية أو ديار كية (إذا جاز لنا استعمال ذلك الاصطلاح الشائع فى الوقت الحاضر) : فلم يكن أغسطس بالإمبراطور المطلق السلطة « الأتوقراطى » ، بل كان مجرد المواطن الأول (princeps civitatis) فى جمهورية حرة . أما سلطان الحكم فى الولايات فكان مقسماً بينه وبين مجلس الشيوخ . فالولايات التى كانت من نصيب المجلس الأخير كان يتولى الأمر فيها ، طبقاً للنظام المرعى القديم ، حكام من القناصل السابقين أو البراترة السابقين تحت إشراف مجلس الشيوخ . أما بقية الولايات فكان الأمر فيها موكولا إلى مندوبين من قبل قيصر يختارهم من بين أفراد طبقة أعضاء السناتو.

---

* "Aegyptum imperio populi Romani adieci" فقرة ٢٧ من "Res Gestae Divi Augusti"

ويقابله باليونانية Α'ιγυπτον δημου Ρωμαιῶν ἡγεμονιαι προσεθηκα

وهو النص الذى جاء فى الوثيقة المعروفة بالأثر الأنقرى نسبة إلى أنقرة بآسيا الصغرى وكان منقوشاً باللغتين اللاتينية واليونانية على حوائط أحد المعابد فيها ، أسوة بما كان متبعاً فى مقبرة أغسطس (ماوسوليوم) بروما وتخليداً للأعمال المجيدة التى قام بها الإمبراطور الأول أغسطس . وجاءت طبقاً لما كتبه نصاً بأسلوبه المختصر الدقيق ولما عرضه فى هذه الوثيقة من المآثر والأفضال التى أسبغها على الشعب الرومانى والمصروفات التى تكبدها والفتوح التى قام بها براً وبحراً طوال ٤٤ سنة من حكمه من ٣٠ ق . م إلى ١٤ م.

كان ذلك طابع النظام الجديد وصورته . أما معدنه وجوهره فكان مخالفاً لذلك بعض الشيء ، وليس من الدقة فى شيء أن ننساق وراء القول الذى يتردد كثيراً ويتضمن أن الولايات التى كانت فى حاجة إلى حاميات عسكرية كانت من نصيب أغسطس ، وتلك التى لم تتطلب ذلك ، كانت تتبع مجلس الشيوخ ،وذلك لأننا نسمع بوجود حكام من طبقة السناتو متولين القيادة على الجيوش .ولكن إذا أطلقنا الكلام بوجه عام فإن هذا القول يصدق فى جملته ، وفضلا عن ذلك فإن أغسطس كان متمتعاً بسلطان أعظم (maius imperium) يتحد به من سلطان غيره فى جميع أنحاء الإمبراطورية ويُخوّل له حق التدخل من حين لآخر حتى فى شئون الولايات التابعة لمجلس الشيوخ ؛ فالسلطة الحربية فى الواقع ونفس الأمر كانت متركزة فى يديه . وكانت بمثابة السيف المصلت الذى أكسبه مركزه وكانت فى النهاية هى السيف الذى أتاح له المحافظة على هذا المركز وساعده على ذلك رضا المحكومين وقبولهم للأوضاع القائمة . وكان فى الإمكان ، بلاريب ، إقامة الحكم الديكتاتورى ضد إرادة الغالبية العظمى من المواطنين الأحرار ، ولكن مالم يتيسر تحويل معارضتهم إلى الرضا والقبول ، فإن المصير المحتوم لتلك الحكومة هو القضاء عليها بالفناء إذ لاأمل لها فى البقاء . ومهما كانت مظاهر الاستياء التى كان يكنها أشراف الرومان ونبلاؤهم وهم الذين حرموا مما كانت تهيئه لهم بالأمس الجمهورية المحتضرة من فرص للثراء والعظمة والتوسع ، فلم يعد شيء من ذلك متاحاً ميسراً لهم إذ ذاك ؛ ومما لاريب فيه أن جميع أنحاء الإمبراطورية التى أضنتها وأنهكتها الحرب الأهلية طوال عشرات السنين قد قابلت التسوية التى أبرمها أغسطس ، بالترحاب والتهليل ؛ بل تحمس الكثيرون لها وباركوها ؛ ومع ذلك فإذا كان قيصر يروم الاحتفاظ بهذا الشعور الطيب فإنه كان لزاماً عليه أن يوفى بشرطين أثنين : وهما المحافظة على السلم الداخلى والنظام العام وضمان مورد الغذاء اللازم لإيطاليا والعاصمة . وكانت أفريقيا ومصر الشونتين الرئيسيين للغلال فى الإمبراطورية . أما أفريقيا فكانت ولاية تابعة للسناتو ؛ هدأت أحوالها منذ أمد

طويل ولم تصبح فى حاجة إلى قوة حربية عظيمة ، وأما مصر فنظراً لقرب عهدها بالفتح الرومانى ولشهرتها بالشغب والاضطرابات فكانت فى حاجة إلى حامية قوية ، فأبقى أغسطس فيها مالا يقل عن ثلاث فرق (أورط) ، مضافاً إلى ذلك ، القدر المقرر لتلك الفرق (الأورط) من القوات المساعدة — وهى قوة كبيرة فيما لاداعى له حسبما تراءى لخليفته تيبريوس عندما قرر سحب إحدى هذه الفرق (الأورط) ؛ ومصر كما قيل من قبل ، بلد حصين ، الدفاع عنه سهل للغاية ؛ فالقائد الطموح ، إذا ما وطد مركزه فيها ، استطاع أن يمنع مورد الغلال عن روما وأن يقطع فى الوقت نفسه أحد الطرق التجارية الرئيسية بين الإمبراطورية والشرق ؛ فقرّ قرار أغسطس أنه من الخطورة بمكان أن تتاح مثل هذه الفرص لأحد أعضاء السناتو ، وعلى ذلك حكم البلاد ، لابوساطة مندوب عنه من أعضاء السناتو ، بل عن طريق حاكم من طبقة الفرسان ، وهكذا نجد فى مصر وحدها دون غيرها من البلاد فى أنحاء الإمبراطورية فارساً واحداً متولياً إمرة جيش مؤلف من فرق (أورط) رومانية ، وفضلا عن ذلك فقد وضع تقليداً مرعياً كان أحد أسرار الدولة وأركان الحكم فيها (arcana imperii) . وقد ائتمن تيبريوس عليه ، ويقضى هذا بأنه لايجوز السماح لأحد أعضاء الشيوخ أو أحد الفرسان النابهين (eques illustris) بارتياد البلاد المصرية ودخولها دون إذن صريح من الإمبراطور .

ومع ذلك فإن كان أغسطس حريصاً على أن يتقمص فى روما شخصية المواطن الأول مجرداً عن كل شىء آخر ، فإنه كان فى مصر خليفة البطالمة . وكان فى نظر المصريين فرعوناً و « سيد القطرين » ويصور على الآثار مصحوباً بالألقاب والصفات الإلهية المعتادة ، وكان يطبق على الوالى ، أو نائب الملك ، أمر التحريم الذى كان يمنع ملك مصر أن يركب النيل فى أثناء فصل الفيضان ، واستمرت أرض الحكومة تُعرف بالأرض الملكية ، واحتفظ كل قسم إدارى بسكرتيره الملكى فكانت مصر ولاية حقاً ، ولكنها ولاية ذات طابع خاص فريد فى بابه فى الإمبراطورية .

ولو أنه يبدو أن البلاد وقفت إلى جانب كليوباترة تشدّ أزرها وتنصرها بقوة فإن سلطة الملكية أصيبت بالوهن فعلاً خلال أغلب القرن الأخير من الحكم البطلمى . فكان الإقليم الطيبى (Thebaid) وقتاً ما مستقلا فى واقع الأمر ، وكان الواجب الأول على روما يحتم رعاية الأمن والسهر على النظام ثم إقامة حكومة قوية ؛ وكما سلف القول ، خصص أغسطس لمصر ، قوة حربية تفى بأكثر من المراد ، واتخذت من الإسكندرية مركزاً وقاعدة لها ، لكن تتبعها فصائل وفرق فى مختلف المواقع فى أعالى وادى النيل ، وقد خُولت للوالى (prefect) سلطة عليا ، فهو الذى يستأثر بسلطات عدة ، فكان فى الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش ورئيس السلك الإدارى وله الهيمنة العليا فى شئون المال ، يوزع العدالة وحده فى مصر (فيما عدا بعض الاختصاصات القضائية التى كانت تمنح فى أحوال خاصة لبعض كبار الموظفين)[1] . وفى الحق كان القضاء وتوزيع العدالة يجرى طبقاً لنظام مركزى إلى أقصى حد . فقد استعيض عن المحاكم القديمة المتنقلة بمجلس (Conventus) أو محكمة عليا تعقد دورياً على فترات ، وللحاكم العام رياسة هذه المحكمة التى كان مقرها بيلوزيوم (Pelusium) (الفرما) بالنسبة للأقسام الإدارية الواقعة فى شرقى الدلتا ، ومقرها فى الإسكندرية للأقسام الواقعة فى غربى الدلتا ، وتعقد فى ممفيس لباقى أجزاء مصر ؛ على أن ماقد ينشأ عن هذا من مضايقات بالنسبة للمتقاضين يمكن تحاشيه إلى حد ما إما بالإجراء المعتاد من انتداب موظفين محليين أوغيرهم وإما بقيام الحاكم العام بجولات تفتيشية جعلت من اليسير عقد تلك المحكمة بين حين وآخر فى أماكن فى أعالى وادى النيل لصالح سكان مصر العليا والوسطى ، ولم يكن اختصاص هذه المحكمة مقصوراً على نظر القضايا وما شابه ذلك من إجراءات ، بل اشتمل الأمر كذلك على مطالبة الموظفين فى الأقسام الإدارية بتقديم تقارير شاملة وإجراء فحص الحسابات ومناقشتها .

وكان الموظف الملقب « يوريديكوس » (Juridicus) من بين كبار

الموظفين الرئيسيين ويختار دائماً من بين الفرسان الرومان ، وليست اختصاصاته واضحة تمام الوضوح ولكنها اشتملت فى أغلب الظن على بعض الأعباء التى يباشرها وزير العدل فى العصر الحديث ، ثم يأتى موظف قضائى آخر هو أرخيديكاستيس (Archidicastes) وبمقتضى ماكان له من سلطة على إدارة السجلات العامة ، ربما صحت مقارنته برئيس السجلات فى إنجلترا ، ثم يليه موظف ثالث هو الإديوس لوجوس (Idios Logos) أو الموكل بالإشراف على الحساب الخاص والمسئول عن جميع موارد الدخل غير العادية أو المنوعة ومنها الغرامات والمصادرات والاستحواذ على ماليس له صاحب من الملكيات .

والموظف التالى فى الأهمية هو « كاهن الإسكندرية الأعظم ومصر جمعاء » وعلى الرغم من أنه لم يكن كاهناً فى شخصه ، بل كان موظفاً مدنياً من الرومان فإنه كان صاحب الإشراف والسيطرة العليا على جميع المعابد ، فهو صاحب السيطرة فى كل مايتعلق بتفاصيل طقوس العبادة ونظام المعابد ، وبوساطته قبضت روما بيد قوية على زمام الكهنوت ، ورجال الدين كانوا دائماً بوق القومية المصرية ولسان حالها . وكان يطلب إلى الكهنة أن يقدموا كل عام إلى حاكم القسم الإدارى إحصاء بعدد الموظفين والأملاك مع كشوف الحساب الخاصة بالمعبد ،وكان يجرى التفتيش على هذه المعابد فى فترات ، كما كان يحدد عدد الكهنة المخصصين لكل معبد . وكان جميع من زاد على هذا الرقم يخضعون لضريبة الخراج المقررة على كل رأس والتى كان رجال الدين معفون منها فى العصر البطلمى. ومن الناحية الأخرى كانت « الكنيسة » ، إن صح لنا فى هذا الصدد أن نستعمل هذا الاصطلاح ، تحظى ببعض الضمانات التى أتاحت لها التمتع بحقوقها وامتيازاتها فى أضيق نطاق ، وسوف تنقضى فترة طويلة بعد الغزو قبل أن نسمع عن وجود معارضة فعالة للحكم الرومانى يبديها الكهنة .

ولكى تضمن الحكومة المركزية فى العهد البطلمى الأخير ، الهيمنة على الإقليم الطيبى عمدت إلى تعيين موظف مقيم به ، ملقب بالإبستراتيجوس

(epistratêgos) وخولت له سلطات واسعة شاملة لكلتا الناحيتين المدنية والحربية . ولم يفت أغسطس إدراك مغزى هذه الإشارة فقسم مصر إلى ثلاثة أقسام كبرى وعين على رأس كل واحد منها إبستراتيجوس (epistratêgos) . وتلك الأقسام الثلاثة هى الإقليم الطيبى (Thebaid) ومصر الوسطى (وكان يطلق عليه بصفة رسمية إقليم السبع نومات والنوم الأرسينويتى) ثم الدلتا . وهؤلاء الحكام الإبستراتيجيون الذين كانوا دائماً من أحرار الرومان ، مجردون من السلطة الحربية . ويبدو أن ما كان لهم من اختصاص فى الشئون المالية قليل ، وإنما اتسمت أعمالهم بالطابع الإدارى البحت وشمل ذلك تعيين الموظفين المحليين .

ومن المحتمل أن الإسكندرية فقدت ، قبيل نهاية العصر البطلمى ، مجلس الشيوخ الذى كان لها فى أغلب الظن عند تأسيسها ، وإن كان لبعض العلماء رأى يخالف ذلك ؛ وعلى التحقيق رفض أغسطس طلب المدينة أن تمنح مجلس شيوخ أو يعاد مجلسها السابق . وإذا كان قد رفض هذه المنحة للإسكندرية فليس من المعقول أن يبتدع شيئاً من هذا النوع لتطبيقه فى عواصم الأقسام الإدارية التى كانت فى الغالب بلداناً فسيحة الرقعة ، ومع ذلك فقد بقيت من وجهة النظر الدستورية الدقيقة ، لاتعدو القرى التى زاد نموها عن المعتاد . ومع ذلك فسياسة أغسطس تضمنت إتاحة بعض فرص التقدم لحواضر الأقسام هذه . وكانت سياسته قائمة على نظام تقسيم الناس إلى طبقات متفاوتة شيئاً ما ، وهو النظام الذى طالما أغرم به الرومان . وكان الاعتقاد السائد فى وقت ما أن السياسة العنصرية المنسوبة للبطالمة والتى كانت قد خفت حدتها فى أواخر عهد تلك الأسرة ، قد أعادها الرومان سيرتها الأولى بشكل أدق من ذى قبل ؛ وفى رأينا أن هذه الفكرة فى حاجة إلى تعديل وتحوير بالنسبة لمصر البطلمية ، ويبدو أن الضرورة تقضى كذلك بتصحيح هذا الرأى وإعادة النظر فيه فيما يختص بالعصر الرومانى ؛ والرأى القديم كان ينطوى على أن الحكومة الرومانية جعلت فارقاً شديداً بين اليونانيين ومن كان على

شا كلتهم من سكان عواصم الأقسام الإدارية الذين كانوا أمشاجاً من الناحية الجنسية ولكنهم مصطبغون بصبغة هيلينية ، وبين المصريين الذين اعتبروا فى الاصطلاح الرومانى أذلة خاضعين (dediticii) ومنزلتهم فى الدرك الأسفل وليس لهم رعوية مدنية محددة ، وكعنوان على تلك المرتبة الدنيا ، فُرض عليهم دفع ضريبة الخراج يؤدونها عن كل رأس ، وقد ناقش الدكتور بيكرمان (Bickermann) هذه النظرية وأخذ يدلى فى تفنيدها بحجج بدت مقنعة ومقبولة عندى ، وذلك على الرغم من أنها لم تصادف قبولا لدى الآخرين [٢] . وفى رأيه أن جميع السكان فى مصر كانوا فى نظر الرومان « مصريين » ، فيما عدا الرومان الأحرار وفريقاً آخر غيرهم من المتمتعين بالرعوية والساكنين فى المدن اليونانية الثلاث ذات الاستقلال الذاتى ، ويضاف إلى هؤلاء فى أغلب الظن ، وإن كان هذا غير مؤكد ، جماعة عرفوا باسم الكاتويكوى (katoikoi) وهم سلالة المستوطنين العسكريين فى الفيوم . وإن مالدينا من أدلة وبيّنة خاصة بفريضة الخراج على الرأس ليؤيد رأى « بيكرمان » هذا . ويقيناً ، لقد كان فى عهد البطالمة ضريبة من هذا النوع ولو أن بعض الغموض يشوب ماهيتها وكنهها ونطاق جبايتها . ويبدو أن تلك الضريبة الرومانية ، التى جاءت معلوماتنا عنها أوفى كثيراً وأدق ، كانت صورة مقتبسة من نظيرة لها أقدم منها . فكانت ضريبة ذات قيمة موحدة تجرى جبايتها نقداً من جميع من فرضت عليهم دون اعتبار لما لديهم من موارد الدخل [٣] . ولعل الكاتويكوى (katoikoi) الساكنين بالفيوم كانوا معفون منها كما كان الرومان معفون منها فى الواقع ، وكذلك الأحرار فى المدن اليونانية ولو أن هذا لم يشمل يهود الإسكندرية ، ثم أعفى منها كذلك عدد معلوم من الكهنة فى كل معبد ؛ وكان على كل فرد فيما عدا هذه الطوائف أن يؤدى هذه الضريبة . ومع ذلك فقد وُجد بعض التمييز والتفرقة فى المعاملة : فكان مقدراً على سكان الريف أن يدفعوا قيمة هذه الضريبة كاملة . أما سكان حواضر الأقسام الإدارية فكانوا يدفعون قيمة مخفضة ، ولعلها كانت تبلغ فى جميع تلك الحواضر نصف الرسم المقرر

وهذا هو بالتأكيد الرسم المرعى فى الفيوم ، ومع ذلك فسكان الحواضر هؤلاء « المتروبوليتيون » ليسوا كل السكان فى حاضرة أى قسم وإنما كانوا يؤلفون طبقة ممتازة ، عرّفهم أغسطس وحددهم ، فى أغلب الظن ، على أساس مبلغ الثراء والمنزلة الاجتماعية لكل منهم ، وفى العصور التالية كانوا يدعون أهليّتهم للتمتع بهذا الامتياز ويطالبون به بحكم انتسابهم إلى أصحاب هذا الحق الأولين . والقصد من ذلك واضح جلىّ : إنه كان توكيد ما للثقافة الهيلينية من سمو ورفعة ، ولإيجاد تفرقة وتمييز بين طبقة مصطفاة ومختارة من أهل الحضر مصطبغة بصبغة هيلينية وبين جمهرة الفلاحين ؛ بل إنه فى داخل نطاق هؤلاء « المتروبوليتيين» أنفسهم وما كان لهم من هيئة ومع أنهم جميعاً كانوا يدفعون ضريبة الخراج المخفضة ذاتها ، فإن التمييز والتفرقة جرت بينهم فكانت هناك فئة مصطفاة داخل أخرى مختارة وعرفت هذه « بطبقة أعضاء النوادى الثقافية الرياضية » (hoi apo gymnasiou) فهؤلاء الأخيرون هم الأثرياء من السكان الذين تلقوا تعليمهم فى النادى الثقافى الرياضى (الجمناسيوم)وتدرجوابالانتقال من دور الشبيبة (ephebate) المؤهل لعضوية تلك النوادى ، وهم وحدهم الحاصلون على المؤهلات المسوغة لتولى الوظائف العامة فى حواضر بلادهم .

وتلك الوظائف العامة هى من مبتكرات الرومان وأساليبهم فى التجديد : فالنادى الثقافى الرياضى المعروف بالجمناسيوم كان طابعاً مميزاً للحياة اليونانية ، مثله مثل النادى وملعب الكريكت بالنسبة للحياة الإنجليزية ، وحيثما استقر اليونانيون وانتظموا فى جماعات لها كيانها وتقاليدها ، ظهر ناد ثقافى رياضى أو جمناسيوم، وكان مركزاً للتعليم العالى بنوعيه الرياضى والثقافى على السواء وله صلة وثيقة بنظام الشبيبة (ephebate) الذى كان فى نظر أى شاب يونانى مؤهلا ضرورياً للانتظام فى هيئة المواطنين الأحرار أو فى الجالية الحرة (politeuma) وهى نظام اجتماعى سياسى كان فى نظر كثيرين ممن استوطنوا مصر من العناصر اليونانية بمثابة « المدولة » أو المدينة الدولة فيمكنه أن يستعيض بتلك الجالية الحرة عن المدينة الدولة . وعلى عهد البطالمة وجدت نواد ثقافية

رياضية أو جمناسيات ، بل وانتشرت حتى وصلت إلى القرى حيثما توافر العدد الكافى من اليونانيين المستوطنين فيها لتأليف تلك الهيئة التى تضم شملهم، ولكن هذه كانت معاهد خاصة ، فلما جاء أغسطس الذى يبدو أنه ألغى نوادى القرى الثقافية الرياضية ، وأضفى على تلك النوادى القائمة فى حواضر الأقسام الإدارية صفة رسمية معترفاً بها ، كما نحا كذلك نفس النحو مع الجيمناسيارك (gymnasiarch) وهو رئيس النادى الثقافى الرياضى وعين إلى جانبه فى نطاق الحواضر موظفين آخرين ، منحهم ألقاباً وخصص لهم أعمالا اقتبسها من النظم المرعية فى المدن اليونانية ذات الاستقلال الذاتى ، ومن هؤلاء الإكسيجيتس (exêgêtês) وله اختصاصات إدارية متنوعة ، وبخاصة ما كان منها متعلقا بالمسائل المتصلة بمنزلة الأفراد ومرتبتهم ، ثم يأتى الكوزميتيس (cosmêtês) وكان مسئولا عن كل مايتصل بنظم الشبيبة ، والكاهن الأعظم وله الإشراف على الشئون الدينية ، والمسجل (hypomnematographos) (رئيس ديوان الشكاوى) والمشرف على السوق (agoranomos) وله هيمنة خاصة على توثيق العقود ، واليوثينيارك (eutheniarch) وهو المشرف على التموين ويقوم اختصاصه على توفير المواد الغذائية . وفى أول الأمر كان هؤلاء الموظفون فرادى ، كل له دائرة اختصاصه ومسئول عن عمله . ولكن من المؤكد أنه بمضى الزمان أصبحوا قبيل انتهاء القرن الثانى بعد الميلاد يؤلفون فى مجموعهم ندوة (koinon) أو اتحاداً، وعلى ذلك هيأوا النواة لمجالس الشيوخ التى أسسها سيبتميوس سيفيروس (Septimius Severus) . وفى حواضر الأقسام وُجد كذلك مايشبه الحفل العام الذى كان يضم شمل الأحرار فيها [٤] . وعلى ذلك فهذه البلدان وإن لم تكن مدناً بحسب الاصطلاح اليونانى ، ولا بلديات بالمعنى الرومانى ، قد اتخذت لنفسها مظهراً أشبه بالحكومات البلدية على عهد الرومان .

وفى عصر البطالمة وُجد نوع من أنواع تسجيل وتدوين أسماء الناس ثم استحدث الرومان نظام الإحصاء بطريقة دورية ، يتم كل أربعة عشر عاماً ويُعرف « بالتسجيل والإحصاء بيتاً بيتاً » . وكان يشمل إحصاء العقار المنزلى

والأفراد على السواء ، وفى بعض الأقسام كان على صاحب كل مسكن ، وفى البعض الآخر على شاغله أن يدلى بعد حلف اليمين ، إلى لجنة معينة لهذا الغرض ببيان عن مسكنه وجميع شاغليه وأعمارهم وحالتهم . وعلى أساس هذه البيانات كانت تملأ قوائم الإحصاء التى كانت تحتوى على سجل تام شامل لجميع السكان . وكانت بيانات وكشوف الوفيات والمواليد تساعد على بقاء هذه القوائم مطابقة للواقع إلى حد ما بين فترات الإحصاء[٥] . أما التسجيل فى طبقة ممتازة فكان مصحوباً بالضمانات التى تحتم إجراء فحص المستندات والأوراق الخاصة بالطالب ، طبقاً لطلب يقدم عادة بوساطة والديه عند (epicrisis) بلوغ الابن سن الرابعة عشرة (وهى السن التى تبدأ عندها استحقاق فريضة الرأس ووجوب أدائها) ، وعليه أن يقيم الدليل على أنه ينتمي إلى سلالة أجداد متمتعين بهذا الامتياز .

وفضلا عن الإدارات الرئيسية الخاصة بالسجلات فى الإسكندرية ، أنشأ الرومان كذلك فى كل حاضرة من حواضر الأقسام الإدارية دواوين رسمية لحفظ السجلات ، وقد انقسمت كل واحدة من هذه المؤسسات فيما بعد فى تواريخ متباينة فى مختلف الأقسام إلى إدارتين إحداهما هى دار السجلات العامة وتعرف باسم (bibliothêkê demosiôn logôn) وفيها تحفظ جميع الأوراق الرسمية مثل المكاتبات و كشوف الضرائب وسجلات الأراضى وقوائم الإحصاء وما إلى ذلك ، أما الإدارة الثانية وتسمى (bibliothêkê enktêseon) فكانت سجلاً خاصاً بالعقار الثابت بما فى ذلك العبيد . وكانت البيـــانات والإقرارات والوثائق الأخرى التى ترد إلى هذه الإدارات يلصق بعضها ببعض حتى تتألف منها لفائف مشتركة ؛ على أنه كان يجرى إعداد لفائف أخرى تحتوى على مقتبسات وسجلات من الوثائق المتفرقة وكانت ترتب هذه اللفائف فى الغالب بحسب الأحرف الهجائية طبقاً للحروف الأولى من أسماء الأشخاص الذين يخصهم الأمر ، ولتسهيل مهمة الرجوع إليها بعد ذلك كانت ترقم الأعمدة[٦] .

أما فيما عدا ذلك فالصورة العامة بقيت على وضعها وحالها كما كانت فى

عهد البطالمة ، فأبقى أغسطس على تقسيم مصر القديم إلى مديريات يتولى الإشراف على كل واحدة منها حاكم هو القائد (strategos) — وقد جُرِّد فى هذا العهد من جميع اختصاصاته الحربية ، ويعاونه كاتب ملكى . وبقيت أفضل الأرض تؤلف فى أغلب الأحوال « الدومين » الملكى وتحمل اسم الأرض الملكية ، أما الأرض المقدسة فكانت لاتزال ترد الإشارة إليها فى سجلات الأراضى ولو أنه عند الغزو صودر قسم كبير منها ووضعت المعابد تحت إشراف أدق مما كانت تعرفه من قبل على عهد البطالمة الأخيرين ، وكان يقابل أراضى الهبات فى العصور البطلمية بعض الضياع الشاسعة أو « الوسيات » (ousiae) مما آلت ملكيته فى صدر الإمبراطورية إلى أفراد البيت الإمبراطورى والأعيان من أشراف الرومان والسكندريين ، وعن طريق المصادرات أو بوسائل أخرى أدمجت الواحدة بعد الأخرى فى نصيب الإمبراطور وتَرِكته باعتبارها ضيعة خاصة . ومن ذلك الوقت فصاعداً أصبحت تؤلف نوعاً خاصاً من الأرض تُعرف بأرض الوسية ويشرف عليها مندوب من قِبَل الإمبراطور ، وكانت أرض الجنود المعروفة بالكليروكية ، لاتزال تؤلف نوعاً قائماً بذاته ، ولو أن الإقطاع العسكرى قد انتهى أوانه فأصبحت تلك الأرض إذ ذاك آخر الأمر ملكية تامة لأصحابها . وفى الحق كان الرومان يشجعون بقوة على التوسع فى الملكية العقارية الخاصة لأنهم أرادوا أن يقوم نظامهم المالى والإدارى على أسس وطيدة قوامها سكان يمتلكون ثروات ملموسة يكون فيها ضمان للوفاء بالتزاماتهم أو يمكن الرجوع عليها فى حالات التعويض عما يطرأ من عجز وتقصير عن أداء المستحق . وعقب الغزو صودر مقدار كبير من الأرض وبيع بعضه عن طريق المزاد بينما عرضت الأرض المهجورة أو الضعيفة القيمة بشروط سخية مغرية تُشجع المتزايدين على القيام بعبء زراعتها .

ذلك ، إذاً ، هو طراز الصورة العامة التى كانت عليها مصر الرومانية : ينم عن حكومة مركزية قوية روعى فى إدارتها التناسق والترتيب التام ، تؤيدها قوة حربية فيها الضمان الكافى لحفظ النظام والأمن الداخلى وبث الطمأنينة ضد

غارات السلب والنهب التى كان يشنها بدو الصحراء ، كما كانت عبارة عن بيروقراطية بديعة توسعت فى إدخال نظام السجلات والرقابة ، ويسود البلاد نظام اجتماعى انقسم الناس بمقتضاه إلى مراتب وطبقات ، قوامها والعمدة فيها على طوائف وشيع ومميزات . والمعاملة التى كانت من نصيب سكان البلدان والحضر المطبوعين بطابع هيلينى ، هى الاستئثار بالحظوة على حساب العناصر الريفية والأهالى من عامة الشعب المصرى .

وعندما تحل إدارة قوية قديرة توافرت فيها الأمانة إلى حد معقول محل إدارة ضعيفة تفشى فيها الفساد ، فإنه لا بد أن ينجم عن ذلك ازدياد عاجل مطرد فى الرخاء والرفاهية . ومهما كانت الحال فى مصر على عهد كليوباترة ، فإن حكومة البلاد طوال أغلب العصر الأخير من الحكم البطلمى ، اتسمت بلاريب بطابع الضعف والخور وعدم الكفاية ، فالحروب الأهلية الدائمة كانت قد مزقت البلاد وجلبت الخراب على مساحات شاسعة منها وعطلت دولاب الأعمال التجارية والصناعية ومُنى نظام الرى بالإهمال . فلما توطد الحكم الرومانى عقب إقماع ثورة عاتية كانت قد نشبت فى الإقليم الطيبى إثر ظهور جباة الضرائب من الرومان فيه ، ساد الأمن الداخلى وعم الاطمئنان من شر الغزو الأجنبى واتسعت التجارة الخارجية إلى حد كبير بفضل ضم مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية وبخاصة بسبب إلغاء القرصنة واستئصال شأفتها من البحر المتوسط ، فكان هذا من بين الثمار الأساسية التى جلبها العهد الإمبراطورى ؛ فى حين أن الكشف الذى يبدو أنه تم عند بدء العهد الرومانى ، عن الرياح الموسمية (٧) ، كان سبباً فى نشاط التجارة الهندية والشرقية وزيادتها بدرجة ملحوظة . وقد كلف أغسطس الحامية الرومانية بالاضطلاع بعبء اصلاح قنوات الرى وتطهيرها فنجم عن ذلك ، على ما أنبأنا به استرابون (٨) ، أنه فى حين كان الأمر قبل الفتح الرومانى يتطلب لضمان محصول وافر ارتفاعاً فى منسوب مياه النيل يبلغ أربع عشرة ذراعاً ، وينجم عن انخفاضه إلى ثمانى أذرع ، تفشى المجاعة وانتشار القحط ، فأصبح الحال غير ذلك فى عهد الرومان إذ كان بلوغ

منسوب مياه النيل إلى اثنتى عشرة ذراعاً يجلب المحصول الوفير ويعم الخير والبركة، فلا فاقة ولا عوز حتى إذا حدث انخفاض منسوب المياه إلى ثمانى أذرع فقط .

ومع ذلك فإذا اعتمدت حكومة ذات كفاية على مبدأ فاسد سقيم، فإن هذه الكفاية نفسها قد تجعلها على مضى الزمان أكثر ضرراً من حكومة أقل كفاية ومقدرة . وقد ثبت صحة هذا إذ ذاك . ولا يستطيع أحد من الدارسين للتاريخ أن يضن بآيات الإعجاب على تلك « المدينة الدولة » الإيطالية التى استطاعت تأسيس إمبراطورية أوسع رقعة وأطول عمراً وأفضل إدارة من أية دولة شهدها من قبل عالم البحر المتوسط وضمنت على مدى قرون عديدة فى جميع أرجاء ممتلكاتها سهولة ويسراً فى طرق مواصلاتها ووحدة فى ثقافتها ليس لها نظير بعد ذلك حتى قيام العصور الحديثة ؛ وإنه لزام علينا أنفسنا أن نعترف على الدوام بالفضل لتلك الدولة التى حضّرت غرب أوربا وأقامت فيها تراثاً وتقليداً من النظام العام ، وحكومة محلية ذات مجالس بلدية ، قُدر لها أن تعمر وتبقى بعد القضاء على الإمبراطورية (الرومانية) نفسها ، وأن تكون نواة لما نحظى به نحن من حريات مدنية ؛ ومع ذلك ففى الشرق حيث التقت روما بحضارة أقدم وأعرق ، كان حظها من النجاح أقل . وقصة مصر الرومانية على أى حال سجل أليم للاستغلال المنطوى على قصر النظر والذى كان مصيره المحتوم أن يؤدى بالبلاد إلى خراب اقتصادى واجتماعى . وقد أشرت من قبل إلى ما تنطوى عليه النظرية الباطلة التى تقضى باحتساب معاملة أمة من الأمم على أساس أنها مجرد ضيعة تُستغل لصالح حكامها وسادتها . ومهما كانت إدارة بعض ملوك البطالمة الأخيرين لضيعتهم من العجز والضعف، فإنه على الأقل كان أكثر ثرائهم المستمد من تلك الضيعة باقياً فى داخل البلاد نفسها ؛ بينما كانت روما تُمثل المالك الغائب . وكان جزء كبير من القمح الذى يقدمه الفلاحون الملكيون على سبيل الإيجار أو يدفعه ملاك الأراضى كضريبة ، وكذلك الضرائب النقدية العديدة — كل هذا يُشحن إلى روما لينفع به الشعب الرومانى مع ما فى هذا من خسارة جسيمة فادحة بالنسبة لمصر . ولم يكن هذا راجعاً إلى أن الحكام

الرومان كانت تحركهم أية مقاصد شريرة ، فالتحذيرات كانت تتوالى بين حين وآخر لمنع السلب وابتزاز الأموال ، وقد ثبت أن تيبريوس عندما بعث إليه عامله على مصر بأكثر من النصيب المقرر المعلوم من الضرائب فى ذلك العام ، أنبه على ذلك مذكراً إياه أنه إنما أوفد لكى يجزّ صوف غنمه لا ليسلخها ، ولدينا فى أوراق البردى من البينة ، ماجاء عرضاً للدلالة على ماكانت تكنه روما من شعور إنسانى لا بأس به منطوٍ على حب الخير فى أحوال فردية [٩] .

ولكن لا جدوى من وراء تلك المقاصد النبيلة ، طالما تمسك الناس بأهداب الفكرة الأساسية ، وهى أن مصر بقرة حلوب تدر لبنها لصالح روما وما يعود عليها بالخير . ولاريب أن تلك البقرة كانت غنية بلبنها ولكن روما حرصت على الإفراط فى استنزاف ذلك اللبن إلى آخر قطرة بانتظام ، وما علينا إلا أن نطالع مايسمى « جنومون » (Gnomon) وهى القواعد التى كان يسنها الإديوس لوجوس (Idios Logos) على نحو ما حفظته لنا بردية فى برلين ، أو ندرس التعليمات الخاصة بتأجير أراضى الحكومة أو بجباية الضرائب ، كما نتعرف فيها جميعاً على الروح التى كانت تحدو مالك الأرض الراغب فى الحصول على إيجار باهظ أو نقف على شعور المؤجِّر وهو يتصبب عرقاً . وكلما عرضت أزمة أو حدثت مشكلة جديدة لم تكن تواجه بتغيير شامل فى ذلك النظام من أساسه ، وقد يكون فى هذا الإجراء وحده مايكفل تهيئة العلاج ، وإنما اقتصر الأمر على اتخاذ إجراءات مؤقتة بقصد الإنقاذ ثم الاكتفاء باطراد التوسع فى الإكراه ، وكان الرائد الأول فى جميع الأحوال هو مصلحة خزانة الحكومة : فلا ينبغى أن يبرم أمر ولايعطى امتياز أو تعمل ترضية ، يكون فى أيهما ما يعرض مصلحة الدولة للخطر . وكان ضحايا ذلك النظام على علم تام بذلك ويدركون أى الدوافع يستطيعون أن يتوسلوا بها فى اطمئنان تام ، فهم يعلمون أن تسيير دولاب الأعمال متوقف عليهم آخر الأمر : فإذا قصر وتخلف من وقع على كاهله عبء من الأعباء وإذا عمد الفلاح المثقل بالأعباء إلى ترك الأرض المقطعة له ، فمصلحة الخزانة العامة لابد أن تتأثر ، وعلى ذلك كان

التهديد برفض التعاون هو الورقة الرابحة فى أيديهم . وكانت الالتماسات التى ترفع إلى السلطات تُذَيَّل فى ختامها بهذا التهديد فى العادة . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى عصر نيرون أخذت هذه النغمة يُسمع صداها : « وعلى ذلك تُوجد خطورة فى أننا بسبب العجز المالى قد نضطر إلى التخلى عن جباية الضرائب » . ذلك هو ماصرح به المحصلون لضريبة الخراج الرأسى فى بعض قرى الفيوم [١٠] . وفى سنة ١٨٠ بعد الميلاد عندما أدرج اسم امرأة على سبيل الخطأ فى كشف المكلفين بأداء عبء من الأعباء عمدت إلى استخدام الأسلوب الذى كان متداولا ومعروفاً إذ ذاك ، وذلك بقولها « إننى من أجل هذا السبب أصبحت فى خطر يضطرنى إلى مغادرة محل إقامتى » [١١] .

وحتى قبل منتصف القرن الأول الميلادى بدت البوادر المنذرة بالسوء ، فالفيلسوف اليهودى فيلون (Philo) عندما كان يصنف كتبه فى عهـــدى كاليجولا (Caligula) وكلودويوس (Claudius) قدم صورة رائعة للأحوال السائدة فى عصره ؛ فتحدث عن جباة الضرائب الذين لم يكونوايتورعون عن الاستيلاء على مومياء العاجز عن سداد الضرائب المستحقة عليه كيما يكرهوا ذوى قرباه على دفع المتأخرات ، كما أشار إلى الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء الذين زُجّ بهم فى غياهب السجون ولاقوا أصناف التعذيب كيما يعترفوا بمكان الهارب المطلوب ؛ كما تحدث عن قرى برمتها بل ومدن هجرها سكانها [١٢] . وما دام أنه ليس لدينا من البيّنة مايؤيد ذلك فإنه من الجائز أن نعتبر وصف فيلون من قبيل المبالغة الخطابية ، ولكن السجلات التى كشف عنها فى مصر قد زودتنا بالأدلة على مافى أقوال فيلون من صدق وتحقيق . وفى تاريخ مبكر يرجع إلى عام ٢٠ بعد الميلاد بدأنا نسمع عن التجاء دافعى الضرائب إلى الفرار والاعتصام (Anachôrêsis) بأحلم المعابد [١٣] . وفى بردية كتبت فى تاريخ يتراوح بين أعوام ٥٥ و ٦٠ م ، أبلغ الجباة الموكلون بتحصيل ضريبة الخراج الرأسى من ست قرى بالإقليم الأرسينويتى ، فى تقرير ضَمّنوه أن « السكان فى القرى سالفة الذكر ، بعد أن كانوا كثيرين تضاءل عددهم

إذ ذاك وانكمشوا حتى أصبحوا قلة من بضعة أفراد لأن البعض آثر الفرار بعد أن ضاقت سبل الرزق فى وجوههم والبعض الآخر أدركهم الموت دون أن يتركوا ذرية من بعدهم»[١٤] . وليست هذه البينة هى الدليل الوحيد فلدينا كذلك إثبات آخر جاء فى المرسوم الذى أصدره تيبر يوس يوليوس الإسكندر (Tiberius Julius Alexander) ابن أخ فيلون وقد تخلى عن يهوديته وأصبح ضابطاً فى الجيش الرومانى ووالياً على مصر من ٦٦ إلى ٧٠ م . ومن المسلم به أن القصد من هذا المرسوم قد يكون ، كما اقترح البعض ، الدعاية والإعلان لصالح الحزب المناوئ لنيرون ، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الوالى وهو الذى كان من الموالين المؤيدين لفسپاشيان[١٥] ، ما كان ليأبه بالتهوين من شأن الشرور والآثام القائمة ، ولكن المساوئ المشار إليها والصور والأوصاف التى تتحدث عنها على أنها رفعت إليه وأنواع العلاج المقترحة — كل هذه أمور محددة بالذات لدرجة أنها لا تترك مجالا للشك فى أن هذه الوثيقة احتوت على أدلة صادقة على وجود اضطراب شامل وخلل خطير ، فترامى إلى سمعنا أن أناساً أكرهوا على غير إرادة منهم على تحمل عبء التزام الضرائب وتحصيل إيجارات الأرض (والحقيقة الأخيرة مؤيدة تماماً بما جاء من بينة فى بردية) — كما سمعنا عما كان يبديه المبلغون والمخبرون من نشاط فى اتهام المقصرين والعاجزين عن دفع ما عليهم لدى الإديوس لوجوس ، ورأينا الفلاحين فى طول البلاد وعرضها ، وقد أثقلت كواهلهم بمختلف الضرائب والأعباء ، الجديدة والطارئة منها[١٦] .

ويبدو أن الإجراءات التى اتخذها تيبر يوس يوليوس الإسكندر قد أثمرت وآتت أكلها لأنه ليس من قبيل الصدف فى أغلب الظن أن ما بقى من سجلات يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الأول ، اشتملت على بينات أقل من سالفاتها عن وجود اضطراب خطير . ولكن بدعة فى النظام الإدارى كان قد سبق إدخالها فى مصر وقدر لها أن تكون ذات أثر وخيم . فالبيروقراطية البطلمية كانت بصفة خاصة محترفة ، تعتمد على التطوع فى الحصول على الموظفين والأيدى العاملة فيها . وجباية الضرائب تجرى فيها عن طريق طرحها فى مزاد

يشترك فيه الملتزمون الذين كانوا يتقدمون بعطاءاتهم بمحض حريتهم؛ والمستأجرون الملكيون، على الرغم مما كان يفرض على حريتهم فى التنقل من قيود، فإنهم كانوا يتقدمون بطلباتهم بمحض الاختيار لإبرام عقود الإيجار لهم؛ وفى أوقات الأزمات والملمات كانت الحكومة تعمد فى الحق إلى إدراج أسماء الأشخاص الذين تتوسم فيهم الأهلية والصلاحية ضمن موظفيها حتى ولو كان هذا ضد إرادتهم، كما كانت الحكومة تعمد إلى إكراه الملتزمين فى جباية الضرائب على الاضطلاع بعقودهم وإلى إكراه الفلاحين على قبول عقود الإيجار. على أن هذه الإجراءات كانت فى الحالات الاستثنائية. وفى أول الأمر حافظ الرومان على ما جرى عليه العمل فى عهد البطالمة. ولكنهم شيئاً فشيئاً فى أثناء القرن الأول الميلادى استحدثوا مبدأ جديداً هو المسمى الفرض والتكليف (liturgy). وهذا الاصطلاح مقتبس من المدن اليونانية حيث كان ذوو اليسار من المواطنين الأحرار يضطرون إلى تادية بعض الخدمات العامة مثل توريد جوقات المرتلين فى الحفلات التمثيلية وتجهيز المراكب الحربية. وما لبث فى مصر أن أصبح هذا النظام الذى بدأ بأصغر الوظائف المحلية، مطبقاً شيئاً فشيئاً على المراتب العليا فى سلك الوظائف الإدارية، فاتخذ طابع إكراه ذوى المؤهلات على الاضطلاع بأشخاصهم ببعض الأعباء العامة، من ذلك تولى أعمال المسنين فى القرية وكتبة القرى وحفظة الأمن والموظفين الماليين وجباة الضرائب (ذلك بعد إحلال نظام الجباية المباشرة محل الالتزام بالنسبة لأغلب الضرائب)؛ ويحتمل أن يكون أولئك الذين وقعت عليهم تلك الأعباء كانوا يستولون على مرتب ما [١٧]، ولو أن معلوماتنا فى هذا الصدد غير مقنعة تمام الإقناع. على أن هذا الأجر لم يكن فى أغلب الظن كافيا بحيث يتلاءم مع النفقات التى تتطلبها هذه الأعباء. وفوق ذلك فإن أولئك الذين اضطلعوا بتلك الأعباء كانوا مسئولين بأشخاصهم وأملاكهم عن كل الخسائر وما قد ينجم من عجز. وقد سرى نظام الاضطلاع بالأعباء كالسرطان وتفشى فى جميع نواحى البناء الإدارى فيما عدا أعلى المناصب وأسماها، وامتد فى الواقع حتى وصل إلى المناصب

البلدية التى كانت نظرياً مراتب شرف وامتياز يتطوع الناس لشغلها وتكون محط أطماعهم (وعلى النقيض من وظائف الشرف هذه (honores) نجد الأعباء (munera) وبتطبيق هذا النظام بشدة لا هوادة فيها أدى به الأمر إلى القضاء أولاً على الفلاحين الموسرين ثم على الطبقة الوسطى ذات الغنى واليسار [١٨] . على أن الإكراه والإجبار لم يقتصر على هذا النطاق ، فإن الشروط المعروضة على الفلاحين المستأجرين لأراضى الدومين لم تكن سخية ، كما أن الترضيات والإعفاءات التى كانت تبذل فى أوقات الضنك الاقتصادى والضيق المستحكم كانت مرموقة بالبغض والحقد إلى حد أنه أصبح من المستحيل فى بعض الأحيان العثور على من يتقدم للمزايدة فى العطاءات طوعاً واختياراً ، وفى مثل هذه الأحوال ، كانت الدولة تلجأ إلى الإكراه والإجبار بإحدى وسيلتين : إما بضم ما لم يؤجر من الأرض فى نطاق قرية ما إلى قرية أخرى حيث يقع عبء زراعتها على كاهل القرويين بتوزيعها عليهم عن طريق القرعة، وإما باللجوء إلى وسيلة يطلق عليها العبء الإضافى (epibolê) وبمقتضاها كانت أنصبة من أرض الدومين تقطع وتلحق بأراضى الملكية الخاصة حيث يضطر ملاكها أن يزرعوها مع أملاكهم الخاصة ، وبهذه الطريقة كاد أن يؤول الأمر فى النهاية بأرض الدومين إلى أن يعتريها الزوال فى العصر البيزنطى بأن تبتلعها الأرض الخاصة التى أصبحت مرتبطة بها [١٩] . وفى حالة تطبيق الطريقة الأولى المنطوية على التوزيع (epimerismos) كانت الجماعة كلها مسئولة عن زراعة الأرض وبالتالى عن دفع الضرائب (وهذا هو بيت القصيد) . أما فى حالة تطبيق الطريقة الثانية فكل فرد مسئول عما التزم به، ولكن ظهرت المسئولية الجماعية باطراد ، على حد قول فيلون ، على مضى الزمان واتخذت طابعاً عاماً : فإذا توارى واحد من دافعى الضريبة فإن الضرائب المستحقة عليه تُجبى من زملائه من أعضاء الجماعة ، وإذا عجز مستأجر عن دفع ما عليه أو هرب مالك للأرض فإن واجب فلاحة هذه الأرض كان يقع على الآخرين. وفضلا عن ذلك فإن أولئك الذين كان من واجبهم ترشيح شاغلى الوظائف

– سواء أكانت مما يدخل فى نطاق الوظائف التى يؤجر عليها شاغلوها (munera) أم الوظائف الشرفية (honores) – اعتبروا ضامنين بل إنهم كانوا أنفسهم مسئولين عما قد ينشأ من عجز بسبب المرشحين من قبلهم . ولا بد أن الفرد أخذ يشعر شيئاً فشيئاً على توالى السنين بوقوعه داخل شبكة ضاقت منافذها وأحكمت حلقاتها حتى لم تعد تسمح لأحد بالفرار منها .

وفى أول الأمر لم تظهر النتائج الكاملة لذلك النظام ، وقد دلت البيّنة بوجه عام على وجود يسر ورخاء بدرجة معقولة فى معظم أنحاء مصر فى أثناء القرن الأول . أما تلك الدلائل التى تشير إلى وجود أزمة مستحكمة على نحو ما ذكرته ، فإنها – غالباً – كانت مؤقتة أو محلية . وحتى فيما يختص بالقرن الثانى – وهو العصر الذى أخذت فيه الصورة تزداد ظلمة وحلكة شيئاً فشيئاً – فإن بعض الكتاب يميلون إلى المبالغة فى تصوير تلك الحلكة القاتمة . وفى الشطر الأول من ذلك القرن تعاقب عدد من الأباطرة المشهود لهم بالمقدرة والاستنارة ، ومن بين هؤلاء كان هادريان جديراً بالذكر والتنويه بصفة خاصة لما عُرف عنه من عطف على سكان الأقاليم والولايات ، فاستطاع أن يوفر مستوى عالياً إلى حد لا بأس به من الكفاية والعدالة والمساواة فى الإدارة ، ولدينا من البيّنة الأثرية على نحو ما ظهر فى كارانيس (Karanis) (وهى كوم أوشيم حالياً) بالفيوم حيث تم فيها التنقيب بطريقة منتظمة على يد جامعة متشيجان – ما يدل على عدم وجود أى تأخر ملحوظ فى مستوى البناء أو نقص فى وسائل المعيشة فى الحياة الاجتماعية إلى ما قبل نهاية ذلك القرن . على أن النشاط البادى فى حواضر الأقسام بأسلوب يشابه ما يجرى فى البلديات ، ظهر فى عنفوان قوته كما كانت تقاليد الثقافة الهيلينية مرعية تماماً ، ثم إن الكشوف (الأثرية) فى أكسيرنخوس * (Oxyrhynchus) وهى حاضرة قسم فحسب ، وليست مؤسسة يونانية ، قد دلت على وجود نطاق واسع المدى وفيه تباين إلى حد يدعو إلى الدهشة ، من ذخائر الأدب اليونانى الكلاسيكى وبدائعه ، ميسرة للدراسة ،

* أكسيرنخوس محلها الآن قرية البهنسا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا .

وكان هومر – باعتباره الكتاب المدرسى الأساسى فى التعليم اليونانى – منتشراً بالطبع فى كل مكان ، ولا حاجة بنا لأن تعترينا الدهشة لوجود هيسيود (Hesiod) ، ولكن مما يدعو إلى أشد من ذلك عجباً أنه بالإضافة إلى المؤلفات التى بقيت بعد العصور الوسطى ، والمؤلفين من أمثال سافو (Sappho) وميناندر (Menander) وكاليماخوس (Callimachus)– وكان أغلب هذه قد ضاع إذ ذاك ، ولكنها كانت مألوفة للقراء طوال القرون الأولى من العصر المسيحى – نجد كثيراً من المؤلفات التى تسرّع بعض الكتاب الحديثين فى الظن بأنها لم تكن متداولة فى ذلك الحين ؛ ومن بين هذه المؤلفات قصاصات لكثيرين من أوائل كتاب الأناشيد والمقفيات والأزجال ونتف من أناشيد النصر وأغانى الحرب وغيرها من أشعار پندار (Pindar) ومعاصريه وفقرات من روايات إيسكلس (Aeschylus) الضائعة (ومن المستطاع التعرف على أثر ما يقرب من أربعين من رواياته التمثيلية) وذلك عدا غيرها من شعر سوفوكليس ويوريبيديس وأرسطوفانيس وأمثلة من شعر الأغانى على مختلف بحوره ومنها «المليامبى» (meliambic) الخاص بالأغانى ، ومنها « الخوليامبى* » (choliambic) وهو ضرب من أوزان الشعر . ومن الجلى أن القاطنين فى أكسيرنخوس – مثلهم بالطبع مثل الساكنين فى أنحاء أخرى من مصر – كان فى متناولهم مقدار هائل من ذلك التراث الأدبى الذى لم يبق منه للآن سوى اليسير ، ولا بد أنه كان هناك جمهور كبير من القراء إلى درجة لا بأس بها ، كما نشطت تجارة رابحة فى الكتب . ولدينا خطاب شيق جاء فى بردية نشرت منذ أمد ليس بالطويل [٢٠] ، فكشف لنا النقاب عن المحيط الشغوف بقراءة الكتب وألقى لمحة من الضوء الساطع على تلك البيئة فى أكسيرنخوس ، يقول فيه صاحبه : « انسخ لى صوراً من الكتابين السادس والسابع من « شخصيات فى الكوميديا » للمؤلف هيبسيكراتيس

---

* choliambic من اليونانية choliambos ، وصدر الكلمة هو cholos أى أعرج وعجزها يامبوس ؛ وهو بيت الشعر من البحر الإيامبى ومقطعه الأخير spondee أى طويلان «المترجم» .

(Hypsicratês) ووافق بها وذلك لأن هاربوكراتيون (Harpocratiôn) يقول إنها موجودة بين كتب پوليون (Pôliôn) ولكن يحتمل أنها لدى آخرين ولديه كذلك ملخصات نثرية من مؤلَّف ثيرساجوراس (Thersagoras) عن الأساطير فى التراجيديا » ، هذا ما ذكره كاتب الخطاب ، وقد أضيفت عبارة بخط شخص آخر جاء فيها : « وفى رأى هاربوكراتيون أن ديمتريوس (Demetrius) الكتبى قد استحوذ عليها » .

ولئن كانت الأمية متفشية ، وبخاصة فى محيط النساء ، فإن التعليم لم يكن مقصوراً بحال ما على طبقة مختارة من الأثرياء ، بل كان يحظى بالتقدير العظيم والإقبال الشديد بين أفراد الطبقة الوسطى التى عملت السياسة الرومانية أقصى جهدها من أجل إنشائها وإيجاد كيان لها ، وكانت مرحلة التعليم الأولى تبدأ بالتدريب على القراءة والكتابة بتعلم الحروف الهجائية أولاً ثم الانتقال إلى المقاطع المفردة المؤلفة من حرفين وثلاثة أحرف أو أكثر من ذلك ، ثم يلى ذلك كلمات تامة وكانت تكتب أحياناً مقطعاً مقطعاً [٢١] . وكان المنهاج يسير على مراحل وخطوات فينتقل من دراسة « الأجرومية » والنحو إلى علم الخطابة والأدب والعلوم الرياضية (بما فى ذلك فن المساحة) والفلسفة ؛ وكان مقرراً على التلاميذ أن يكتبوا موضوعات إنشائية ، وكان عليهم فى مرحلة تلى ذلك صياغة خطب فى موضوعات معينة ، وكانوا يلقنون بعض المعلومات عن الأسطورة اليونانية وعلم الأساطير ؛ وإن الإكثار من اختيار الجمل المتضمنة حِكماً وأمثالاً سائرة، للتدريب على القراءة، لدليل على الميل نحو الاتجاه إلى التعليم الخلقى، وإن كان بعض هذه الأمثال والحِكَم (gnômai) من الطابع الفلسفى الذى يميل إلى الاستهزاء والتهكم، من ذلك الأمثال المنسوبة إلى سيمونيديس(Simonides). وكان هومر هو الأساس الذى يقوم عليه نظام التعليم برمته : « إنى لحريصة على أن أكتب إليك للسؤال عن صحتك وأن أقف على الموضوع الذى تطالعه وتقرأ فيه ، وقد أبلغنى (المعلم) بأنه الكتاب السادس» . ذلك هو ما كتبته أم لابنها ، ولم يكن هناك داع للنص على أن ذلك الكتاب من الإلياذة[٢٢] . وكان

كُتَّاب الروايات التمثيلية من تراجيدية وهزلية على السواء ، وأشهر شعراء الأناشيد والخطباء طبعاً موضع دراسة كذلك . وفى المراحل الابتدائية على الأقل كان يُستعان كثيراً فى الأغراض التعليمية بالشقف « الشقافة » أو الأوستراكا وبألواح الشمع التى كان من اليسير إعادة استخدامها مرة بعد أخرى. وبالطبع كانت الكتب المقررة مطلوبة : « لى إليك رجاء ، أن (تطلب) إلى ولى أمرى أن يهيئ لى مستلزمات المدرسة ومطالبها ومن ذلك كتاب للمطالعة لازم لهيرايدوس (Hêraidous) [٢٢] ، ذلك هو ما كتبه تلميذ فى إحدى المدارس ، عاش فى القرن الثانى [٢٣] . ولما كانت هيرايدوس هذه بنتاً ، وهى ابنة حاكم أحد الأقسام (strategos) فإن هذا الخطاب يشير إلى وجود نظام التعليم المشترك (الذكور والإناث) . وقد أثير رأى يتضمن [٢٤] أن الكثير من أوراق البردى المشتملة على نص أدبى مكتوب على ظهر لفافة سبق استعمالها كوثيقة رسمية ، ربما كانت نسخاً مدرسية . وفضلا عن المدارس المحلية والتعليم الذى كان يلقن فى النوادى الثقافية الرياضية يبدو أنه كان هناك معلمون ذوو منزلة ، يحج إليهم التلاميذ من أماكن قاصية ليتلقوا العلم على أيديهم ، وفى هذا سبق لنظام المدرسة الداخلية الحديثة إلى حد ما ، وعندما تنتهى أيام الدراسة كان الراغبون فى إتمام التعليم العالى يستطيعون الحصول عليه فى جامعة الإسكندرية . ولدينا خطاب نشر حديثاً [٢٥] كتبه طالب ربما كان من تلك المدينة ، أوضح فيه بجلاء عقلية الطالب الجامعى القديم ، وعلى الرغم من سهولة فهم سياق هذا الخطاب إلى حد ما ، فإن كاتبه لسوء الحظ لا يذكر شيئاً عن خطة الدراسة ومناهجها ، ولا ينبغى لنا أن نتقبل رأيه فى التعليم ونأخذه مأخذ الجد أكثر من اللازم : « أما عن نفسى فكم كنت أتمنى لو أننى وجدت بعض المعلمين المحترمين وعندئذ ما كان يجول بخاطرى أن يقع بصرى مطلقاً على « ديديموس » (Didymus) ولو من بعيد ، ومما يدعو إلى اليأس أن هذا الشخص الذى لم يكن من قبل سوى مدرس عادى فى الأقاليم ، أصبح يعتقد فى نفسه أنه أهل للمقارنة بغيره من الآخرين ، ومع ذلك فإنى على يقين أنه فيما عدا تكبد مصروفات

باهظة من غير طائل ، لا خير يرجى من أى معلم ؛ وقد عولت على الاعتماد على نفسى » . ويظهر أن تعلم مواد خاصة مثل الاختزال الذى كان مطلوباً فى أعمال المحاكم والوظائف الإدارية، كان يجرى بطريق التمرين والتدريب على يد خبير فيها [٢٦] .

وكان هذا التعليم اليونانى الخالص يشتمل بالطبع على عنصر فى غاية الأهمية ؛ ألا وهو التربية البدنية من ألعاب تمارس فى حلبة المصارعة (palaestra) وتدريب على التمرينات الشبيهة بالعسكرية، التى كانت تباشرها الشبيبة اليونانية (ephebes) ، وكانت الاستعراضات التى تنظمها تلك الشبيبة ، وغيرها من الاحتفالات العامة التى تقام فى مناسبة حفل دينى أو تولى إمبراطور أو عيد ميلاد أحد القياصرة تهيئ لسكان حواضر الأقسام فرصاً لمشاهدة المناظر الممتعة . وكانت تلك الألعاب تعقد على دورات ويشترك فيها أبطال الألعاب الرياضية على مختلف طبقاتهم فيتبارون فى الملاكمة [٢٧] والمصارعة والجرى وما إلى ذلك . ومما لا ريب فيه أنه كانت تقام حفلات تمثيلية . ومن المعقول أن نتصور أن الفرص كانت تتاح بين حين وآخر لسكان حاضرة من الحواضر لمشاهدة تمثيليات من بين المؤلفات الكلاسيكية من التراجيديا اليونانية والكوميديا الجديدة ، وما من ريب فى أنه كان فى وسع هؤلاء السكان الاستمتاع بمشاهدة الروايات الهزلية الشعبية وحضور التمثيل الهزلى مما يجرى عرضه فى المسرح المحلى أو بهو الموسيقى [٢٨] ، وهناك جوقات متنقلة من الموسيقيين والراقصين والمهرجين « البهلوانات » ممن يلعبون على الحبل وأمثالهم، عملت على الترفيه بوسائل التسلية عن القرويين الساكنين فى الأنحاء النائية من أقسام مصر ومديرياتها [٢٩] . ومما لا ريب فيه أن الحياة فى مصر فى أثناء القرن الثانى لم تخل من المسرات ومباهج الدنيا . وعلى الرغم من تلك الشبكة المحكمة من اللوائح والقيود التى كانت تُغل العمال وتقيد حريتهم فإنهم لم يعدموا وسيلة لإظهار سخطهم والتعبير عنه وبث شكاياتهم ومظالمهم . وقد كتبت امرأة من طبقة الأثرياء من سكان هرموبوليس إلى ابنتها فى عهد تراجان تنبئها بأن « جميع الناس عندنا قاموا

بمظاهرة وطافوا حول المدينة مطالبين برفع الأجور والمرتبات » [٣٠] .

وعلى الرغم من أن العادة الشائعة الخاصة بتعريض غير المرغوب فيهم من الأطفال للهلاك ، كانت إجراءاً مقصوراً فى أغلب الظن على الطبقات الفقيرة بوجه إجمالى نظراً لأن ذلك راجع إلى عوامل اقتصادية ، فإن أوراق البردى تسلط قبساً من النور الساطع فتكشف عن وجود حياة عائلية هنيئة وإقامة حفلات بمناسبة أعياد الميلاد وولائم العشاء ونحو ذلك من الاحتفالات الاجتماعية ثم شراء لعب وحلوى للأطفال وتبادل خطابات خاصة تفيض بآيات العطف والحب العائلى .

ومع ذلك فإن مصير ذلك الرخاء الاقتصادى كان آيلا للتدهور شيئاً فشيئاً على نحو ما بيّنا . وفى بدء القرن الثانى كان مبدأ استغلال الجهود وتكليف الأفراد بالقيام بالأعباء قد أصبح مقرراً يجرى تطبيقه بحذافيره على جميع وظائف الدولة وهى ما تسمى باللاتينية (munera) فيما عدا أرفع تلك الوظائف وأسماها ، كما كان هذا المبدأ قد أخذ يتغلغل من قبل فى محيط الوظائف الشرفية وهى ما يطلق عليها (honores) فى حواضر الأقسام . وفى سنة ١١٥م . كانت وظيفة رئيس الندوة الثقافية الرياضية فى هرموبوليس لا تزال بالاختيار فى الأحوال العادية [٣١] ، ولكن عندما أسس هادريان فى سنة ١٣٠م. المدينة الجديدة المسماة أنطينو پوليس ، تخليداً لذكرى حبيبه أنطينوس (Antinous) وجلب إليها مواطنين من مختلف الأقسام الإدارية ، منحهم ضمن المزايا الأخرى التى اختصهم بها ، حق الإعفاء من التزام القيام بأعباء وظائف سواء أكانت من المأجورة أم الشرفية ، خارج نطاق مدينتهم [٣٢] . وفى عهد الإمبراطور التالى وهو أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius) أصدر أهل أكسيرنخوس (Oxyrhynchites) قراراً يكرمون فيه أحد أبناء بلدتهم ، وقد حرصوا على توكيد الحقيقة التالية وهى أنه اضطلع بأعباء وظيفة رئيس الندوة الثقافية الرياضية طائعاً مختاراً [٣٣] . وقبل نهاية هذا القرن كان الإكراه قد أصبح الإجراء العادى الذى لا سبيل إلى الحيدة عنه على الإطلاق [٣٤] . وحتى هذا التاريخ كان مبدأ الاختيار آخذاً فى

التوارى من وعى الناس وشعورهم إلى حد أننا فى القرن الثالث نجد كلمة التكليف (liturgy) مستعملة للدلالة على الأعباء المأجورة (munera) والشرفية (honores) على السواء . ولدينا بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٠٢ وقد جاء فيها أن سكندرياً حراً من الأثرياء يطلب الإذن من الإمبراطور بتأسيس صندوق خيرى لمساعدة من تقع عليهم تلك الأعباء فى بعض قرى وأعمال إقليم أكسيرنخوس وهى التى « توالت عليها الأعباء الثقيلة التى كانت تفرض على كواهل الناس سنوياً» حتى أصبحت بسبب ذلك « مهددة بخطر الدمار إلى درجة تؤثر على مصلحة الخزانة العامة وتنذر بترك أراضى الحكومة بوراً لا زراعة فيها »[٣٥] . وظهرت الصعوبات التى أخذت تستحكم حلقاتها على توالى الزمان فى سبيل إيجاد المرشحين اللائقين لتولى الوظائف العامة فى الحضر . وقد أثبتت عدة برديات وجود مخالفات لتلك الحصانة التى أسبغها هادريان على سكان أنطينوپوليس (بإعفائهم من تولى الوظائف خارج نطاق مدينتهم) . بل إنه بعد أن أثقلت الأعباء كواهل سكان حواضر الأقسام عمد هؤلاء السكان إلى محاولة إكراه القرويين على تولى الوظائف العامة فى الحضر — وهو إجراء اضطر سپتميوس سيڤيروس إلى تحريمه ؛ ولما تضاءل حينئذ عدد من يصلحون للاضطلاع بهذه الأعباء الثقيلة لمدة عام كامل استعيض عن الأفراد فى تولى الوظائف بهيئات ولجان كان يُوكل إلى كل عضو فيها بأعباء الوظيفة بطريق التناوب وفى أواخر القرن الثالث أصبحنا نجد رؤساء الندوات الثقافية والرياضية مثلاً ، يتولون أعباء الوظيفة لبضعة أيام فقط .

وبحلول هذا التاريخ أصبح لزاماً علينا أن نأخذ فى الاعتبار قيام عامل جديد ، ألا وهو المسيحية . وإن معلوماتنا عن بدء انتشار المسيحية فى مصر جدُّ قاصرة إلى درجة تدعو إلى الدهشة [٣٦] ؛ ومن اليسير استبعاد الرأى المتواتر بأن القديس مرقص هو الذى أسس الكنيسة السكندرية ، على أساس أن هذا فى أغلب الظن حديث خرافة . ولكن فى الإمكان أن نفترض أن تلك العقيدة الجديدة لم يلبث بها الأمد طويلا حتى تسربت إلى ذلك المرفأ الرئيسى فى

شرق البحر المتوسط (ألا وهو الإسكندرية) وبمجرد وصولها إلى هناك كان مصيرها أن تنتشر فى بقية أرجاء مصر ، ومع ذلك فلا أثر لها فى أى ورقة من أوراق البردى التى ترجع إلى القرن الأول مما كشف حتى الآن ، بل إنه فى وثائق القرن الثانى لا يوجد من الأدلة والبينة الواضحة سوى أثر ضئيل لهذه الديانة مما يدعو إلى الغرابة . أما أنها كانت قبل ذلك موطدة الدعائم فى مصر الوسطى والعليا فأمر يمكن مع ذلك استنباطه من الأدلة الواردة فى البردى الأدبى . ولدينا الآن قصاصات من البردى الخاص بالكتاب المقدس لا يقل عددها عن سبع ، ويمكن تأريخ هذه البرديات بأنها من القرن الثانى على سبيل اليقين . وواحدة منها ، وهى عبارة عن قطعة صغيرة من إنجيل القديس يوحنا ، أجمعت آراء الثقاة المختصين على تأريخها من العهد الأول من ذلك العصر [٣٧] . وفى مقابل كل بردية من هذا النوع مما حفظ لنا بمحض الصدف ، لا بد أن كان هناك مئات تناولتها يد البلى ، وفى مقابل كل مسيحى ممن كانوا يقتنون مثل هذه البردية ، كان هناك عشرات لم يقتنوا شيئاً منها .

ويمكن تفسير ندرة الإشارات إلى العقيدة المسيحية فيما لدينا من وثائق بردية ، إلى أن بعض ذلك راجع إلى ضرورة إخفاء أى اتصال بهذا المذهب المضطهد ، ولكن ليس من الضرورى أن نأخذ هذا على أنه هو السبب الأوحد : فالعقود القانونية والإقرارات والبيانات المرفوعة للموظفين لم تكن تتطلب أى إشارة للمسيحية ، كما أن الخطابات الخاصة التى كانت تصاغ وفق أساليب وعبارات مألوفة ، مصطلح عليها والتى كانت تتناول فى العادة موضوعات لها طابع عملى بحت ، كانت على حد سواء تتوخى الحياد . ومن الخطأ أن نفترض أن الاضطهادات كانت متلاحقة فى سلسلة متصلة ، كما أنه من الخطأ كذلك أن نعتقد أن اضطهادات المسيحيين التى شنتها الحكومة الرومانية عليهم كانت موجهة ضد عقائدهم الدينية بالذات ؛ فربما كانت متسامحة للغاية فى أمور العقيدة والتدين ، وعندما حاولت القضاء على عبادة ما ، كان الأساس الذى بنت عليه هذا الإجراء المتنوع بأسبابه خُلقية أو سياسية ، فى نظر السلطات

الحاكمة كان المسيحيون مواطنين ورعايا غير طيّعين ويمثلون عنصراً خطراً فى المجتمع ، فنأوا بجانبهم وأعرضوا عن الاشتراك فى الطقوس الخاصة بالديانة الرسمية ، ولم يقدموا الاحترام اللازم للصور والتماثيل الخاصة بالأباطرة أو يشتركوا فى عبادة روما أو تبجيل الروح الراعية للإمبراطور ، وكان تماسكهم وتوخى السرية فى عبادتهم مدعاة للظن بأنهم يؤلفون جمعية سرية ، فاتهموا بارتكاب أمور مفزعة ، فمن فسق إلى طقوس بشعة ، وموت كان ينجم عن تأدية هذه الطقوس — تلك كانت التهم التى ألقى بها الوثنيون فى وجه المسيحيين ، كما أن المسيحيين بدورهم رموا اليهود فى القرون التالية بمثل ذلك . ولكن كان هناك دائماً وثنيون على استعداد لإيواء أصدقائهم من المسيحيين ، وكان حكام الأقاليم فى أغلب الأحوال يحجمون أشد الإحجام عن تطبيق قوانين العقوبات. ولم يتخذ الاضطهاد طابعاً عاماً إلا فى أوقات الكوارث العامة أو فى أثناء الهياج الشعبى . وفى رأى ترتيليان (Tertullian) فى فقرة مشهورة له [٣٨] ، أنه (إذا فاض التيبر وبلغ الجدران والأسوار وإذا عجز النيل عن أن تصل مياهه إلى الحقول وإذا أمسكت السماء عن أن تسكب وابلاً مدراراً ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا انتشرت المجاعة وتفشى الوباء ، عمت الصيحة فى الحال: « الويلُ للمسيحيين فمصيرهم المحتوم إلى الأسود الضارية ») .

وفى مثل هذه المناسبات كانت تخور العزائم وتخون البعض شجاعتهم إزاء تلك المحنة ولكن كثيرين غير هؤلاء صمدوا ولم تفل شجاعتهم . ومن المستحيل أن نقرأ القصص الأولى الناطقة بالصدق فى وضوح وجلاء مما يتعلق بالاستشهاد مثل تعذيب القديسة پرپيتوا * (St. Perpetua) أو نتصفح أعمال الشهداء الإسكيليتيين (Acts of the Scillitan Martyrs) دون أن يستولى علينا التأثر العميق لتلك البطولة فى غير تفاخر ولا مباهاة ، ومع ذلك فى عزيمة لا تفل ، مما كان يظهره الرجال والنساء على السواء ؛ ولعلنا نقدر هذا

* القديسة پرپيتوا وتابعتها فيليزيتاس (Felizitas) كانتا من ضحايا الاضطهاد الدينى فى قرطاجة حوالى سنة ٢٠٢ ، ماتتا وهما فى مقتبل العمر وخلفتا أعمالهما وقصة استشهادهما باللغة اليونانية . «المترجم»

بصفة خاصة إذا تذكرنا السياق والظروف المحيطة بهذه البطولة والعبارات البسيطة التي كانت ترد على ألسنتهم « إني مسيحي (أو مسيحية) »[٣٩]. وإنها لكلمات ليس من اليسير دائماً التفوه بها حتى في الوقت الحاضر في بلد مسيحي من الناحية الإسمية، ولكنها في القرنين الثاني والثالث كانت تجلب على الناطقين بها لا مجرد الاستهزاء والتهكم والاستخفاف من أقران مجردين من المشاعر، بل كان جزاؤها موتاً زؤاماً تنخلع له قلوب أشجع الشجعان : فالجموع المتراصة في مدرج مكتظ بالجماهير المتعطشة لرؤية الدماء وهي تسيل ، ترمق من حولها فئة قليلة من المسيحيين كدست في المجتلد وقد هرص أسد أو نمر ضحاياه فوق رمال مخضبة بالدماء ثم يأتي في آخر الأمر دور سيف رحيم يُجهز على تلك الأجساد الممزقة المشوهة فيخلصها من ذلك العذاب الأليم . ولدينا مجموعة من البردي يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث توضح بجلاء ذلك الاضطهاد الذي حدث في عهد ديكيوس (Decius)، وفي هذه الوثائق أمثلة من تلك الشهادات الدالة على تقديم التضحيات للآلهة الوثنية تنفيذاً للأمر الذي أصدره الإمبراطور لجميع رعاياه في أنحاء الإمبراطورية ، ومن لم يقدمها ، اعتبر أنه من المسيحيين وفي هذا القضاء المبين ، ولكن بعض ضعاف النفوس من الرعية المسيحية سمحت لهم ضمائرهم وذممهم الخربة بتقديم شهادات مزورة[٤٠] .

ويظهر أن المسيحية المصرية كانت تشوبها أفكار تنطوي على الهرطقة وبخاصة نحو مذهب أهل المعرفة * ، ولعل تلك حقيقة تفسر انتشار إنجيل القديس يوحنا وذيوعه في مصر ، وهذا الإنجيل يدعو إلى مذهب العقل (Logos) وبه طابع الروحانية . وقد قيل في الحق إن هذا الإنجيل سُطر في الإسكندرية[٤١]. مما يساعد بالتأكيد على تفسير ما أظهره بوليكارب (Polycarp) من جهل واضح به[٤٢] . والإسكندرية بعد أن قاست الأمرّين من جراء الحروب الأهلية

---

* Gnostics وهم العارفون بالله أو الغنوصيون الذين يعتنقون مذهب المعرفة (gnosticism) ، يمثلون فريقاً من المسيحيين الذين يؤمنون بأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة وليس عن طريق الإيمان . والعارف بالله هو الذي يكمن فيه العنصر الأساسي لهذا الجوهر الإلهي ويستجيب بنفسه إلى الدعوة الإلهية ، وفي الاستجابة إلى تلك الدعوة يكون خلاص العالم من الشرور والآثام . (المترجم)

والاضطرابات التى عمّت أرجاء مصر خلال الفترة الأخيرة من العصر البطلمى والتى كانت مركزاً تنبعث منه تلك القلاقل فى أكثر من مرة، تمتعت بالرخاء الشامل فترة من الزمان تحت الحكم الرومانى ، إنها كانت فى ذلك الحين ثانى مدينة فى الإمبراطورية وأعظم مرفأ فى حوض البحر المتوسط ، ازدهرت بها التجارة المتبادلة نحو الغرب والشمال مع إيطاليا والولايات الغربية ومع بلاد اليونان وآسيا الصغرى ثم نحو الشرق حتى بلاد الهند ولم تعد المدينة كما كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد مأوى يلوذ به الشعراء من ذوى المنزلة الشعرية الرفيعة ، وإن كان لا يزال بها مدرسة للشعر والأدب التصويرى ولكن الأدباء والعلماء المبرزين من أمثال بطلميوس وهيرون (Hêrôn) أكسبوها شهرة ، وأخرجت الطائفة اليهودية مجموعة من الكتّاب النابهين من أمثال فيلون (Philo) ، وجذبت جامعة الإسكندرية إليها الطلاب لا من مصر وحدها بل من الأقطار الخارجية عبر البحر .

ومع ذلك فهذا الرخاء لم يستهو المواطنين الأحرار بالإسكندرية ويستميلهم إلى الاستكانة للحكم الرومانى ؛ فقد كانوا السبب فى خلق المتاعب الكثيرة لملوكهم المقدونيين ،ولكن الاستياء تملكهم لضياع مركز الإسكندرية باعتبارها مقراً للملك وعاصمة مملكة مستقلة . وعلى الرغم من أن بعض الأباطرة من أمثال جايوس (Gaius) المسمى كاليجولا (Caligula) ، ونيرون (Nero) كانوا يظهرون نحو تلك المدينة شيئاً كثيراً من العطف والتحيز ، فإن المواطنين الأحرار فيها كانوا يكنون للحكومة الرومانية عداء وضغينة مستحكمة طوال العصر الرومانى كله ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء ، ونظراً لأن اليهود قد احتفظوا بجميع امتيازاتهم وثبتهم أغسطس فيها ، بينما رفض ما طلبه السكندريون خاصًا بإعادة مجلس السناتو إليهم ، فإن ذلك العداء والخصام اتخذ فى الغالب طابع المناهضة للسامية : فكان أسلم عاقبة أن يصوب الهجوم نحو اليهود بدلاً من مهاجمة الرومان مباشرة . وقد عمّ الشغب وسادت المشاحنات فى أوكار اليهود وتكرر حدوث المعارك الحزبية .وكان يصحب هذا غالباً تدخل عسكرى من ناحية الجالية الرومانية وإيفاد الوفود من أحد الجانبين أو كليهما إلى الإمبراطور ،

ومن أمثلة ذلك ، تلك البعثة التى وصفها فيلون بمنتهى الروعة فى رسالته المسماة « بعثة إلى جايوس » (Legatio ad Gaium) ثم كان يؤدى الأمر أحياناً إلى محاكمات تجرى أمام محاكم الإمبراطور ويقدم إليها شخصيات بارزة من أحرار السكندريين . وقد نشأت مجموعة كاملة من الأدب القومى الذى يفيض وطنية ، ذاع انتشارها وأطلق عليها العلماء المحدثون أعمال السكندريين Acta) (Alexandrinorum أو « أعمال الشهداء الوثنيين وأخبارهم » نظراً لما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين وأخبارهم » من تشابه . وقد بولغ فى تصوير شجاعة الزعماء السكندريين وما أبدوه من أصالة الرأى فى هذه المجموعة الأدبية فتصوَّر هؤلاء الزعماء على أنهم يقاتلون قيصر مظهرين جرأة وشجاعة منقطعة النظير : فصاح رئيس الجمنازيوم فى وجه كلوديوس قائلا : « ما أنت إلا ابن لشالومة اليهودية (Salome) لفظته الأقدار » (٤٣) ، ثم يشير بمنتهى الاحتقار والازدراء إلى هيرود أجريبا (Herod Agrippa) وهو صديق للإمبراطور فيسميه « باليهودى الذى لا يساوى سوى فلس واحد » (٤٤) ، وفى مناسبة من المناسبات كان السكندريون الأحرار يحملون معهم تمثالا نصفياً لإلههم الراعى ، سيرابيس ، الذى نبأتنا الأخبار بأن العرق بض منه وأخذ يتصبب بأعجوبة أثارت فزع الرومان (٤٥) ؛ لقد بقيت ذكرى أولئك الشهداء محفوظة لدى السكندريين الأحرار لأمد طويل ، كما مجد المسيحيون ذكرى شهدائهم (٤٦) .

وكما شهدت الإسكندرية فى العصور البطلمية ترجمة الكتاب المقدس عند اليهود إلى اليونانية لتنتفع به طائفة اليهود المصطبغة بالطابع الهيلينى إلى حد كبير ، وكما ألف فيلون فى القرن الأول نظرياته فى الفلسفة اليهودية باللغة اليونانية وفق نموذج يحتذى من التأمل الفلسفى اليونانى ، فإن المدينة صارت على هذا النحو ، فى القرنين الثانى والثالث ، مركزاً للتوفيق إلى حد ما ، بين أفضل الأفكار وخير الآراء عند الوثنيين وبين عالم الفكر الناهض عند المسيحيين ؛ وإنها لحقيقة جديرة بالاعتبار أن « أناطوليوس » (Anatolius) أسقف لاؤديكيا (Laodicea) (اللاذقية) المعين فى سنة ٢٦٩م . يقع عليه اختيار السكندريين ، وهو

المواطن الحر والزميل لهم، كما يكون أستاذاً للفلسفة الأرسطاطالية فى الإسكندرية[٤٧].

وإلى جانب دار الفنون والحكمة (Museum) وما كان يسود فى محيطها من تعليم وثنى، نهضت وازدهرت المدرسة المسيحية الكبرى، التى تقوم بالوعظ والإرشاد وكان قد قام بتأسيسها پانتاينوس(Pantaenus)؛ ومن مفاخرها أنها أخرجت نجمين لا معين هما كليمان *(كليمنت Clement) وأوريجين (Origen)، والأول خرج عن الوثنية إلى المسيحية، وقد أوتى حظاً عظيما من سعة الاطلاع والمعرفة (ولعله كان شديد المباهاة والتفاخر بإظهار سعة علمه هذا)، فقام بدور هام فى المزج والتوفيق بين التعاليم الدينية التى جاءت بها المسيحية، وبين الثقافة اليونانية؛ وهو وإن كان من المسيحيين الغيورين ذوى العقيدة الصحيحة، وإن كان نصيراً للأخلاق القويمة إلى حد التزمت واتباع الصراط المستقيم، فإنه كان فى ذاته عالماً بكنه الطبيعة البشرية، فكان يبيح شرب النبيذ، بل إنه فعلاً انبرى للدفاع عنه، ولم يكن يحرم بتاتاً الإذعان لبعض مطالب الجمال ووسائل الترف فى الحياة الاجتماعية، بل إنه احتفظ حتى بعد اعتناقه المسيحية، بمحبته وشغفه بالأدب الكلاسيكى، وتبجيله لأفلاطون؛ وكان له ولعٌ خاص بالفكاهة والمرح وقد أوتى موهبة مكنته من حسن اختيار عبارات الهجو اللاذع؛ وإن إشاراته التى تنم عما يكنه من ازدراء وسخرية لبعض الكهنة الوثنيين من أنهم هم « الذين لا يقربون أبداً من الحمام ويسمحون بترك أظافرهم تطول حتى تبلغ درجة غير مألوفة، فيصبحون بذلك أشبه بالحيوانات المفترسة»[٤٨]، لتكشف عن محبته الشخصية للنظافة مما كان يبدو غريباً على أولئك النساك الذين امتنعوا عن الاغتسال وظهروا فى عصر متأخر بعد ذلك، وكانوا فى رأى فيلسوف كابى ساخر قوماً شاءوا فى واقع الأمر أن يضربوا المثل الحسى على « رائحة الطهر والقداسة، وهى تفوح »[٤٩]. أما أوريجين فعلى أنه كانت تنقصه سعة علم كليمان ومعرفته الوثيقة بالأدب اليونانى، فقد وهب عقلاً أرجح ومقدرة أعظم على تفهم المبادئ الفلسفية، وإدراكاً أدق لروح البحث العلمى وفكراً

* عدل المؤلف النص هنا بحذف كلمة قديس عند وصف كليمان.

امعن ابتكاراً ؛ وفى الحق أنه أوفى منزلة بين أعظم الشخصيات التى أخرجتها الكنيسة المسيحية . وفى ختام المطاف كما تركت الإسكندرية فى النصوص التى أخرجها المؤلفون الكلاسيكيون ، أثراً باقياً ، انطبعت به ، كذلك كان لها فى هذا التاريخ المتأخر اليد الطولى فيما قدمته من مساعدات كبرى فى سبيل المساهمة فى عمل عظيم هو إخراج نص معتمد للعهد الجديد ؛ أما التعرف على طبيعة هذه المساعدات ومداها على سبيل اليقين فلا يزال موضع نقاش وجدال ، ولكنها بلاريب عظيمة القيمة ؛ وإذا كان أوريجين قد أنجز فى قيصرية (Caesarea) وليس فى الإسكندرية ، ذلك التراث الرائع ، ثمرة الدراسة والبحث العلمى فأخرج الهيكساپلا * (Hexapla) ، فإنه شرع فى ذلك وقت أن كان مقيماً بالإسكندرية حيث كان من مواطنيها وفيها اكتسب من العلم والمعرفة ما مكنه من أن يتم هذا العمل الجليل .

وقد حدث تغيير شامل يسترعى الدهشة فى مركز حواضر الأقسام حوالى عام ٢٠٠ ** عندما أنشأ بها سپتميوس سيڤيروس (Septimius Severus)

* هذا أعظم عمل قام به أوريجين فى النقد ، بدأه قبل سنة ٢٣١ م وأتمه سنة ٢٤٣—٢٤٥م . وفيه أخرج فى ستة أعمدة الكتب الدينية الآتية فى صورها المختلفة .

(١) النص المصرى للعهد القديم (٢) نفس هذا النص مكتوباً بحروف يونانية (٣) ، (٤) ترجمتان يونانيتان لهذا النص قام بهما أكويلا (Aquila) وسيماخوس (Symmachus) (٥) النص السبعينى (٦) تنقيح لهذا النص قام به ثيودوتيون (Theodotion)

ولم يبق من هذا المؤلف العظيم الذى أخرجه أوريجين سوى قصاصات قليلة وقد أدى هذا المؤلف العظيم فى النقد إلى دخول أوريجين فى جدل ونقاش مع يوليوس أفريكانوس (أى الإفريقى) (Julius Africanus) وقد بقى الخطاب الذى بعث به أوريجين إلى أفريكانوس هذا . (المترجم)

** صحح المؤلف هذا الرقم فجعله سنة ٢٠٠ بدلاً من سنة ٢٠٢ وذكر فى تبرير ذلك أن سنة ٢٠٠ هى السنة التى زار فيها سيڤيروس مصر والإسكندرية . وقد أصبح من المسلم به أنه أحدث التغيير فى ذلك العام وإن لم يكن على سبيل التأكيد أن هذا تم فى ذلك العام بالذات ، وعلى أى حال فالأسباب التى كانت تساق فى تأييد سنة ٢٠٢ لم تعد منطقية ولا مقبولة .

انظر كتاب « الفتاوى والأحكام » (Apokrimata) وهى كما جاءت فى وثيقة بردية مشتملة على القرارات التى أصدرها سيپتميوس سيڤيروس فى شئون قضائية وضريبية ، اضطلع بنشرها والتعليق عليها العالمان « وسترمان » و « شيللر سنة ١٩٥٤ وقد أصدرت الكتاب جامعة كولومبيا بنيويورك وفى ص ٢٦ منه أشار وسترمان إلى تلك المبررات . (المترجم)

مجالس للشيوخ ، أو على الأصح مجالس بلدية ؛ وفى الوقت نفسه شهدت الإسكندرية تحقيق أمنية عزيزة طالما جاشت بخاطر أبنائها ، وذلك بتخويلها مجلساً مشابهاً ، ولو أن هذه المنحة إياها لا بد قد فقدت بعض رونقها الخلاب بعد العلم بأن حواضر الأقسام قد أصبحت تشارك الإسكندرية فى هذا الامتياز . على أن هذا الإجراء الجديد لم يكن له فى تلك الحواضر أية دلالة حتى على أنها قد وصلت به إلى مستوى الحواضر المتمتعة بكامل الحقوق البلدية ، فالقائد (stratêgos) كان لا يزال هو المسيطر من الناحية الإدارية على القسم ، وله الهيمنة على مجالس السناتو وعلى حاضرة القسم ، حيث اتخذ مقره الدائم فيها . ولم تكن هذه سوى صورة معدلة من صور الحكم الذاتى الخاصة بالبلديات ، مُنحَ لحواضر الأقسام . وهذه المنحة وإن صُورت بلا ريب على أنها ميزة وقُبلت فيما يبدو على هذا النحو ، فإنها كانت فى واقع الأمر عبئا إضافيا أُلقى على كاهل طبقة الأثرياء من سكان الحواضر ، وهى الطبقة التى كانت تمد مجلس الشيوخ بالأعضاء اللازمين له . وقد أصبحت هذه الهيئة مسئولة إذ ذاك عن الإدارة المالية فى حاضرة القسم . فلم يكن من واجبها أن تعين وتضمن تبعاً لذلك ، موظفى الحكومة فى حاضرة القسم فحسب ، بل كثيرين غيرهم ، ومن بينهم أولئك الموظفون المستحدثون المكلفون بالإشراف على مخازن « شئون » الغلال وهم الديكابروتوى (dekaprôtoi)[٢٥] * ، ويقوم عمل هؤلاء على الإشراف على جمع وخزن المتحصل من ضريبة الغلال ، كما كانت مجالس الشيوخ المحلية مسئولة عن الإشراف على مالية المعابد ؛ على أن هذه المسئولية التى اضطلع بها الأعضاء كانت جماعية : فكل عضو فى لجنة من الموظفين أو فى مجلس شيوخ كان يعتبر مسئولاً ، لا عما يصدر عنه من تقصير فحسب ، بل عن

---

* الديكابروتوى موظفون حلوا محل خزنة الغلال ورؤساء الشون الذين كانوا يعرفون باسم (sitologoi) بعد إلغاء الوظيفة الأخيرة بفترة من الزمان ، ارجع إلى المقال المنشور للمترجم وعنوانه Sitologia in Roman Egypt فى المجلد الرابع من مجلة Journal of Juristic Papyrology, Warsaw ثم مقال مماثل فى مجلة مؤتمر البردى العالمى الثامن المنعقد فى ڤينا سنة ١٩٥٥ . (المترجم)

نقائص زملائه وتقصيرهم ثم عن المجلس الذي ينتمي إليه ؛ ونظراً لأنه من المحتمل أن ينضوي في عضوية مجلس الشيوخ ، أشخاص لم ترد أسماؤهم من قبل في سجل من كانوا عُرضة لأن يكلفوا بتولي الوظائف[٥١] ، فإن العبء المالي كان موزعاً بطريقة أشمل وأعم ، وإن لم يكن مع ذلك أقل سحقاً لأولئك الذين ساهموا بالاشتراك فيه . وكان رفض تولي إحدى الوظائف أو قبول عضوية مجلس الشيوخ ، أمراً لا مسوغ له إلا عن طريق ما يسمى بالتخلي عن أملاكهم (cessio bonorum) وذلك بالتنازل عن ثلثي ثروة المرشح[٥٢] . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن استحداث مجالس الشيوخ كان خطوة حاسمة أدت إلى القضاء على الطبقة الوسطى « البورجوازية » ذات الطابع الهيليني .

وبعد ذلك بنحو عشر سنين حدث تغيير آخر — عندما منح « كاراكالا » (Caracalla) في سنة ٢١٢ م . الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية بمقتضى الإجراء المشهور المعروف بالدستور الأنطونيني (Constitutio Antoniniana) . وبالنسبة للمواطنين الجدد المتمتعين بهذا الحق في مصر قد يكون هذا المركز الرفيع مجلبة لقليل من الخير ، إن عُد ذلك خيرا ، فقد أصبح هؤلاء إذ ذاك عُرضة لدفع ضريبة تقدر بنسبة الخمس ($\frac{٤}{٢٠}$) على الإرث وأيلولة التركات ؛ وهي ضريبة معروفة ب (vicesima hereditatum) ، كانت تُجبى من المواطنين الرومان ولكن دون أن يترتب على ذلك الحصول على إعفاء من ضريبة الخراج الرأسي المقرر على المصريين ، وكان هؤلاء خاضعين للقانون المدني الروماني ، ولكن في واقع الأمر لم تكن الإجراءات القانونية المرعية ، حسبما يتجلى ذلك في الوثائق البردية ، قد اعتراها شيء كثير من التغيير على نحو ما كان متوقعاً ؛ فالقانون اليوناني المصري سبق أن تأثر بالقانون الروماني ، وأصبح بدوره إذ ذاك عاملا مؤثراً في طبع القانون الروماني بطابع خاص . وإن أوراق البردي المدونة بعد « كاراكالا » ، لتكشف في حقيقة الأمر عن وجود نظام قضائي غير متفق على الإطلاق مع تعاليم الفقهاء الرومان وسننهم بحال من الأحوال .

وكلما انقضى الوقت في القرن الثالث ، تزايدت أمارات الانهيار وعلامات

التدهور المحدق [٥٣] ، وذلك على الرغم من الميل إلى الألقاب الرنانة (ومن الأمثلة على ذلك « مدينة الأكسيرنخيين المجيدة ذات القدر العالى والمقام الرفيع »). ومشروعات البذخ فى تخطيط البلدان على نحو ما كان يضطلع بها حواضر الأقسام ، حتى أصبح شغل الوظائف العامة فى تلك الحواضر ، أمراً عسيراً ؛ وعلى مضى الزمان اشتد هذا العسر ؛ فازداد عدد المرشحين لكل وظيفة ، وخفضت مدة الخدمة فى تلك الوظائف ؛ وعلى ما نعلمه من خطاب رسمى مكتوب حوالى سنة ٢٨٩ م [٥٤] ، لم يتوافر لأكسيرنخوس على الإطلاق طوال فترة كبيرة سابقة على هذا التاريخ ، وجود موظف يقوم بعمل « يوثينيارك » فيها ، على أننا نسمع مراراً وتكراراً عن حوادث الهرب أو التهديد بالهرب تتردد على ألسنة أولئك الذين أكرهوا على أداء تلك الأعباء ؛ وكان أمراً مألوفاً إذ ذاك ، استخدام الإكراه فى إبرام عقود لإيجار أراضى الحكومة ؛ وتقوم الأدلة والبينة على إقفار الريف من السكان ؛ وفى بردية موجودة بالمتحف البريطانى أصابها شيء كثير من التلف والتشويه ، دليل واضح على الحالة القائمة فى منتصف ذلك القرن الثالث : إنه تقرير عن محاكمة تجرى أمام والى مصر أپيوس سابينوس (Appius Sabinus) ، وقعت فى أغلب الظن فى النصف الأول من عام ٢٥٠ م . [٥٥] ، فعلى الرغم من التحريم الذى أصدره سپتميوس سيڤيروس كانت السلطات فى أرسينوى (Arsinoë) ، حاضرة الفيوم ، قد عمدت مرة أخرى إلى محاولة إكراه القرويين على تولى الوظائف البلدية ، وقد اعترض القرويون على تمسك السلطات بهذا الحق ، وعرضت القضية أمام الوالى ؛ وقد أبرزت هيئة الدفاع عن القرويين قانون سيڤيروس وسأل الوالى هيئة الاتهام عما إذا كان فى وسعهم أن يذكروا شيئاً يؤيد الرأى المضاد ، فكان الجواب الذى أدلى به أحدهم على النحو التالى : « إن القوانين واجبة الاحترام والطاعة حقاً ، ولكن عليك عند نظر هذه القضية ، أن تتبع [القرارات؟] التى أصدرها الولاة الذين كانوا يرعون مصالح المدن ومطالبها ، فحاجة المدينة هى التى تحدد مدى تطبيق القانون » وفى مرحلة تالية من إجراءات المحاكمة ، عمد

الوالى مرة أخرى إلى مواجهة هيئة الدفاع عن حاضرة القسم ، بقانون سيڤيروس فكان الجواب كما يلى : « رداً على قانون سيڤيروس يمكن تفنيده على النحو الآتى : وقت أن سن سيڤيروس هذا القانون لتطبيقه فى مصر ، كانت المدن لا تزال فى رخاء ورفاهية » (فأجابه الوالى) : « إن الحجة القائمة على أساس الرخاء ، أو بالأحرى التدهور وزوال حالة الرخاء ، تنطبق على حد سواء على كل من القرى والمدن » . وبمعنى آخر كانت الأزمة الاقتصادية مستحكمة شاملة ، عَمّت جميع الأرجاء ، بل إن هذا العصر كان فى الحق غير مُوات بالنسبة لكل الإمبراطورية . فكانت الحرب الأهلية على قدم وساق ، لايخمد أوارها ، بتوالى ظهور المدعين ، واحداً تلو الآخر ، يطالبون جميعاً بالعرش الإمبراطورى وأبهته ، والقليلون ممن لا زمهم التوفيق فى الوصول إلى العرش ، احتفظوا بعروشهم مدة كانت تصل إلى عشر سنوات ، وكان المصير المحتوم كخاتمة لهذا الحكم ، هو الموت غيلة ؛ وفضلا عن الحرب الأهلية ، كانت الحرب الخارجية مشتعلة النيران ، فاجتاح البرابرة من التيوتون ، الأسوار والاستحكامات الشمالية فى الإمبراطورية وتوغل القوط فى أعماق بلاد اليونان، وقاموا بنهب أثينا ؛ وفى الشرق كانت الإمبراطورية الفارسية الناهضة على عهد الساسانيين ، خطراً مُسلطاً على الدوام ، حتى إن الإمبراطور ڤاليريان (Valerian) نفسه وقع أسيراً فى أيدى جيش فارسى ، وقد طوّح الوباء بأرواح عشرات الألوف من الضحايا وتركت الأرض فى كل مكان ، بوراً من غير زراعة ، وأدى الهبوط المستمر فى قيمة النقد إلى التضخم والارتفاع فى الأسعار بطريقة جنونية — وكانت هذه هى الأزمة الكبرى التى واجهتها الإمبراطورية وبدا أن السلطة الإمبراطورية كانت تعانى حشرجة الموت وتلفظ النفس الأخير .

وقد ذكرت أن الدستور الأنطونينى (Constitutio Antoniniana) لم يلغ ضريبة الخراج الرأسى ، وهذا أمر جلىٌّ واضح ، ولكنه من الجلى كذلك أن الدور الذى كان لضريبة الخراج الرأسى أصبح يسيراً فى شئون الاقتصاد فى مصر فى القرن الثالث ؛ وبعد منتصف ذلك القرن لا توجد إشارات مباشرة إلى

هذه الضريبة على الإطلاق ، بل إنه يندر جداً قبل ذلك التاريخ ، وجود مثل هذه الشواهد فى الوثائق من بعد عصر « كاراكالا » . وضريبة الخراج الرأسى — شأنها شأن غيرها من الضرائب التى لا تعد ولا تحصى مما تفيض به أوراق البردى من القرنين الأول والثانى — قد استعيض عنها بموارد جديدة للدخل ؛ وكانت ضريبة التاج إحدى هذه الضرائب ، وكانت فى أصل نشأتها من الناحية الإسمية هبة تقدم طوعاً واختياراً إلى الحاكم عند توليه العرش ، ثم أصبحت فيما بعد أشبه بالإحسانات وأعمال الجود التى كان يتقبلها إدوارد الرابع وغيره من ملوك الإنجليز فكانت فرضاً إجبارياً ، ثم آل بها الأمر إلى أن أصبحت تُجبى فى النهاية سنوياً ؛ وكانت ضريبة تدفع نقداً على الثروة العقارية وهى على عكس ضريبة الخراج الرأسى الذى كان يُحصل قيماً ثابتة ، فكانت فى أغلب الظن تتفاوت فى مقدارها كيما تفى بمطالب الساعة ومقتضياتها(٥٢) . بل إن أمر الضريبة السنوية المخصصة لأقوات الجند وجراياتهم (Annona militaris) كان أدهى وأمرّ ، لما كانت تنطوى عليه فعلاً من إكراه الناس على تقديم ما يلزم الجيش من موارد القوت ، وكانت نسبة النصيب العينى الذى يستولى عليه رجال الجيش فى ذلك الحين من رواتبهم ، آخذة فى الازدياد ، وقد تكون مطالبة الناس بتقديم هذه الأعباء والإلتزامات ضرورة يمكن اللجوء إليها عندما تمس الحاجة إلى ذلك ، وقد تصل إلى الحد الذى تتطلبه الضرورات الوقتية ، على أن هذا كان نظاماً ثقيل الوطء للغاية على كاهل دافعى الضرائب ولكنه ملائم لصالح السلطات المالية التى كان أفرادها ضامنين بأشخاصهم وأملاكهم عن الوفاء بالقدر المقرر من الضرائب كاملاً غير منقوص ؛ وكانت قيمة العملة آخذة فى النقصان ، ومعدل ضريبة الخراج الرأسى لم يزد نسبياً ، تمشيا مع الانخفاض فى القيمة الشرائية لذلك النقد ، وكان دافعو الضرائب بعد أن أثقلت كواهلهم ، عُرضة للهروب والتوارى عن الأبصار ، كلما أصبح مركزهم مدعاة لليأس والقنوط ، وكانت الموارد العينية أسهل بلا ريب فى مراقبتها وضمان الحصول عليها ؛ وفضلاً عن ذلك فإن الخراج السنوى (Annona) كان فرضاً مقرراً له طابع جماعى ،

وليس عبئاً مفروضاً على الأفراد مثل فريضة الرأس ، فإذا قصّر فرد من دافعى الضرائب ، فإن من اليسير أن يُطلب إلى الباقين من إخوانه أن يؤدوا عنه ، وهذا خير مما كانت عليه الحال فى الضريبة النقدية . ولا بد من التعقيب على ذلك بأنه كان فى المستطاع قبول النقد كبديل عن الموارد العينية فى الأحوال التى يكون فيها هذا الإجراء ملائماً * ؛ وتبدأ الإيصالات الخاصة بالخراج السنوى فى الظهور فيما لدينا من أوراق البردى فى عهد سپتميوس سيڤيروس ثم تأخذ فى الازدياد بكثرة مطردة طوال القرن الثالث .

وحتى فى الأوقات التى يعم فيها التدهور الاقتصادى ، يظهر عادة أناس عرفوا بالجرأة والإقدام ، وإذا ما توافر لديهم رأس المال الكافى ، استطاعوا أن يستغلوا تلك الأحوال الراهنة بتكييف أساليبهم وطرائقهم فى الاستغلال على حسب الظروف والأحوال المتغيرة(٥٧) . وتلك كانت الحال إذ ذاك ، ولدينا من منتصف القرن الثالث ، مجموعة شيقة من الوثائق المعروفة ببردى هيرونينوس(٥٨) (Hêrôninus) ، وهى أوراق رجل يحمل هذا الاسم ، وكان يعمل مندوباً أو وكيلا مهمته الإشراف على بعض الضياع الشاسعة فى ثيادلفيا (Theadelphia) (ومحلها بطن هاريت) بالفيوم ، وكان سيده الكبير شخصاً يُدعى أليپيوس (Alypius) ، ولعله لم يكن ذا صفة رسمية ، ولكن وردت إشارة إليه ذات مرة حاملة أحد ألقاب الشرف مما يقابل فى اللاتينية (vir egregius) ألا وهو الرجل ذو القدر الرفيع فهو إذاً من ذوى الحيثية والنفوذ ، أما السيدان الآخران فهما أپيانوس (Appianus) وكان قد شغل من قبل وظيفة مدير بلدية الإسكندرية (exêgêtês) ، وهيراقليديس (Hêraclidês) ، عضو الشيوخ والرئيس السابق للندوة الثقافية الرياضية بأرسينوى : وكان لأليپيوس هذا رهط كبير من الخدم والحشم والسكرتيرين والمندوبين ومن على شاكلتهم ، وكان صاحب ضياع شاسعة جداً فى مختلف أرجاء الفيوم . وسواء أكان هو وأمثاله ملاكاً للأراضى أم مجرد مستأجرين لأراضى الحكومة فالأمر لا يزال موضع خلاف ؛ وإنى

---

* انظر ما جاء فى وثيقة الفتاوى والأحكام (Apokrimata) لسپتميوس سيڤيروس سطر ٤٠–٤٤ وما أثاره المؤرخ وسترمان من تفسير وشرح لهذه الفقرة والظروف التى أوحت بذلك التنظيم . (المترجم)

شخصياً أميل إلى الأخذ بالرأى الأول ، ولكن الموضوع ليس بذى أهمية كبرى لأنه حتى على فرض أن هذه الأراضى كانت ملكاً للدولة ، فإنها كانت فى أغلب الظن مخصصة لأصحابها على أساس عقود إيجارية وراثية ، وتلك كانت إحدى الوسائل التى انتقلت بوساطتها أملاك الدولة إلى ملكيات خاصة فى آخر الأمر ؛ ويبدو أنه ليس هناك أدنى شك فى أن أليپيوس (Alypius) هذا كان فى واقع الأمر طليعة فئة من أولئك النبلاء العظام ذوى الأملاك والضياع الشاسعة ممن سوف نلتقى بهم فى العصر البيزنطى المتأخر . وقد أخذ يسترعى نظرنا من قبل ذلك ، بدء وقوع انقلاب عظيم فى نظام الأراضى ، فالريف المصرى كان له طابعه المميز فى العصر الرومانى وهو وجود مجتمع ريفى ، قوامه صغار مُلاك الأراضى بدرجة نسبية من ناحية ، ومستأجرون لأراضى الحكومة من ناحية أخرى ؛ وسوف نجد فى محيط الاقتصاد السائد فى القرن السادس ، أن أراضى الحكومة يكاد ألا يكون لها وجود على الإطلاق ، والأثر البارز الذى نلمسه هو لبلد قُسمت بين نبلاء شبه إقطاعيين وبين فلاحين نصف مُستعبدين ولعل بداية التطور الذى انتهى إلى هذا الوضع ، يرجع إلى القرن الثالث ، وإنا لنجد لا حتضار الإمبراطورية وما قاسته من أهوال صدى خافتاً فى تلك الأوراق الخاصة بهيرونينوس وهى التى تتناول شئوناً يغلب على طابعها المظهر الشخصى وصفة الشئون العاجلة . فكتب أليپيوس إلى هيرونينوس يقول : « بمشيئة الله توقع زيارتنا لك فى اليوم الثالث والعشرين ، وعلى ذلك ففى اللحظة التى تتسلم فيها خطابى ، استوثق من أن الحمام موقد وقد ألقيت فى ناره كتلٌ خشبية ، واجمع من الحطب كل ماتستطيع الحصول عليه كيما نحظى بحمام ساخن فى هذا الجو الشتوى وذلك لأننا قررنا أن نقيم بمنزلك ، وقد صحت عزيمتنا على تحقيق غرضين هما التفتيش على بقية الضياع وتنظيم العمل فى قسمك ، ولكن عليك بالإشراف على جميع مطالبنا الأخرى ومنها بوجه خاص أن تقدم خنزيراً سميناً لجمعنا ، ولكن عليك أن تستوثق من أنه سمين وليس بمعروق هزيل مثلما كان فى المرة السالفة ، وابعث بإشارة كذلك إلى صيادى السمك كيما

يزودونا بالسمك . . . واحرص كذلك على إحضار قدر كاف من الحشيش الأخضر وذلك كيما تجد دوابنا المجهدة كفايتها من العلف والغذاء » (٥٩).

وقد ينفع هذا الخطاب ، بل وعشرات مثله ، فى تذكيرنا أنه من وراء كل هذا العجيج والصخب الذى يصاحب الحرب والثورة والهزات الاجتماعية والاقتصادية التى يدونها المؤرخ فى سجلاته ، تجرى أوضاع الحياة على وتيرة واحدة ويُعنى فيها الرجل العادى بشئونه الخاصة ومعاملاته مع الناس وإقامة حفل سنوى عائلى وعشاء يعده للغد أكثر من انصرافه إلى الاهتمام بالمواقع الحربية النائية أو تتبع تطورات المجتمع وما يتمخض عنه من طراز للحياة .

مضى فى طريق – ترامى السكون   على جانبيه – بخَطو وئيد
وسار أخا مهجة حـرة   يُبيد القلاقل فيما يُبيد
ومن خلفه قد مشى عانيـاً   حصان عجوز يجر القيـود
ترنح فى الأرض من وَهنـه   وكاد على عُشبها أن يميـد
وقد عَلقت سِنة بالجفون   لفرط العناء الثقيل الشديد
وحولهما قد تعـالى الدخان   كثيب الظلال – كحظ العبيد
كذلك تمضى خُطا الكادحين   وتنساب أيامهم فى الوجود
ويبقى الجبابر والمـالكون   تِباعاً ، على كل عرش مشيد

وفى الخريف من عام ٢٨٤ ، وقع اختيار جيش الشرق على قائد الحرس الإمبراطورى ليكون مرشحه لتولى عرش الإمبراطورية ، وذلك هو ديوقليس (Dioclês) أو كما أطلق على نفسه فيما بعد ديوقليشيان (المعروف بدقلديانوس) وهو الذى أصبح إمبراطوراً إثر موت كارينوس (Carinus) ، وديوقليس هذا من أهل دالماشيا ، يمت إلى أصل وضيع النشأة ، كان جندياً مستوى البدن وإن لم يكن ممتازاً فى هذا السلك ، وكان سياسياً ذا أفق واسع وعقل راجح وخيال خصب وطبع حاد المزاج ، وكان العبء الذى ألقى على كاهله ثقيلاً والمهمة التى واجهته هائلة رهيبة وهى ليست بأقل من إنقاذ الإمبراطورية من التفكك والانهيار ، ولكن لم تكن تعوزه الشجاعة ولا المقدرة على الاضطلاع بها ،

وتمثل إصلاحاته إحدى المراحل الكبرى الحاسمة فى التاريخ ، وكانت الزعامة ويكنى عنها بكلمة (Principate) وهى السلطة الرادعة الحاسمة التى يتمتع بها مواطن روما الأول ، قد أخلت السبيل أمام السيطرة والاستبدادية ويكنى عنها بكلمة (Dominate) وهى الحكم الأوتوقراطى الذى يفرضه الإمبراطور المؤله ، ولكن بعض آثار ظل طفيف من الأوضاع الجمهورية كانت لا تزال باقية ؛ وكان قائماً على الأقل الادعاء بوجود تقسيم فى السلطات بين الإمبراطور والسناتو ، وبتولى دقلديانوس نصل إلى بداية الحكم المطلق ، بعد أن اكتملت جميع عناصره ومظاهره ؛ وإن كانت بيزنطة لم تصبح عاصمة الإمبراطورية إلا فى عهد قسطنطين العظيم ، فإننا ندخل فى العصر البيزنطى ؛ ونحن وإن كنا لا نزال فى نطاق العالم القديم إلا أنا بدأننا من قبل نشعر ببوادر تنذر بمقدم العصور الوسطى .

وقد استولى على دقلديانوس الشعور بثقل العبء الإمبراطورى الملقى على عاتقه فقرر أن يركن إلى زميل يعاونه . وكان النظام الذى ابتدعه عندما اكتملت معالمه ، يتضمن المشاركة فى الحكم بين إمبراطورين يحملان لقب أغسطس ويعاونهما مساعدان يقومان بولاية العهد ويسبغ على كل منهما لقب قيصر ، ولشدة حرصه على تجنب الخطر الدائم من تفشى الاضطراب الذى ينشأ من الأطماع التى تجيش بصدور حكام الأقاليم ، لما يتمتعون به من سلطات حربية ومدنية مشتركة ، ولشعوره فى أغلب الظن بأن مهام الحاكم وواجباته متعددة النواحى ومتشعبة بطبيعتها لدرجة لا تسمح له بأن يقوم بأدائها على الوجه الأكمل ، عمد الإمبراطور إلى إعادة تنظيم الولايات ، فألغى التمييز بين ولايات تابعة للسناتو وأخرى تابعة للإمبراطور ، وخفضت مساحة الولايات وتم الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية ، وضمت كل مجموعة من الولايات بعضها إلى البعض ، فأصبح يتألف منها وحدات كبرى تعرف بالأسقفيات (dioikêseis) ومصر التى كانت إلى ذلك الحين ، ولاية واحدة ، أصبحت تنقسم إلى ثلاث هى الإقليم الطيبى (Thebaid) ومصر الهرقلية (Aegyptus Herculia)

ومصر الجوبيترية * (Aegyptus Jovia) وتخضع كل من الولايتين الأوليين لحاكم يلقب بالرئيس(praeses) أما الولاية الأخيرة — وتشمل الإسكندرية — فكان يشرف عليها والى مصر(praefectus Aegypti) ، الذى كان يفوق فى سلطانه مرتبة رئيس الولايتين الأوليين ، وإن كان هو نفسه يخضع مثلهم لنفوذ « كونت » الشرق بأسره (Count of the Orient) الذىكانت مصر تابعة لأبرشيته ؛ وجميع هؤلاء الموظفين الثلاثة يتمتعون بسلطان مدنى بحت ، أما السلطة الحربية فتركزت فى يدى قائد مصر(Dux Aegypti) أو الدوق (Duke)

وقام دقلديانوس بعد ذلك . بإعادة تكوين النظام الضريبى على أساس الميرة السنوية (Annona) ولكنه نظم ووضع أسساً ثابتة لجباية الضرائب ومواردها وهى التى كانت إلى ذلك الحين ذات طابع خاص ولا يمكن التنبؤ به ، فكان يُعد فى كل عام بيان (indictio) تقدر فيه الحاجيات والمطالب اللازمة لذلك العام ويعين فيه النصيب المقرر على كل ولاية ويجرى إخطارها بهذا المقدار عن طريق إيفاد بعثة مكلفة بالمطالبة به (delegatio) ، على أن تقدير الضرائب الذى كان يجرى أول الأمر كل خمس سنوات ثم بعد ذلك كل خمس عشرة سنة ، كان يقوم فى أساسه على ما يمكن أن يسمى بوحدات الإنتاج ، أما الثروة العقارية فكانت مثل تلك الوحدة تسمى بالحصة أو المقطوعية (iugum) وهى قدر من الأرض الصالحة للزراعة ، يستطيع رجل بمفرده أن ينهض بزراعته ، وتختلف مساحة ذلك القدر تبعاً لجودة الأرض ، وعلى ذلك كانت تلك الحصة تبلغ فى سوريا عشرين أو أربعين أو ستين يوجرات ** (iugera) من الأرض الصالحة للزراعة أو خمسة يوجرات من الكرم أو ٢٢٥ من شجر الزيتون (وفى المناطق الجبلية يصل هذا القدر إلى ٤٥٠ شجرة) أما بالنسبة للكائنات البشرية فكانت الوحدة هى الرأس (caput) أو الفرد ، على

* (Jovia) جوفيا هذه نسبة إلى جوبيتر (Jupiter, Jove)

** عدلها المؤلف من أفدنة إلى يوجرات (iugera) ومفردها iugerum وهو فدان رومانى تبلغ مساحته ٢٨,٠٠٠ قدم مربع وهو يزيد على نصف الفدان الإنجليزى .

اعتبار أن المرأة تساوى نصف الرجل فى التقدير بحسب الرأس[٦٠] .

ونتيجة لهذه التغييرات ، حدث تبسيط عظيم فى ذلك النظام الشديد التعقيد الذى اتسم به طابع العصر الرومانى ، فتوارت إذ ذاك أغلب الضرائب المألوفة فيما لدينا من وثائق بردية ترجع للعصر الأول ولم يعد لها وجود فى وثائق ذلك العصر ، ولحسن الحظ قد حفظت لنا بردية كشف عنها منذ أمد قصير ، القرار الذى أصدره والى مصر « أريستيوس أوبتاتوس » (Aristius Optatus) مُعلناً فيه ذلك الإصلاح بقوله :

« إنه قد بلغ مسامع الإمبراطورين دقلديانوس وماكسيميان ، الحكيمين المدبرين ، الجليلين ذوى القدر الرفيع (Augusti) ويعاونهما قسطنطين وماكسيميان (Maximian) القيصران البالغان أسمى مراتب الشرف — أن تقديرات الدخل العام قد آل بها الأمر إلى أن أصبحت غير موزعة توزيعاً عادلا حتى إن بعض الأفراد سمح لهم بأن يدفعوا قدراً ضئيلا من الضرائب بينما البعض الآخر أثقلت كواهلهم بأعبائها ، فرئى من الخير أن يجتث هذا النظام الأثيم البالغ أشد الضرر ، وذلك لصالح رعاياهم من سكان الولايات والأقاليم بإقامة قاعدة سليمة تصلح أساساً توزع بمقتضاه القيم المستحق دفعها من الضرائب ، وعلى ذلك فإنى أعلن على الملأ القيمة المفروضة على كل أرورا (أى الفدان اليونانى) بحسب جودة الأرض وطبيعتها ومقدار الخراج المستحق على كل فرد من سكان الريف مع تعيين الحدين الأدنى والأقصى للسن التى تستحق أن يفرض عليها هذا الالتزام ، وذلك طبقاً للمرسوم السامى الذى أذيع على الناس والموجز المرفق به »[٦١] .

ومن هذا يتبين لنا أن كلا من الحصة ، أو المقطوعية (iugatio) وفريضة الرأس (capitatio) يمثل وحدة الإنتاج العقارى والشخصى على التوالى ، وقد حسب لكل منهما حساب ، وسوف نرى فى الفصل التالى ما يتمخض من نتائج عن مستحدثات دقلديانوس .

الفصل الرابع

العصر البيزنطى

إن إصلاحات دقلديانوس التى جاء وصفها فى الفصل السابق أحدثت تغييراً شاملاً فى جوهر الطراز الإدارى الذى كان مرعياً فى مصر ، فأصبحت البلاد غير مؤلفة إذ ذاك من ولاية واحدة بل من ثلاث ، وكان هناك فصل تام بين السلطات المدنية والحربية ، ووضعت قواعد جديدة لنظام جباية الضرائب وللأساليب التى تراعى عند تقديرها ، ومع ذلك فهناك أمر واحد لم يعتره تغيير فى أول الأمر ، فاحتُفظ بنظام « النوم » القديم ، وكانت منزلة حواضر النومات لا تزال فى حاجة إلى استكمال الحقوق البلدية . وكان اتخاذ الخطوة الأخيرة فى سبيل منحها الحقوق البلدية قد تم عقب اعتزال دقلديانوس (فى أول ما يو سنة ٣٠٥) وذلك فى تاريخ غير معروف على سبيل التأكيد ، يقع بين ٣٠٧ و ٣١٠ ؛ وبفضل هذا الإجراء لم يعد « النوم » هو الوحدة الإدارية وباختفائه توارت وظيفتا الحاكم المعروف بالقائد (strategos) وذلك على الأقل فى صورته القديمة والكاتب الملكى * ، فأخذ إذ ذاك مجلس السناتو يضطلع بكامل المسئولية فيما يختص بكل من الشئون المالية والإدارية العامة ، وتحولت مصر من بلد مؤلف من نومات ، لكل منها حاضرته التى يشرف عليها الحاكم (القائد) ، إلى كيان عناصره مدائن (civitates) أو بلديات تتمتع بالحكم الذاتى ، لكل منهما منطقته الريفية وهى أرضه (territorium) أو ما يسمى باليونانية (enoria) . وقد انقسمت هذه الأرض التى كانت فى العادة تطابق محيط « النوم » القديم (مع ما طرأ عليها من بعض التغييرات والتنظيمات) ، إلى أحياء وبنادر مرقمة تسمى (pagi) تطابق الأقسام الصغرى التى كان

* وكان هذا الكاتب يعرف فيما مضى منذ العصر البطلمى بالكاتب الملكى (basilikogrammateus) وكان الساعد الأيمن للقائد أو الحافظ ، حاكم « النوم» وهو الحفيظ على جميع السجلات . (المترجم)

يشتمل عليها « النوم » فيما سلف وكانت تعرف بالتوپاركيات ويصح مقارنتها بالأقاليم الريفية (فى إنجلترا وويلز الآن) ، وكان يتولى الإشراف على كل حى أو بندر (pagus) من الناحية المالية ، رئيس له الهيمنة عليه ويسمى (praepositus) وهو خاضع فى الوقت نفسه لموظف آخر له صفة بلدية وهو الرئيس الجابى (exactor) ووظيفته حديثة النشأة وقد آلت إليه الاختصاصات المالية التى كانت للحاكم أو القائد (strategos) بينما انتقلت إلى رئيس مجلس السناتو وكان يطلق عليه(propoliteuomenos) ، بقية الاختصاصات والأعباء التى كان يباشرها الحاكم أو القائد ؛ وقد أدى التطابق الجزئى بين أعباء ذلك الرئيس الجابى (exactor) وبين مهام القائد إلى إطلاق لقب القائد فى بعض الأحيان على ذلك الرئيس الجابى ، ولكن هذا كان لا يعدو بقاء أثر للقب متداول ، ولعله فيما بعد ذلك وإن كان على وجه التأكيد قبل سنة ٣٣٦ ، استحدثت وظيفة أخرى تولاها موظف يعرف بالحامى (defensor) الذى كان أول واجب عليه يقتضى حماية الفقراء والمعوزين من السكان من طغيان الموسرين وظلم الأغنياء ، فيكفل للوضعاء (humiliores) حقوقهم قبل القادرين الرافلين فى بحبوبة من العيش (potentiores) .

وكانت النتيجة الخالصة من جراء هذه التغيرات تحقق قسط من التجانس والانسجام بين مصر وبين سائر ولايات الإمبراطورية ، هو أكبر مما عرفته مصر من قبل ، ولو أن العوامل الجغرافية وغيرها كانت لا تزال تقضى بقسط معين من الاختلاف والمفارقة . وفى الحق كان الطابع الأساسى فى سياسة دقلديانوس والمقصد الأسمى الذى استهدفه هو إيجاد التنسيق والتوحيد مع التبسيط فى النظام الإدارى ، وبذلك تتوطد قوى الإمبراطورية . ومن أجل تحقيق هذه الغاية ينسب إجراء آخر كان من شأنه أن يترك طابعه على ما لدينا من وثائق بردية ؛ ألا وهو إدخال اللاتينية بوصفها اللغة الرسمية حتى فى الولايات التى كانت اليونانية تحتل فيها إلى ذلك الحين مركز الصدارة مثلما كان الحال فى مصر . ولكن التغيير الفعلى كان طفيفاً فبقيت اليونانية اللغة الأساسية المرعية فى

المحاكم وفى المصالح الإدارية وفى التصريحات الرسمية والإعلانات العامة..، والنتيجة الأساسية لهذا الوضع الجديد المشاهد فيما لدينا من سجلات ، هو أن التقارير الرسمية فى قضايا المحاكم أصبحت إذ ذاك تصاغ فى قالب لاتينى وأعنى بذلك أن العنوان والتاريخ والموضوع المرتبط بذلك كان يصاغ بتلك اللغة ؛ وفى بعض الأحيان كذلك كانت تصدر بهذه اللغة ملاحظات الحاكم العام نفسه بينما بقيت أقوال كل من الطرفين والشهود والدفاع وغالباً القاضى رئيس الجلسة ، على ما كانت عليه ، فتصدر باللغة اليونانية . وطرأ تغيير آخر اقتضى العدول عن استخدام سنى حكم الإمبراطور فى الفقرة المخصصة لتأريخ الوثائق القانونية والاستعاضة عن القنصلية بذكر التاريخ المعروف باسم الدورة (indiction) أعنى السنة الدالة على دورة طولها خمسة عشر عاماً من فترات تقدير الضرائب[1] . واستمر هذا الإجراء مرعياً إلى أن ألغى چستنيان القنصلية ، و بعد ذلك أعيدت التواريخ الدالة على سنى حكم الأباطرة . وقد نجم عن سياسة دقلديانوس نتيجة أخرى تلقى منا الترحيب وهى بقاء أوراق عديدة من البردى اللاتينى ترجع إلى العصر البيزنطى فى وقت أصبحت فيه المعرفة باللاتينية كسباً ومؤهلا مرغوباً فيه بالنسبة لأولئك الذين يطمعون فى تسنم سُلَّم الترق .

ومما لا ريب فيه أن الرغبة فى الربط والتوحيد كانت أحد الدوافع فيما يعتبر الآن من بين إجراءات دقلديانوس ، أكثرها ذيوعاً وانتشاراً ، ألا وهو اضطهاده للمسيحيين . وإن الوشائج التى كانت تربط وتؤلف بين أجزاء إمبراطورية مترامية الأطراف تنتظم كثيراً من شعوب وأجناس مختلفة بعضها عن بعض فيما لها من تراث ماض ولغة وثقافة ، تقوم على اعتناق الجميع للدين الرسمى للدولة والتزالهم قواعده ومناسكه . والمسيحيون برفضهم المشاركة فى الطقوس الوثنية ، كانوا عنصراً أجنبياً غير مندمج ولا متسق مع هيئة المواطنين الأحرار ؛ فمن الطبيعى إذاً أن تُتخذ السبل والإجراءات الكفيلة بإدماجهم ومزجهم أو إقصائهم ونبذهم ، ومع ذلك فيبدو جلياً أن دقلديانوس لم يكن الداعى إلى ذلك الاضطهاد الكبير ، ولم يكن صاحب فكرته الأولى ، وإن

كان هو الذى أمر به ، فإنما فعل ذلك على مضض شديد منه وتحت ضغط شديد من القيصر جاليريوس (Galerius) ، وبشرط صريح بألا تسفك فيه أية دماء . وكان اشتعال الحرائق فى القصر الإمبراطورى — وهو الحادث الذى يشبه حريق الريخستاج * (Reichstag) من حيث اختيار الوقت الملائم لارتكابه وما صاحب ذلك من ريبة ، سبباً دعا إلى تضييق الخناق على المسيحيين واتخاذ إجراءات عنيفة ضدهم ثم تلا ذلك انتهاز جاليريوس للفرصة السانحة وقت أن أصيب دقلديانوس بمرض خطير فاستصدر مرسوماً جديداً فرض بمقتضاه عقوبة الإعدام ، بل إنه قيل إن اعتزال دقلديانوس لم يكن بعيد الصلة بما كان يظهره هذا الإمبراطور من السخط وعدم الرضا عما هو جار[٢]. وعلى أى حال فإن المعركة قد التحمت إذ ذاك وقدر لها أن تكون معركة استمات فيها المتخاصمون حتى الفناء ؛ فحطمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة والدينية ، ووقع الكثير من ضروب التعذيب إلى درجة الاستشهاد . وكان هذا الاضطهاد أعظم ما قاساه المسيحيون إلى ذلك الوقت حتى إن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لا تزال تؤرخ الحوادث بعهد دقلديانوس أو عهد الشهداء .

وقديماً قال ترتيليان (Tertullian) إن دم الشهداء هو الينبوع الذى نبتت منه الكنيسة [٣] ، وقد صدق هذا القول فى هذه المناسبة كذلك . ومن المحتمل جداً أنه فى عالم سقيم ، متعطش للتأييد والمعونة الروحية ، كان كل استشهاد يجلب مهتدين جدداً ، يسارعون إلى اعتناق تلك العقيدة التى دفعت الشهداء لإظهار مثل تلك الشجاعة . وعلينا أن نذكر كذلك أن الكنيسة لا تحتفل بذكرى الشهداء فحسب بل وبالمعترفين ، والمعترف هو من يبدى الاستعداد من الرجال أو النساء بقلب وجنان ثابت لمواجهة احتمال الموت وإن لم توقع عليه فعلاً عقوبة الإعدام . وقد قتل مئات ولكن كان هناك آلاف اكتفى بزجهم فى غياهب السجون أو بنفيهم إلى أماكن نائية فى أقاصى الإمبراطورية ،

* حريق حدث فى ألمانيا الهتلرية فى مبنى مجلس السناتو ببرلين قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية وأعقبه اضطهاد اليهود . (المترجم)

فحملوا معهم أمثلة تحتذى وعبرة كسبوا بها أنصاراً اعتنقوا الدين المسيحى . وعلى ذلك فالإجراء نفسه الذى قصد به اجتثاث « وباء » المسيحية من منبتها ساعد على انتشار العدوى فى نطاق أوسع . وإذا حكمنا بما فى أوراق البردى من بينة فإن مصر فى سنة ٣٠٠ ، مع أنه كان بها عدد كبير جداً من المسيحيين ، كانت لا تزال فى مجموعها بلداً وثنياً ؛ وما وافى عام ٣٣٠ حتى بدا أنها كانت قد أصبحت وقد غلب عليها الطابع المسيحى . والمرجع فى بعض هذا التغيير بلا ريب ليس إلى الاضطهاد ، بل إلى وقف الاضطهاد والعدول عنه ؛ ففى الثلاثين من أبريل عام ٣١١ أمر جاليريوس — وكان قد أصيب بمرض كريه — بوقف هذا الاضطهاد ، واستغاث بالمسيحيين أن يدعوا له بالشفاء فى صلواتهم ، فقاموا بالصلاة من أجله ولكن لم تنفع شفاعتهم إذ لم يلبث جاليريوس أن مات بعدئذ ببضعة أيام .

وقد وقع بعض الاضطهاد بعد ذلك . ولكن مع وجود قسطنطين (Constantine) ، وما كسنتيوس (Maxentius) فى الغرب وميلهما إلى التسامح كان ذلك الاضطهاد غير متصل ، بل متقطعاً ، وغير عام شامل بل محلياً . ولما دبّ الشقاق بين قسطنطين وماكسنتيوس وأخذ قسطنطين يتأهب لخوض الحرب ضد خصمه ظهرت له فى سنة ٣١٢ الرؤيا المشهورة التى أبلغها بنفسه إلى يوسيبيوس (Eusebius) المؤرخ الكنسى وهى : صليب أمام الشمس ومعه الكلمات الآتية : « بهذا يكون لك النصر والفوز » "hoc vince" . ومن الطبيعى أن ينبرى عالم متشكك مثل سيك (Seeck) لرفض قبول هذه القصة على أساس أنها « محض افتراء بالطبع » واعتبار التغيير الذى طرأ على موقف قسطنطين راجعاً إلى دوافع سياسية بحتة . ولكن المؤرخ ، مهما سمت وعلت منزلته ، قد يوصف بالجرأة إذا حاول أن يفسر تاريخ القرن الرابع طبقاً للأسس المرعية فى المذهب العقلى الحديث ، ولا يوجد من الأسباب ما يكفى لتسويغ الشك بأن قسطنطين اعتقد بأنه شاهد رؤيا . ولو أن اعتبارات سياسية قد تكون هى التى أملت عليه اتباع سياسة التسامح ، فإننا بلا ريب لسنا

منصفين فى زعمنا بأنه ، وهو الذى كان من الأتباع المخلصين لعبادة الشمس التى لا تقهر (Unconquered Sun) ، لم يكن متأثراً بالآراء الدينية كذلك ؛ إنه كان بالتأكيد واثقاً من النصر لدرجة أنه غامر بنفسه على رأس قوات غير كافية دون أن يأبه بنصح قواده ، أو يعبأ بالتنبؤات التى أفضى بها مَنْ كان حوله من العرافين ، فغزا إيطاليا واندفع صوب حصن روما واستحكاماتها المنيعة التى كادت أن تكون عزيزة المنال . وقد حدث أن جنده خرجوا للقتال وعلى دروعهم الصليب فأبلوا بلاء حسناً فى موقعة « الجسر الملوى » (Milvian Bridge) التى أكسبته السيطرة على الغرب [٤] . وفى سنة ٣١٣ أعلن على الملأ هو وحليفه ليسينيوس (Licinius) بمقتضى شروط اتفاق أبرم فى ميلان ، مبدأ التسامح الدينى * ولما تحققت له هزيمة ليسينيوس فى سبتمبر عام ٣٢٤ ** ووجد قسطنطين نفسه إمبراطوراً لا ينازعه أحدٌ ، أصبح الطريق خالياً أمام المسيحية كيما تصبح الدين الغالب أول الأمر ، ثم الدين الرسمى الوحيد فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية من بعد ذلك .

وكتب دانتى يقول [٥] : « ويحك يا قسطنطين ! ! كم من الشرور والآثام لم يكن مصدرها تحولك إلى المسيحية واعتناقك إياها ، بل تلك المنحة التى أخذها منك الأب الأول الغنى » *** . وما هبة قسطنطين المزعومة التى أشار إليها « دانتى » إلا حديث خرافة ، ولكنه قد يتملكنا الشعور بأن نتائج اعتناق الإمبراطور للمسيحية لم تكن فى مجموعها ذات أثر طيب ، فقد أصبح اعتناق

---

* هذه الفقرة معدلة طبقاً للتصحيح الذى أشار به المؤلف .

** صحح المؤلف هذه السنة من ٣٢٣ إلى ٣٢٤ وجاء فى تبريره لذلك أن سنة ٣٢٤ أصبحت أكثر قبولا واحتمالا وأشار إلى مرجع هو موسوعة كمبردج للتاريخ القديم الجزء الثانى عشر ص ٣٢٤ . Cambridge Ancient History, vol. XII, p. 324 (المترجم)

*** قيل إن الإمبراطور قسطنطين لما نقل قاعدة الحكم إلى بيزنطة وهب الكنيسة فى شخص البابا سيلفستر (Sylvester) السلطة الدنيوية التى تخوله حكومة الغرب . ويستند هذا القول الذى أصبح فى مرتبة العقيدة إلى وثيقة مزيفة تعرف بهبة قسطنطين ، ولعل الأب الذى ورد ذكره فى هذه الوثيقة هو البابا سيلفستر . (المترجم)

المسيحية إذ ذاك لا يضمن السلامة فحسب ، بل من مقتضيات اللياقة والنمط الحديث . فسارع الكثيرون من نهازى الفرص إلى تأييد القضية الرابحة . وفضلاً عن ذلك فالكنيسة كانت حرة فى إشباع ما توافر لديها من ميل إلى الجدال اللاهوتى الذى كان من قبل يقض مضجع الكنيسة حتى فى عهد الاضطهاد ؛ والخصام الذى احتدم فى القرن الرابع والقرون التالية مع ما صاحبه من بغضاء وعداوات شديدة وما لابسه من أطماع ومنافسات شخصية والاستهتار فى أغلب خططه الجهنمية والتجرد من أصول المحبة المسيحية — كان كل هذا ينطوى على قصة غير بهيجة ، ولعله من قبيل التسامح أن نعتبر كل هذا بمثابة آلام النمو فى تطور الكنيسة وجهدها المضنى فى سبيل إخراج صيغة معنوية وفلسفية أملتها الخبرة الدينية القائمة على حياة وتعاليم شخص المؤسس ، وكانت الهرطقة مجرد محاولة فى الوصول إلى مثل هذه الصيغة التى قضى رأى الكنيسة بعد التمحيص برفضها . وحتى أولئك الذين ينكرون مذهب الوحى والإلهام لا بد أن يُسلموا على الأقل بما كان للكنيسة الأولى من قدر غير عادى من الذوق الحسن . ومعظم أنواع الضلال والزيغ الذى كانت تنكره الكنيسة وتحرمه كانت إما منعطفات خاصة لا مخرج منها أو أشكال بها أمارات دالة على الجنون .

ويتعين علينا أن ننسب إلى النوع الأول تلك الهرطقة الآرية التى كان لها هذا الشأن العظيم فى تاريخ مصر والإمبراطورية فى أثناء القرن الرابع ، وكان مؤسسها آريوس (Arius) ، شيخاً سكندرياً فى الكنيسة ، أما الخصم العنيد المتربص لها فهو القديس أثاناسيوس (St. Athanasius) من مواطنى مدينة الإسكندرية وأسقفها (bishop) طوال سنين عديدة ، ويجب التسليم بأن أثاناسيوس لم يكن أكثر الآباء الأولين محبة إلى الناس ؛ فكان قوى الإرادة متسلطاً طموحاً ، لا يطيق المعارضة ويضيق بها ذرعاً . ولست أعتقد أنه عمد إلى تزوير وثائق — ويشاركنى « سيك » هذا الرأى — بل وما أظن أنه كذب متعمداً على الإطلاق ، وإنما كانت الأساليب المنطوية على إخفاء الحق (suppressio veri) وإظهار الباطل (suggestio falsi) غير خافية عليه بالتأكيد ،

وكان بارعاً فى فن السباب وفاحش القول * . ومع ذلك فمما عدا القول بأن عيوبه كان يعادلها مزايا عظيمة جداً ، وأنه لان وأصبح أكثر تسامحاً كلما تقدمت به السن ، فالمؤرخ العادل لا يملك إلا أن يعترف بأنه فى مجموعه وبالقياس إلى مزاياه كان مستقيماً . وقد انقضت الأيام التى كانت فيها الوحدانية مثار نزاع بين المسيحى والوثنى . ومهما كان رأى الرعية من عامة الناس ، فالوثنيون المتعلمون كانوا فى الواقع وحدانيين يتحدثون عن « الله » بقدر يكاد يساوى المرات التى يتحدثون فيها عن « الآلهة » ولم تكن الآلهة إذ ذاك كائنات مستقلة بقدر ما هى أقنومات أو مظاهر معينة لقوة إلٰهية واحدة[٦] . والمسألة الحقيقية التى كانت مثار نزاع ومحور خلاف هى العلاقة بين الله والناس . وكلما أصبحت فكرة سمو الله مطبوعة فى مشاعر المتعلمين ومتغلغلة فى نفوسهم بينما زاد فى الوقت نفسه شعور الإنسان بالخطيئة والسقوط فى الرذيلة ، صار من الصعوبة بمكان أن نجد أى نقطة التقاء تكون بمثابة همزة وصل بين المتعبد والمعبود ، فابتدع سلم روحانى كامل ، وضعت به الأرواح على مراتب ودرجات يمكن أن يتحقق عن طريقها ذلك الاتصال ولكن بقيت مع ذلك ثغرة لا سبيل إلى رتقها ، وكانت الميزة الكبرى للمسيحية — وكدت أقول ورقتها الرابحة — فى اعتقادها فى التجسد وفى وجود مُخلِّص هو فى الوقت نفسه إلٰه وإنسان ، فهو « إلٰه بما فيه من جوهر الأب » وهو « إنسان بشر بما فيه من طبيعة أمه » وذلك بحسب ما أنبأنا به المذهب الأثاناسى (وهذا من قبيل الاستطراد وليس من تدوين أثاناسيوس) . وفى إنكار آريوس لجانب المشاركة فى الجوهر بين الابن والأب ، هدم لذلك الجسر الذى كانت المسيحية قد أقامته ليصل بين سمو الإلٰه وبين ضآلة الإنسان وتفاهة قدره . وعلى ذلك لما دوت الأوامر الصادرة من الإمبراطور ضد الأساقفة العصاة ، ولما انعقدت مجامع الكنيسة من أطراف الإمبراطورية ، ولما انبرت شخصيات كنسية عالية وأخذت تتبادل إصدار

---

* الإشارة هنا إلى لغة السباب والفحش المتداولة عادة بين السماكين فى حلقة السمك ومنها سوق « بليجزجيت » (Billingsgate) بلندن .

قرارات الحرمان بعضهم ضد بعض ، وأخذت جماهير المشاغبين تنهب الكنائس وتطيح برءوس الحزب المعارض ، أصبح السؤال المطروح على بساط البحث : هل المسيح هو من نفس طبيعة الإله (الأب) (homoousios) ولا هوته أو هو من طبيعة مماثلة لطبيعة الإله الأب* (homoiousios) . وكما كان الكثيرون من المشتركين فى هذا النزاع لا يقدرون إلا بمقدار ضئيل تلك الدقائق اللاهوتية التى كانت موضع الخلاف ، فإن هذا السؤال كان أبعد ما يكون ، على نحو ما أطلق عليه ، عن مجرد خصام دائر حول حرف واحد هو أصغر حرف فى الأبجدية اليونانية ** . ومهما كانت الأطماع ، سواء أكانت شخصية أم من أجل كرسى الإسكندرية ، هى التى كانت تحرك أثاناسيوس وتؤثر فيه (ومن ذا الذى يستطيع أن يفرق الدوافع المتشابكة التى تضطرم فى العقل البشرى ؟) ، فإنه نصب من نفسه مدافعاً عنها وكان على يقين من أنه يدافع ويُحاج من أجل مبدأ حيوى بالنسبة للعقيدة المسيحية . وقد تحمل وقاسى كثيراً ، وأغلب ذلك راجع إلى عناده وصلابة رأيه(٧) . وقد نفى ثلاث مرات ولكنه عاش حتى رأى النصر يتحقق لقضيته . وكان له فى مصر نفسها خصوم ، بعضهم آريون والبعض الآخر من المنشقين الميليطيين***

* ويتضمن المذهب الأول أن طبيعة الإله الابن هى نفس طبيعة الإله الأب ، وكان يدين به أثاناسيوس (Athanasius) وينادى به ، وأما المذهب الثانى فيتضمن أن طبيعة الإله الابن ولو أنها ليست هى بعينها طبيعة الإله الأب إلا أنها شبيهة بها ، وكان يدين به آريوس (Arius) ويدعو الناس إليه . (المترجم)

** ذلك هو حرف أيوتا (i) . (المترجم)

*** تنسب هذه الشيعة إلى ميليتيوس (Melitius) مطران أسيوط (ليكوبوليس : Lycopolis) ، إذ احتدم الخلاف بين ميليتيوس هذا وبين بطرس بطريق الإسكندرية سنة ٣٠٠ ؛ وهو الذى عمد إلى دعوة المطارنة للاجتماع فى الإسكندرية سنة ٣٠١ ، حيث قرروا خلع ميليتيوس ، وقيل إن مصدر الخلاف هو أن ميليتيوس اضطر تحت وطأة الاضطهاد الدينى الذى شنه الرومان على المسيحيين ، أن ينكر مسيحيته ويقدم القرابين للآلهة الوثنية ، ويبدو أن هذه التهمة كانت نتيجة الدعاية المغرضة التى روجها خصمه ، ولعل منشأ الخصومة هو التساهل الذى اصطنعه بطريق الإسكندرية فى معاملة المرتدين=

(Melitians) ، ولكنه كان يعتمد على العون والتأييد المطلق دون أى انحراف من جانب الغالبية العظمى من جمهرة الكنيسة المصرية .

وكان طابع تلك الكنيسة قد تغير كثيراً بظهور عامل جديد ألا وهو الديرية ، ويحيط الغموض بأصول الديرية (الرهبنة) وهى أهم معونة قدمتها مصر إلى تطور المسيحية وتقدمها ، وإنه لمن الخطورة بمكان أن نربط بين الديرية وبين ذلك النظام الشيق وهو التنسك والاعتكاف والاعتصام بحرم المعبد (enkatoché or katoché) ، وهو النظام المعروف فى عبادة سيرابيس والذى بمقتضاه ظهر نساك بطريقة يكتنفها بعض الغموض ، لعلها نتيجة رؤيا إلٰهية فى حلم ، فالتزموا خدمة ذلك الإله والاعتصام بداخل السرابيوم العظيم فى ممفيس أو بمكان آخر [٨] . ولكن ربما كان فى طباع المصريين نزوع دائم إلى الزهد والتقشف مما جعلهم يميلون إلى التنسك والانصراف عن الحياة الدنيا [٩] ؛ وحديثاً وجه الدكتور س. برادفورد ويلز (C.B. Welles) الأنظار إلى احتمال أن تكون طائفة وثنية جاء ذكرها فى نقش من پانوبوليس * ، قد هيأت صورة بها بعض القياس والشبه من الديرية المسيحية التى نشأت فيما بعد [١٠] . وقد كان بالطبع عنصر الزهد

= عن المسيحية أيام الاضطهاد ثم ثابوا إليها بعد زوال محنة الاضطهاد، وبما يرجح هذا القول ما نادى به ميليتيوس من إنكار قبول من سبق ارتدادهم عن المسيحية أيام الاضطهاد حتى ولو أعلنوا التوبة الخالصة.

وقد عمد ميليتيوس إلى تدعيم مركزه بعد أن قرر مجمع الإسكندرية خلعه ، بأن رسم المطارنة من أتباعه وبالغ إلى حد الاشتطاط فى عمله حتى وصل عدد من رسمهم إلى ثلاثين . وقد قرر مجمع سنة ٣٢٥ حرمان ميليتيوس من حق رسامة المطارنة مستقبلاً ، ولكن أتباعه قبلوا مطارنة بغير حاجة إلى إعادة رسامتهم ، وقد أذعن ميليتيوس لهذا القرار فى أول الأمر ولكنه عاد إلى رسامة المطارنة متحدياً قرار المجمع .

وكان آريوس (Arius) من أتباعه، فلما استفحل شأن هذا الخلاف اختلطت الشيعتان (الأريوسية والميليطية) وأصبحتا فى القرن الرابع شيعة كادت أن تكون واحدة ، ومن هنا نرى أن الشيعة التى بدأت بسبب الخلاف على النظام الكنسى آل بها الأمر إلى أن أصبحت فيما بعد خلافاً فى أصول العقيدة وصميمها . (المترجم)

* پانوبوليس محلها إخميم حالياً .

والتقشف فى المسيحية دائماً ، وقد أظهرت الكنيسة المصرية منذ بدء تاريخها استعداداً وميلا إلى التقشف والزهد (بالامتناع عن أكل اللحم وشرب النبيذ والزواج)* . ولعل مماله دلالته وأهميته أن الناسك الأول الذى وصل اسمه إلى سمعنا وهو القديس بولص من أهل طيبة ، كان من سكان الصعيد فى مصر ، وقد يلازمنا التوفيق مع بعض الاحتمال ، فى الاهتداء إلى وجود عقلية مصرية بحتة ظهرت من بين أسباب قيام حركة النسك والزهد . والإقليم الطيبى — كما قلت آنفاً — كان المعقل الرئيسى الذى اعتصمت به القومية المصرية كما كان منبع العبادات الكهنوتية التى كانت لسان حال تلك القومية وطابعها المميز . وبفضل موقعه النائى عن عالم البحر المتوسط المتأغرق ، وقد آوى سكانه إلى المعيشة فى واديهم الضيق الذى كان يلم شملهم بين أسوار وحواجز صخرية تصد عنهم جماعات وأحلافاً لا حصر لها من سكان الصحراء ، احتفظ سكان هذا الاقليم الطيبى لمدة أطول من غيرهم ، بذكريات قديمة ومخاوف كمينة وخرافات دفينة كانت نسياً منسياً فى غيره من الأقاليم. وشيعة البروتستنت وأصحاب المذهب الارتيابى فى العصر الحديث أميل كثيراً إلى اعتبار « الديرية » عنواناً على الفرار المنطوى على الجبن ، من العالم وما به من أعباء ومسئوليات . وقد يكون الأمر فى أحوال كثيرة لا يعدو ما كان يحدث من ذلك فى عصور تالية ، وقد لجأ بولص من أهل طيبة ، مثله مثل غيره ، فى بادئ الأمر إلى الاعتصام بالصحراء كملاذ للفرار من اضطهاد « ديكيوس » ولكن النساك الأولين قد يهولهم ويستولى عليهم الذعر والاشمئزاز لمجرد الفكرة بأنهم كانوا من الفارين الهاربين وإنما كانوا على النقيض ، يذهبون لملاقاة العدو (وهو الشيطان) فى موطنه ومستقره ، فالصحراء منذ أقدم العصور كانت تعتبر موطن الأرواح الشريرة ، ومنطقة نفوذ الإله سيت (Seth) عدو أوزيريس (Osiris). وعندما كان ناسك يتخذ من الصحراء له مقاماً فإن فى عمله هذا مخاطرة لاقتحامه

* الأنكراتيتيون (encratites) هم إحدى الشيع المسيحية الأولى التى تنادى بمذهب وتعاليم قوم نبذوا أكل اللحم وشرب النبيذ وأحجموا عن الزواج .

نفس المعقل الذى به العدو ، وخوضه المعركة بمفرده تماماً سوى ما يلقاه من عون إلهى ، ضد قوات الجحيم وزبانيتها ؛ فهناك فى تلك الخلوات الرهيبة حيث تسلط الشمس أشعتها ووهجها الشديد نهاراً فتلفح الصخور وتتلألأ ساطعة على الرمال بضوئها الوهاج ، وبالليل تبعث النجوم من سماء صافية إلى ظلام الصحراء الدامس، بضوئها الساطع الثلجى . فى وسط هذا المحيط ، كان النساك يصارعون جميع قوى الشر . وقد يجد العالم النفسانى الحديث فى هذه المعركة التى كان النساك يخوضون غمارها ، كفاحاً داخليًّا ضد شهوات الجسد وملذاته والإغراءات الخبيثة الخفية التى تتملك العقل وتستهويه . وإنما كان الخصوم فى هذه المعركة فى نظر النساك أنفسهم والمعجبين بهم شياطين جهنم تبدو للعيان وتلمس ؛ وعلينا أن نتذكر أنهم فى تلك الوحدة والعزلة المنطوية على الأثرة ، لم يكونوا يحاولون مجرد الخلاص لأرواحهم بالذات وإنما كانوا يصلّون بقوة واهتمام من أجل غيرهم ، فكانوا — على حدقولنا — بمثابة قوات الانقضاض المباغتة فى طليعة جيش الكنيسة المحارب ؛ وكانت صلواتهم هى السلاح الماضى الفتاك فى ذلك الكفاح الطويل ضد قوى الظلام . ولدينا أدلة وافرة على المدى الذى كان يذهب إليه أولئك الذين كانوا فى حاجة إلى شفاء روحى أو جسمانى ، فى التوسل إلى أولئك النساك . ولنضرب لذلك مثلاً ، إنه يوجد بالمتحف البريطانى مجموعة شيقة من الخطابات البردية معنونة باسم أحد نساك القرن الرابع وهو پافنوتيوس (Paphnutius) ، وقد جاء فى هذه الخطابات أن أناساً من مختلف الطبقات يطلبون منه الصلوات [١٢] ، فكتب شخص يسمى آمونيوس (Ammonius) يقول : « إنى أعلم علم اليقين دائماً أنه بفضل صلواتك الطاهرة سوف أنجو من كل حبائل الشيطان ونزواته ومن كل حيل الناس وأساليب مكرهم ، والآن أتوسل إليك أن تذكرنى فى صلواتك الطاهرة ؛ لأنك بعد الله ملاذى وبيدك خلاصى [١٣] » . وتقدمت امرأة تدعى ڤاليريا (Valeria) بمطلب تقول فيه : « إنى أبتهل إليك راجية ، أيها الأب المبجل للغاية ، أن تطلب لى (العون ؟) من المسيح ، وذلك كيما أحظى بالشفاء ، وعلى ذلك فإنى آمل بفضل صلواتك أن أفوز بالشفاء لأنه

على أيدى الزهاد والنساك والعُبَّاد ، تحدث المعجزات وتقع الرؤيا ؛ وذلك لأنى مصابة بمرض شديد ينتابنى فى شكل ضيق أليم فى التنفس ، وهكذا كانت عقيدتى ولا تزال توحى إلى بأنه إذا صليتَ من أجلى، سوف يتحقق لى الشفاء»[١٤] ويقول مقدم ملتمس آخر حلَّ به المرض ويطمع فى صلاة شفاعة : « إنه فى الحق لعذاب أليم ألمّ بى الآن ، فلم تُجدِ معه أية مساعدة فعالة ، من أخ أو من أى شخص آخر ، وإنما الأمل الوحيد هو ما أنتظره أن يتحقق على أيدى السيد المسيح ، بفضل صلواتك »[١٥]. وأخيراً جاء فى خطاب بديع الصيغة من شخص يسمى أثاناسيوس ، ولعل فى الإمكان تصوره ، وإن كان ذلك بعيد الاحتمال ، إنه هو نفسه الأسقف العظيم لمدينة الاسكندرية ، حيث نجد العبارات الآتية : « لأن الصلوات التى تقدمها تذهب فى علياء السموات نظراً لما تحظى به من محبة وقداسة ووفقاً لما تطلبه فى صلواتك الطاهرة سوف تصلح أحوالنا ونحظى بالتوفيق * »[١٦] . وبفضل ما أظهره النساك من ضروب الشجاعة وآيات التقشف والاخشوشان كسبوا إعجاب الجميع فاقتدى بهم آلاف الناس ووفد رجال من أقصى البلاد ، من إيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال لمشاهدة أولئك الأبطال المجاهدين من أتباع المسيح والتحدث إليهم ، ومن حول أشهر النساك وهو القديس أنطونى (St. Anthony) ، نشأت جماعة قليلة ، وقبل منتصف القرن الرابع أسس باخوميوس (Pachômius) نظامه وشريعته ، وعلى ذلك أصبح فى واقع الأمر أبا الديرية الجماعية . وكان هذا أبرز نوع مألوف فى الغرب ، ولو أنه ظهر هناك كذلك نســاك بكثرة لا بأس بها ، ولكن المسيحية فى الشرق احتفظت لحياة العزلة بمركز فى غاية الأهمية لأمد طويل ، وذلك إلى جانب قيام الجماعات المنظمة .

وإن الشدائد البالغة حداً يفوق التصور مما كان يلقاه كثيرون من أولئك

* ورد هذا الخطاب فى البردية رقم ١٩٢٩ المنشورة فى كتاب للسير هارولد بِل عنوانه Jews & Alexandrians ..... 1924, pp. 115-120. (المترجم)

النساك من أمثال القديس سمعان العمودى (المعمدان) * (St. Simeon Stylites) قد يستأهل الإعجاب حتى من أولئك الذين لا يكنون أى ميل إلى مُثلهم العليا، وما علينا الآن إلا أن نلقى لمحة على الأقوال المأثورة عن هؤلاء الآباء (Apophthegmata patrum) حتى نقف على ما أوتيه بعض هؤلاء من عمق البصيرة روحياً وما بلغوه من الحكمة خلقياً. ولكن أى عالم بالطبيعة البشرية قد يرى فى نشأة الديرية وتطورها فى القرن الرابع حتى فى خير صورها نعمة تشوبها شوائب كثيرة ؛ فمن ناحية كان معناها انسحاب آلاف من الناس من معترك الحياة، وهؤلاء فى الغالب كانوا من القوم الذين أوتوا قوة جسمانية خارقة وعزيمة ماضية ، وهذا فى نفس الوقت الذى كانت فيه سلامة الإمبراطورية مهددة بأشد الأخطار من جراء النقص فى الرجال ، وكان معناها كذلك تضييقاً شديداً فى نطاق جهود الناس ومحيط نشاطهم وفقر مريع فى الحياة الثقافية . وبدراستنا لسجل مصر البيزنطية ، نستطيع أن نتتبع بجلاء هذا التحديد والتضييق فى الأفق بصورة متزايدة وذاك الجمود فى العقل والتيبس فى الشرايين الفكرية ، بل إننا نجد فى الحياة الجارية لأثاناسيوس أمارات تنذر بالسوء وتهدد بالخطر الكامن فى ذلك التأييد المستمد من أسراب الرهبان الجهلة المتعصبين ، وما لبث هذا الخطر أن أصبح واضحاً تماماً للعيان فيما بعد ، وكان أولئك الرهبان هم الذين أثارهم البطريق كيرلس (Cyril) للهجوم على يهود الإسكندرية وطردهم من تلك المدينة ، وهم الذين قتلوا بعد ذلك ببضع سنين قلائل ، فى عام ٤١٥ ميلادية ، المرأة النبيلة ، الفيلسوفة هيباشيا ** (Hypatia) ؛ ونشاطهم مسطور ملحوظ فى كثير من سجلات الحوادث التالية .

قد وُفق كليمان (Clement) ، وأوريجين (Origen) فى تأهيل الفكر اليونانى وزفه إلى الخبرة المسيحية ، فأظهر الأول أن فى وسع المسيحى الصادق أن

* كلمة (stylites) معناها العمودى ، الواقف أو القائم على عمود وإليه تنتسب فئة نصرانية من النساك كانوا يعيشون لبضع سنين فوق العمدان اقتداءً بما فعله سمعان العمودى . (المترجم)

** هيباشيا — امرأة من أعلام المتحف ، دافعت عن الفلسفة الوثنية ضد المسيحية . (المترجم)

يتذوق من الأدب اليونانى قسطاً وافراً ويوليه من التقدير والمحبة ما هو أهل له ، ولكن الديرية « الرهبانية » المصرية ناصبت العداء للهيلينية بوجه عام وخاصمت كل صورة من صورها ، وفى الحق إن المسيحية (وليس هذا فى مصر وحدها) خلّصت الخفقات الوطنية الخفية من عقالها وأطلقت العنان لأساليب الحياة القومية وبثت فيها روح الحياة من جديد . والمدينة الدولة التى كانت أبرز مظهر من مظاهر الحياة الهيلينية والتى يرجع إليها الفضل الأكبر فيما توافر لهذه الحياة من بهاء وقوة ، كانت كذلك المصدر الأساسى فيما انتاب تلك الحياة من ضعف فى مرحلة تغلغها فى صميم العالم الشرقى ، وحيثما ذهب اليونانيون كانوا يحلون ويستقرون فى جماعات قوامها المدن . وهذه كانت تؤلف مراكز صغيرة لنشر الثقافة الهيلينية . ولكن لما كان اليونانيون يقيمون بوجه خاص فى داخل نطاق مدنهم ، فإن أثر هذه الثقافة على الريف المحيط ، جاء فى أفضل أحواله ، محدود النطاق ؛ وفى الحق يمكن أن نعد بصعوبة أن مصر كان بها أى مدن يونانية ، بل إنه حتى فى هذا القطر ، يبدو أنه فيما عدا الاستثناء الوحيد — وهو الفيوم — كان اليونانيون مكدسين بوجه خاص فى حواضر الأقسام ، وتركوا القرى غالباً إلى المصريين . وعندما ندرس البردى اليونانى من العصرين البطلمى والرومانى بما فيه من متعة من نواح متعددة ، نساق بعض الشيء إلى التفكير فى مصر باعتبارها بلداً يتكلم اليونانية ، متجاهلين الثقافة القومية مع أنها تبدو لنا واضحة للعيان من الوثائق الديموطيقية القانونية« وإيصالات » الضرائب الديموطيقية بين حين وآخر أو الخلاصات بفحوى ما فى « الإيصالات » اليونانية ، وبعض قصاصات من الأدب الديموطيقى الشعبى . ولكن باستمرار بقيت الحياة المصرية الصميمة تجرى على وتيرتها بين طبقة الشعب كما لو كانت بعيدة عن الأبصار وقلّما يلحظها أحد ، وهى تكنّ العداء الخفى للهيلينية وترعى عزتها القومية ؛ فلما وصلت المسيحية إلى هذه الطبقة كانت بمثابة القوة المخلّصة وساعدها على ذلك تغيير فى الخط وأسلوب الكتابة ، على أن الكتابة الديموطيقية الصعبة كانت فى أغلب الظن معروفة لفئة قليلة من الناس فى خارج نطاق طبقة الكهنة ، ولكن فى القرن الثالث بدأ الناس يجرون على

استعمال أحرف الهجاء اليونانية مع إضافة ستة حروف مأخوذة من الديموطيقية ، فيكتبون بها النصوص المصرية . ومن المحتمل جداً أن ذلك كان من أجل أغراض سحرية حيث لزم توخى الدقة التامة فى إيراد الصيغ السحرية ، فاستعيض أول الأمر عن الديموطيقية التى لا تدون الحروف المتحركة ، بحروف الهجاء اليونانية التى بها نظام الحروف المتحركة ؛ ولكن على أى حال أدرك المسيحيون لأول وهلة الإمكانيات التى ينطوى عليها هذا التجديد . وفى أول الأمر ظهر فى الحواشى الهامشية أو الشروح التى وردت بين السطور ثم فى نصوص متصلة ، أن الأسفار المقدسة بدأت تترجم إلى القبطية ، وهو الاسم الذى كان يطلق على ذلك الخط الجديد الذى كان آخر صورة كتبت بها اللغة المصرية ؛ وقبل أن يتقدم بنا العهد فى القرن الرابع كان الكتاب المقدس كله فى متناول القراء من المصريين . وأصبح الذين يستطيعون قراءة الكتابة اليونانية أكثر بكثير ممن يقرأون الديموطيقية ، وفضلا عن ذلك فكتّاب القبطية كانوا يستخدمون صورة من الكتابة المصرية أكثر حداثة وأقرب إلى العامية مما كان يستعمله كتّاب الديموطيقية . وعلى ذلك نشأ أدب قبطى وافر ذو طابع إنجيلى ولاهوتى وطقوسى ولكنه فى القليل النادر علمانى . وللمرة الأولى منذ القرن الثالث قبل الميلاد وجدت روح مصر ذاتها وسيلة للتعبير المجرد من كل قيد ، والكثيرون من الرهبان والنساك كانوا من سلالات مصرية ، وفى واقع الأمر إن الديرية « الرهبانية » ، كما ألمحتُ من قبل ، كانت فى أغلب الظن ثمرة إنتاج مصرى قوى إلى حد ما ، وعلى ذلك اتخذت الكنيسة المصرية طابعاً قومياً قوياً ، فالمصريون الذين لم يجر فى عروقهم دم يونانى لم يظهروا مطلقاً مقدرة كبيرة على التفكير الفلسفى الخالص . وإلى المفكرين اليونانيين المشتغلين بالديانة ، ترجع الأهمية المتعلقة بالأسرار الخفية مما يغلب على كثير من الخرافات المصرية ، مثلما هى الحال فى قصص إيزيس وأوزوريس ، فالرهبان الذين كانوا يحتشدون فى ركاب بطريقهم ويلتقون فى المجامع التى عقدتها الكنيسة ، كانوا بالتأكيد على قدر قليل من الفهم والمعرفة بدقائق الأمور اللاهوتية المعروضة على بساط

البحث ، وإنما الأمر الذى كانوا يستطيعون فهمه هو المعارضة السياسية التى كانت تبديها مصر ضد سيطرة الحكومة الإمبراطورية . ومن ثم كان من الطبيعى أنه عندما أصبحت القسطنطينية وهى العاصمة الجديدة هرطقية على عهد الإمبراطور الآرى قسطنطين تَعيَّن على مصر أن تتبع المذهب الكاثوليكى . ولما صارت القسطنطينية كاثوليكية المذهب وجب أن تكون مصر هرطقية .

وقد حدث هذا الانشقاق الذى فصل جملة الكنيسة المصرية عن العالم المسيحى الكاثوليكى فى القرن الخامس . وفى ظاهر الأمر كان محور الخلاف يدور حول العقيدة . وكان الفكر اللاهوتى لا يزال مشغولاً بمحاولة البحث فى تعريف سر تجسد الأقنوم الثانى والوصول إلى كنهه : فإذا كان المسيح هو الله والإنسان معاً فهل هو ذو طبيعتين ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هى بالضبط العلاقة بينهما ؟ وقد أنكر آريوس (Arius) وجود التطابع واتحاد الابن والأب فى طبيعة واحدة ، ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح فى صورة ما . والخطأ من الجانب الآخر المضاد هو فى إغفال الناسوتية أو التقليل من شأنها . ولو أن هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة فى أبعد صورها كانت تسمح بوجود الطبيعتين قبل اتحادهما عند تجسد الأقنوم الثانى ، فإنها كانت تقول بأنه ليس هناك سوى طبيعة واحدة فيما بعد . وعلى ذلك أخمدت الطبيعةُ الإلهية الطبيعةَ البشرية وأطفأتها ولم تُضَمَّن فيها وبذلك انفصمت مرة أخرى الرابطة التى تصل بين الله والإنسان . هذا عرض مُبسط وإن شابه عدم توخى الدقة التامة ، فمحور الخلاف فى غاية الدقة وليس من اليسير بحال من الأحوال إدراك كنهه . وقد بذل قادة الكاثوليك محاولات متكررة من أجل الوصول إلى حل وسط حتى استحال فى آخر الأمر محور الخلاف إلى أضيق الحدود وأتفهها ، ولكن ذهبت الجهود سُدى . وتعقد الخلاف بتداخل عناصر الكراهية الشخصية وقيام المنافسة بين كراسى الأسقفيات الثلاث الكبرى وهى روما والقسطنطينية والإسكندرية .. وكما قال بحق المرحوم چان ماسبيرو (Jean Maspero) : « لم يكن المذهب القائل بالطبيعة الواحدة (المونوفستية) هرطقة

فى أساسه ، وإنما كانت الغاية منه مجرد الانشقاق » .

وكان شاغل كرسى أسقفية الإسكندرية من عام ٤١٢ إلى ٤٤٤ هو القديس كيرلس (St. Cyril) ؛ وإن كانت آراؤه تؤكد بصفة خاصة ألوهية المسيح ، فقد بقيت داخل نطاق العقيدة المسيحية (الأرثوذكسية) وبينما كانت تنقصه الفضائل العظيمة جداً التى كان يتحلى بها سلفه العظيم — أثاناسيوس — فإن القديس كيرلس أظهر بصورة مبالغ فيها نفس النقائص والمعايب التى كان عليها سلفه ، فكان صلفاً ، محباً للصخب ، حريصاً على الوصول إلى السيطرة والسلطان ، واسع الذمة إلى أقصى حد ولا ضمير له فى انتهاج السبل التى تحقق له أغراضه ومآربه ، فهو الذى حرض الرهبان والغوغاء على طرد اليهود من الإسكندرية ، وهو الذى بذل قصارى جهده فى القضاء على المدرسة الفلسفية فى الجامعة مع ما يتبعها من هيئات وثنية . وهو وإن لم يكن المحرض على الاضطرابات التى أدت إلى مقتل هيباشيا ، فإنه كان على الأقل راضياً عن ذلك بما اتخذه من موقف سلبى . وفى مجمع إفسوس المنعقد سنة ٤٣١ كان هو المسئول الأول عن قرار الحرمان والنفى الذى صدر ضد نسطوريوس (نسطور) (Nestôrius) بَطْريق القسطنطينية ، وعن طريق الرشوة والإغداق بسخاء نجح فى الخلاص من المسئولية عما ارتكب من مخالفات جسيمة أساءت إلى سمعة المجمع ، وكان خلفه ديوسقوروس (Dioscorus) موسوماً بجميع النقائص التى كانت تشين كيرلس ولكن تعوزه الكياسة والحنكة السياسية والرقة التى كان يتصف بها كيرلس ، وقد ورَّط نفسه فى موقف يحتم عليه أن يكون من المؤمنين بمذهب أصحاب الطبيعة الواحدة . وفى مؤتمر إفسوس سنة ٤٤٩ م الذى أطلق عليه مؤتمر « الزيف والعدوان » ، تم له النصر ولكن بطرق وأساليب كانت هوجاء لدرجة أنها أثارت عليه عصبة قوية تألفت ضده ، وفى مؤتمر خالقيدون (Chalcedon) سنة ٤٥١ الذى أصدر البيان المشهور معلناً فيه أن المسيح « مفطور فى الجوهر والمادة بفطرة أبيه فيما يتعلق بلاهوته ومتحد فى الطبيعة الواحدة معنا فيما يتعلق بناسوته » وأنه « ظهر لنا متقمصاً فى طبيعتين »

أدين ديوسقورس وعزل من وظيفته، وقد سُلّط الغوغاء على بروتريوس (Proterius) المعين خلفاً له فمزقوه إرباً إرباً بتحريض من منافس يدين بمذهب الطبيعة الواحدة ، هو تيموثى القط (Timothy Ailouros) كما كان يلقب من قبيل التهكم . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت كتلة المسيحية المصرية منشقة على الكنيسة الكاثوليكية .

والإنشقاق ، وإن كان ضرورياً فى بعض الأحيان ، فهو شرٌ مستطير على الدوام لأنه بتوكيد نقاط الخلاف وإبرازها ، يؤدى إلى ضيق الأفق حتى بين أفراد هيئة تنتمى إلى جد واحد ، وإلى ضيق الأفق وقصور الفكر فى هيئة يسود بينها الخلاف والانقسام ، وهذا ما تحقق بالفعل فى هذا الشأن ؛ فالفريق الكاثوليكى أو الملكانى * (Melkite) ، كما كان يُطلق عليه ، صرفه اعتماده على تأييد الحكومة الإمبراطورية إلى اتخاذ موقف ذميم ممقوت من غالبية الشعب ولم يحظ إلا بنفوذ وسلطان محدود وكان يسيطر على جمع قليل من الأتباع ، أما القائلون بالطبيعة الواحدة أو اليعقوبيين (Jacobites) ويؤيدهم الرهبان الجهلة الذين كانوا يناصبون العداء وينفرون من الثقافة الهيلينية فى جميع صورها ، فقد أثبتوا عجزهم التام عن المساهمة بأى نصيب يذكر فى الجهود الفكرية فى ذلك العصر . وعلى ذلك فمصر التى كانت عاصمتها الإسكندرية فى القرنين الثانى والثالث مقراً لمدرسة الوعظ والإرشاد الشهيرة ، بل إنها فى القرن الرابع أخرجت فى شخص أثاناسيوس (Athanasius) ، مثلاً يُعتد به فى التاريخ الكنسى ، اعتراها الاضمحلال وأصيبت بالركود المحلى .

ولم يوفق كيرلس فى القضاء على المدرسة الفلسفية بالاسكندرية ؛ وحتى عهد متأخر هو النصف الثانى من القرن الخامس كان لا يزال بالجامعة حلقة من الفلاسفة الوثنيين ، أتيحت لنا فرصة الوقوف على ماجريات أحوالهم بما كشفه ملتمس حفظته لنا بردية ، وما أضفاه من ضوء خلاب ، ومع ذلك فعلى الرغم من

* الملكانيون هم الكنيسة الرسمية فى العهد البيزنطى .

أن ثقافة هؤلاء الرجال كانت بلا ريب شديدة الاصطباغ بالهيلينية فإنهم كانوا وطنيين غيورين ، وكان أحد هؤلاء هو المؤلف الشهير لرسالة باقية فى موضوع الكتابة الهيروغليفية ، وحتى فى الإسكندرية كانت الهيلينية مهددة فى كيانها ، أما فى باقى أجــزاء مصر فإن المؤثرات المعادية ، من الديرية « الرهبانية » وردّ الفعل الوطنى ، كانت تلقى العون والتشجيع ، بفضل ذلك الانهيار الاقتصادى الذى عجزت إصلاحات دقلديانوس عن أن توقفه .

والمظهر البارز فى هذه الإصلاحات كان فى تبسيط نظام الضرائب ولكن الفوائد المرجوة من هذا التنظيم كانت خداعة . ففى تحديد وحدات الانتاج كان يُراعى فى الاعتبار ، فى حقيقة الأمر ، أوجه الاختلاف فى الكيف وكان يُسمح بلا ريب بالكسور ، ولكن حتى مع ذلك كان الأسلوب المرعى فى تقدير الضرائب يعوزه التهذيب وتشوبه بعض الشوائب التى تجعله غير واف بضمان السلامة فى وقت استحكمت فيه حلقات الضيق الاقتصادى ؛ ففى سوريا — على سبيل المثال (ونفتقر إلى أرقام خاصة بمصر) — كانت وحدة الضريبة (iugum) على أحراش الزيتون تبلغ ٢٢٥ شجرة . وعلى ذلك إذا فرضنا أن شخصاً كان يملك ٢٤٠ شجرة فإن الضريبة المربوطة عليه تكون على أساس وحدة ضريبية واحدة وكسر منها ؛ فإذا كانت إذاً بعض أشجاره قديمة العهد وليست وافرة الإنتاج للغاية ، فإنه قد يكون من الخير له أن يقطع خمس عشرة منها ، وبذلك تنقص مسئوليته وتقتصر على وحدة ضريبية واحدة . ويحدث مثل هذا بالنسبة لمالك الأرض الصالحة للزراعة إذ قد يكون من المجدى والمفيد له أن يترك الأجزاء الأقل خصوبة من أرضه من غير زراعة . ومن المعروف أن هذا الأمر حدث بالفعل وكان من نتيجته أنه فى مواطن كثيرة بأفريقيا وسوريا ، وليس الأمر بأقل من ذلك فى مصر ، بدأت الأرض تخرج من نطاق الزراعة بإهمالها . وفى وسعنا أن نتتبع هذا التطور فى وضوح وجلاء بصفة خاصة فى الفيوم حيث نجد ما كان من القرى آهلاً بالسكان ومزدهراً فى

القرن الثانى ، بل وما كان فى القرن الثالث مراكز فسيحة يتجمع فيها السكان ، قد هجرها أغلب أهلها فى صدر القرن الرابع ؛ وما وافت نهاية هذا القرن حتى كانت قد تحولت إلى أكوام كبيرة من الرمال تُغطى ما بقى من آثار هذه المساكن المهجورة . وبقيت على هذه الحال حتى العصور الحديثة . وكان الدخل من أية ولاية تطورت فيها الأمور على هذا النحو ، آخذاً فى الانكماش ، على أنه لم يطرأ على مصروفات الحكومة ما يقابل ذلك من نقصان . ولما أصبحت الحدود الشمالية عُرضة لغزوات مستمرة يشنها البرابرة من التيوتون ، تطلب هذا قوة عسكرية كبيرة ، كما أن الفرس كانوا دائماً خطراً مسلطاً على الشرق . وفضلاً عن ذلك فإن النظام الذى ابتدعه دقلديانوس كان يتطلب بيروقراطية مُحْكمة . ولكى يُحال دون ابتزاز الأموال وارتكاب الظلم ، ابتدعت سلسلة متشابكة من القيود والضمانات لحسن الرقابة ، ونُصِّب الموظف كى يكون عيناً على عمل زميله . وكان لا بد أن يتقاضى جميع هؤلاء الموظفين مرتبات ؛ وفضلا عن هذه الأجور كانوا جميعاً يتطلعون إلى الحصول على منح إضافية اعتبروها حقا لهم وهى ما يطلق عليه (Sportula) وبلغ الأمر بهذه المنح والعطايا أن أصبحت إجراء مسلماً به حتى إنه كان يُعمل حسابها بالفعل فى تقدير الضرائب ، ومثل ذلك ماجرى عليه العرفُ فى كثير من الفنادق والمطاعم الحديثة عندما تحاول الاستعاضة عن إعطاء الحلوان «البقشيش» بتحصيل مبلغ يقدر بنسبة عشرة فى المائة فى نظير « الخدمة » . ولم يكن فى وسع الحكومة ، إن هى شاءت ، تخفيض مطالبها ، فاضطرت مجالس الشيوخ فى حواضر الأقسام بما لديها من وسائل وأدوات ، بوصفها المسئولة عن تسليم الحصص الجماعية كاملة ، أن تعمد إلى الإكراه وتضييق الخناق على الفلاحين ، فإذا ما عجزت هذه الهيئات بعد ذلك عن الوفاء بالقدر المطلوب فإن أملاكها الخاصة كان عليها أن توفى بما يلزم لسد العجز ، وعلى ذلك كانت الضائقة الاقتصادية سبيلا للمرور ، به مسلكان ، ووجد الفلاحون وطبقة أعضاء الشيوخ أنفسهم وجهاً لوجه أمام الخراب المشترك . وكان فى وسع الحكومة ، وهى الحريصة بإخلاص على أن

تحول دون وقوع تلك الكارثة ، أن تصدر التعليمات والتوسلات لمنع الاستغلال ، ولكن لم يكن من المجدى كوسيلة لعلاج تلك الحالة ، غير تخفيض الحصص المقررة ، ولما لم يكن من المستطاع أن تنظر السلطات فى هذا الأمر ، فإنها عمدت كالمعتاد إلى الإكراه والضغط ، ولما كان مصير أمور كثيرة متوقفاً على إنتاج الأرض ، فإن زارعها — سواء أكان مؤاجراً أم مالكاً لها — لا بد أن يُمنع من مغادرتها ويتعين عليه أن يلتصق بالأرض التى يفلحها . أما طبقة أعضاء مجالس الشيوخ — وهى التى تقع عليها المسئولية آخر الأمر عن النصيب المقرر — فلا أقل من المحافظة على كيانها وعلى مالها من سلطان (١٨) . فكان من المحتم أن يخلف ابن عضو الشيوخ أباه فى تحمل مسئوليته والتزاماته ، وكذلك الحال مع ابن الملاح المكلف بشحن الغلال ونقلها وتوصيل الضرائب النقدية إلى القسطنطينية فإنه مُلزم أن يكون هو نفسه ملاحاً ، كما أن ابن المكارى لا بد أن يصير مكارياً على شاكلة أبيه . وعلى ذلك اقتضى المنطق الذى لا مناص منه أن تنشأ حالة من النظام البيزنطى ، طابعها الاسترقاق وسُلَّم على مراحل ومراتب كثيرة قوامه الطبقات والحرف التى كانت كل واحدة منها تخضع لنظام الوراثة ، ولا سبيل إلى الفرار منها (١٩) . على أن صرامة هذا النظام لم تكن فى واقع الأمر مطلقة ، لا معدى من الحيدة عنه ، وإنا لنسمع عن أناس ارتقوا من أصول وضيعة إلى أعلى عليين ، لأنهم سلكوا بصفة خاصة واحداً من سبل ثلاث : وهى الجيش ، أو العمل فى خدمة الحكومة ، أو الكنيسة . ولكن هؤلاء كانوا قوماً أوتوا ذكاء خارقاً أو مقدرة فائقة على الابتكار . أما الرجل العادى فكان محكوماً عليه أن يبقى طول حياته فى المركز الذى أعدته له المقادير بحكم مولده .

وفى العصر البطلمى كان الفلاح إذا وجد أن موقفه أصبح لا طاقة له به ، فإن من حقه أن يلوذ بالاحتماء بمذبح الملك أو بأحد المعابد العديدة التى كانت تتمتع بحق الجيرة والشفاعة ، ولا يبرح مكانه أبداً حتى يرفع عنه الظلم ويجاب إلى مطلبه ، فلما جاء العهد الرومانى قُصر هذا الحق فى أضيق نطاق ،

فكان المسلك الطبيعي أن يعمد الإنسان إلى الهروب والفرار إلى المستنقعات أو الصحراء والانضمام إلى بعض العصابات من اللصوص وقُطَّاع الطرق . ومع ذلك فقد كان هناك احتمال آخر ، وكما بينت فى الفصل السابق ، كان هناك أناس — حتى فى القرن الثالث — انتفعوا فى هذا المحيط الشامل للتدهور العام ؛ فكان فى وسع أولئك الذين أوتوا قدرة على الابتكار وهمة ونشاطاً مزوداً برأس المال أن يحولوا مصائب غيرهم إلى مزايا تعود عليهم بالنفع والخير لأنفسهم. وفى ذلك العصر كان قد بدأ الأفراد من قبل فى حيازة الضياع الشاسعة لأنفسهم ، وعمد أصحاب تلك الضياع إلى موازنة أرباحهم من مزرعة فى مقابل ما قد ينجم من خسائر فى أخرى ، وبهذا كان فى وسعهم تحمل مطالب جباة الضرائب من غير إرهاق أو حرج كبير . وقد نكون على ثقة ويقين أنه فى عصر غلبت عليه المادية والإسفاف ، كان فى وسع صاحب المال أن يجد السبل ميسرة لديه كيما يحصل على معاملة خاصة ، فيها إيثار له على غيره . ومن قبل نهاية القرن الرابع كان ملاك الأراضى الأثرياء (potentiores) قد حصلوا من الحكومة (نظراً لما يحتمل من أنها وجدت أن من العسير عليها أن تجبى النصيب المقرر بغير ذلك) على حق عرف باسم «أتوبراجيا »* (autopragia) يخول لهم جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة ثم القيام بأدائها مباشرة إلى الخزانة الإقليمية دون وساطة الجباة المحليين ، فلما صار المالك الصغير مهدداً حينئذ بأن يحل به الخراب ، كان فى وسعه أن يطلب الحماية من أحد جيرانه الأقوياء . وكان فى مكنته أن يُسلم له نصيبه من الأرض على أن تبقى له حيازتها من بعد ذلك بوصفه مستأجراً لها ، يؤدى الخدمة لسيده صاحب الأرض ، فى نظير اضطلاع الأخير بالمسئولية الأخيرة عن دفع الضرائب ؛ وبذلك تحول وضعه من مالك إلى مستأجر ملتصق بالأرض التى أصبحت إذ ذاك ملكاً لآخر ، وبذلك آل الأمر به إلى أن أصبح فلاحاً ممن تدرج أسماؤهم فى سجل (colonus adscripticius) ، بل فى حقيقة الأمر قن .

* هذه كلمة يونانية فى أصلها ، ومعناها تصرف ذاتى ذو طابع استقلالى . (المترجم)

ولم تستسغ السلطات الإمبراطورية ذلك التطور الذى آل إليه نظام الرعاية والولاية فكان الدستور تلو الدستور يصدر بتحريم ذلك النظام ، ولكن دون جدوى . فلم تنفع أوامر الحظر والمنع أمام ضغط الأحوال الاقتصادية التى لا سبيل إلى مقاومتها ، وفى آخر الأمر سلمت الحكومة فى سنة ٤١٥ بالوضع الراهن . وقد نص دستور سُن فى هذا العام بأن جميع من كانت فى حيازتهم أراض قبل سنة ٣٩٧ بحق ما لهم من رعاية وولاية ، وجب تركها ملكاً لهم على أن يتحملوا مسئولية الوفاء بجميع ما عليها من التزامات قِبَل الفلاحين التابعين لهم ، ولكن أوجب هذا الدستور الامتناع عن استعمال اسم راعٍ أو حامٍ ، وفى هذا التسليم تصحيح لوضع الفلاحين المدرجة أسماؤهم فى سجلات (coloni adscripticii) من الناحية القانونية ولكنه لم يحقق القصد المرجو منه ، فيمنع حدوث أى تطور آخر فى نظام الرعاية والولاية ، ولو أنه نظراً لندرة أوراق البردى الذى يرجع تاريخه إلى القرن الخامس إلى درجة تدعو إلى الغرابة ، فإنه ليس لدينا من سبيل إلى تتبع ذلك التطور فى شىء من التفصيل . وعندما نبلغ القرن السادس الغنى بالوثائق ، تعترينا الدهشة من ذلك التغيير الذى حدث ، فكان أول تجديد نلحظه ، له طابع إدارى ، فتوارت الحواضر « البنادر » والمراكز (pagi) التى كان يشرف على كل منها رئيس (praepositus) ، وهى التى كان ينقسم إليها « النوم » . وأصبحت المنطقة الريفية برمتها تؤلف إذ ذاك إقليماً واحداً ، يتولى إدارته من الناحية المالية موظف يطلق عليه صاحب الكورة (پاجارك (pagarch)) وقد حدث هذا التغيير فى القرن الخامس على سبيل اليقين ، ولعل ذلك كان فى عهد الإمبراطور ليو الأول (Leo I) (من ٤٥٧ إلى ٤٧٥ م)[٢٠] . ولم يكن سلطان صاحب الكورة (الپاجارك) فى الظروف العادية شاملا للمنطقة برمتها ، وذلك لأن الضياع الخاصة بكبار ملاك الأراضى المتمتعين بحق الأتوبراجيا (autopragia) كان مُخولا لهـا حرية التصرف من حيث دفع الضرائب المستحقة عليها من غير طريق صاحب الكورة ، بل أداؤها مباشرة إلى أمين بيت المال [الخزانة] فى الإقليم ، وقد أسبغ مثل هذا الامتياز على

عديد من الأديرة والكنائس وعلى بعض القرى ذات الأهمية الكبرى (وذلك بلا ريب من قبيل سد الفراغ أو استكمال لقوة الأشراف) ، وكان صاحب الكورة موظفاً معيناً من قِبَل الإمبراطور ومسئولاً أمامه ، وليس له أى سلطان على هيئة البلدية التى لم تعد ، بعد إنشاء وظيفته ، موكلة بالشئون المالية فى محيط منطقة الريف .

وحدث تغيير خطير الشأن فى الإدارة عام ٥٥٤ [٢١] ، عندما أصدر جستنيان (Justinian) مرسومه الثالث عشر . وقد وصل إلينا هذا المرسوم فى صورة مبتورة ، ولكن فى الإمكان أن نعيد تكوين الفقرات الرئيسية من القدر الضائع بطريق الاستقراء من الجزء الباقى منه ؛ وكانت قد جرت من قبل كثير من التعديلات والتنظيمات التى أدخلت على وضع الولايات وتمّ هذا على يد دقلديانوس . وفى عام ٣٨٢ لم تعد هذه الولايات تؤلف جزءاً من أسقفية الشرق ، وأصبحت أسقفية منفصلة ، وصار لوالى مصر الذى يحمل لقب أوغسطال (Augustal) السلطان المطلق على البلاد كلها ؛ ولكن إلى ذلك الحين ، كان المبدأ الذى وضعه دقلديانوس والقاضى بالفصل بين السلطتين العسكرية والمدنية لا يزال مرعياً ، فعُدل عنه إذ ذاك ، وبمقتضى التنظيم الجديد تفككت لأول مرة وحدة مصر ، فلم يعد لوالى مصر الأوغسطالى أى سلطان على الولايات الأخرى التى خضعت جميعها على السواء للسلطان المباشر الذى كان يفرضه والى الحرس البريتورى فى الشرق (Prefect of the Praetorium of the Orient) وكان كل حاكم يتمتع بسلطات عسكرية ومدنية معاً . ومنذ ذلك التاريخ انقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) إلى أربع ولايات متساوية فى المرتبة وهى مصر (Aegyptus) * ويشرف عليها دوق (Duke) ، يحمل لقب أوغسطال (Augustal-is) ؛ وأوغسطامنيكا (Augustamnica) ** وعليها دوق ، ثم

* الجزء الغربى من الدلتا ويشتمل على الإسكندرية .

** الجزء الشرقى من الدلتا حتى بلبيس .

أركاديا (Arcadia) * وعليها كونت (Count) ، والإقليم الطيبى (Thebaid) وعليه دوق أوغسطالى ؛ وكل من الولاية الأخيرة والولايتين الأوليين كان مقسماً بدوره إلى ولايتين فرعيتين تخضع كل واحدة منهما لحكم رئيس (praeses) متمتع بسلطة مدنية بحتة .

ومن الناحية الاقتصادية كان أهم تجديد نلحظه فى القرن السادس هو تلك الضياع الشاسعة التى كانت للأسر الشريفة . ولدينا معلومات وافرة عن إحدى هذه الأسر ، نظراً لأن الكثير من أوراقها بقيت محفوظة بين أوراق البردى التى عثر عليها فى أكسيرنخوس [٢٢] . وأول فرد من أعضاء هذه الأسرة ممن أمكن التعرف عليهم على سبيل اليقين هو فلاڤيوس أبيون (Flavius Apiôn) وهو من ذوى المكانة والمرتبة القنصلية ، وكانت العادة المألوفة فى ذلك الحين . تقضى بمنح تلك المرتبة من قبيل التكريم للشخصيات البارزة ممن لم يكونوا قد شغلوا بالفعل وظيفة القنصل ، ويبدو أنه كان على قيد الحياة سنة ٤٩٧ م عندما كان ابنه فلاڤيوس إستراتيجيوس (Flavius Strategius) يحمل لقباً من ألقاب البلاط وهو كونت الحرس الإمبراطورى [٢٣] (comes domesticorum) ، ثم بعد ذلك حصل إستراتيجيوس نفسه على المرتبة القنصلية والبطريقية وشغل الوظيفة الإمبراطورية السامية وهى كونت الهبات المقدسة [٢٤] (Count of the Sacred Largesses) ؛ وكان ابنه فلاڤيوس أبيون الثانى (Flavius Apiôn II) قنصلاً يزاول نشاطه الرسمى بالفعل فى سنة ٥٣٩ ، وكان بطريقياً ، ومن ٥٤٨ حتى ٥٥٠ كان دوق الولاية الطيبية . وكان ابنه ، فلاڤيوس إستراتيجيوس الثانى (Flavius Stratêgius II) ثم خلفه أبيونٌ ثالث قبل ٥٩٠ ؛ وآخر من سمعنا عنه من أفراد هذه الأسرة هو ثالث إستراتيجيوس ولعله كان ابن أبيون هذا ، وبعد ٦٢٥ توارت الأسرة ، ولعل سبب ذلك راجعٌ إلى مجرد عدم بقاء شيء من أوراق البردى بعد هذا التاريخ مما يتعلق بهذه الأسرة .

---

* مصر الوسطى بين أطفيح والمنيا .

وإن أسرة تقيم فى مصر الوسطى وتتمتع طوال أجيال متعاقبة بالمراتب السامية من قنصلية وبطريقية ، ولم يقتصر توليها أسمى المناصب الادارية على داخل مصر فحسب ، بل أسهمت بتخريج قنصل تولى منصبه بالفعل فى الإمبراطورية — كان من الجلى أنها ذات حيثية ، وتدل أوراق البردى على أن أسرة أبيون هذه كانت فى واقع الأمر تستحوذ على ثروة شاسعة وتتمتع بسلطان كبير ، فكانت تمتلك ضياعاً لا فى إقليم أكسيرنخوس فحسب ، بل على الأقل فى إقليمين آخرين كذلك ، وهما إقليم كينوپوليس (Cynopolite) والفيوم أو الإقليم الأرسينويتى ؛ فنى إقليم أكسيرنخوس ، كانت قرى كثيرة برمتها تنتمى إلى هذه الأسرة . وكان شأنها شأن غيرها من الأسر العظيمة التى نسمع عنها فى أن لها جيشاً خاصاً بها يتألف من جند مأجورين هم الذين كان يطلق عليهم (buccellarii) وهم الذين كانوا ينتظمون رجالاً ينتمون إلى الجنس الألمانى على ما علمناه من حسابات الضيعة . ولهذه الأسرة كذلك ، أسوة بغيرها من الأسر ، سجونها الخاصة (مع أن هذا الإجراء كان محظوراً بنص الدساتير الإمبراطورية ، ولكن دون جدوى) ، وخدمة بريدية خاصة بها ، ذات محطات منتظمة للبريد ولها إصطبل للسباق ، وحمامات عامة ، ومستشفيات ومصارف خاصة ، ودور للحساب ، ورهط من الموظفين التابعين لها ، وكاتمى السر ، والمحاسبين ، وجباة الضرائب وما إلى ذلك . وكان لهاأسطول من قوارب النيل ، بل إنها لم تكن تدفع المستحق عليها من الضرائب إلى أمين الخزانة العامة فى محيط الإقليم ، وإنما كانت تؤديه مباشرة إلى الإسكندرية ، وكانت تقوم بتأسيس الكنائس والأديرة وتغدق عليها الهبات . ومما لا ريب فيه أنها كانت تتولى الإشراف عليها كذلك .

وإن التوفر على دراسة أحوال هذه الأسرة الكبيرة ليوحى حتماً بمقارنتها بأمراء الإقطاع فى غرب أوربا ، وليست المطابقة والقياس فى واقع الأمر تامة ؛ فالنظام الإقطاعى فى الغرب كان بحكم الضرورة عسكرياً . والمستأجر الحر يستحوذ على نصيبه من الأرض على شريطة أن يؤدى الخدمة العسكرية فى

الحرب لأمير الإقطاع التابع له ، سواء أكان هذا للملك مباشرة كما هى الحال مع المستأجرين الكبار أو لأمير إقطاعى مستأجر من الباطن ؛ ولم يكن الإقطاع فى مصر عسكرياً ولم تكن الضياع رقعاً متلاصقة من الأرض كما هو الشأن فى فرنسا، وإلى حد ما فى إنجلترا وويلز ، وإن كان ذلك بدرجة أقل، وإنما كانت مبعثرة فى أرجاء البلاد ، وأحياناً كان جزء من الأرض فى محيط قرية ما ينتمى إلى إحدى هذه الضياع بينما بقى جزء آخر فى حيازة ملاك صغار لا يلتزمون قبله بأداء خدمة عسكرية[٢٥]. وفى الغرب كان الأمير الإقطاعى يعيش فى قصر هو معقله ، وسط أراضيه ، أما فى مصر فلمالك الأرض الكبير بيته — ولا بد أن هذا كان فى حالة أسرة أبيون عبارة عن قصر فى حاضرة من الحواضر ، فى مدينة أكسيرنخوس أو هرموپوليس أو حتى فى الإسكندرية . ومع ذلك فوضع ملاك الأراضى هؤلاء كان أشبه بوضع البارون الإقطاعى إلى درجة تكفى للتسويغ بأن نطلق عليهم شبه إقطاعيين . ومن الطريف أن نقارن النظامين من حيث أوجه الشبه والاختلاف ؛ ففى الغرب كانت الإمارة الإقطاعية صورة مصغرة من المملكة التى تنتمى إليها. فكما كان من حول الملك كبار المستأجرين الذين يدينون له بالولاء والتبعية ، فكذلك كان لكل أمير إقطاعى أقياله الذين يرتبطون به بروابط مماثلة ، أما الضيعة المصرية فهى من الناحية الأخرى صورة مصغرة أخرجت على شاكلة الإمبراطورية البيروقراطية ، التى كانت تؤلف جزءاً منها ولذا جرت فى تنظيمها وسُلّم طبقات الموظفين على منوال البيروقراطية الإمبراطورية . وفى واقع الأمر إنه من المستحيل فى بعض الأحيان ، ونحن بصدد وثيقة بردية من هذا العصر ، أن نتأكد مما إذا كان الأشخاص الذين ذكرت ألقابهم فيها، موظفين تابعين للإمبراطور أم خداماً لإحدى الأسر الكبيرة .

ويقابل أولئك الأمراء الأقوياء وما كان يحيط بهم من بلاط صغير وأبهة فى مؤسساتهم ، جموع محتشدة من سكان الريف ، وهذه كانت تنقسم إلى طبقتين رئيسيتين ، فمن ناحية كان هناك فلاحون (coloni) فى الضياع الكبيرة وهم أقنان ملتصقون بالأرض وعليهم التزام خدمة أسيادهم من ملاك

الأراضى ، ومن ناحية أخرى كان هناك المزارعون الأحرار الذين يملكون أراضى خاصة بهم أو يستأجرون أرضاً من الملاك الصغار ، هؤلاء وإن كانوا أحراراً من الناحية الإسمية فإنهم كذلك التصقوا بالأرض وكان محرماً عليهم لصالح الدولة ، مغادرة إقطاعاتهم . ونظراً لأن اختيار أصحاب الكور (pagarchs) – وإليهم كان هؤلاء يدفعون الضرائب المستحقة عليهم ، فيما عدا حالة القرى صاحبة الحق فى الدفع مباشرة إلى السلطات الرئيسية – كان يجرى من بين صفوف طبقة الأشراف (فأسرة أبيون ، على سبيل المثال ، شغلت وظيفة صاحب الكورة على مدى فترات طويلة) ، فإن وضع هؤلاء المزارعين الأحرار لا يمكن أن يختلف كثيراً عن وضع الأقنان فى الضياع الكبيرة . وفى الحق لما كان فى صالح صاحب الأرض أن يعمل على ما يضمن لفلاحيه ومستأجريه اليسر والرخاء إلى حد معقول ، بينما كان لا يطبق على أحرار الفلاحين مثل هذا الإجراء ، وملاك الأراضى على جانب من الثراء ، ويبدو أنهم كانوا فى بعض الأحيان نموذجيين ، فإن الأمر ربما كان أسوأ بكثير ، ويدعم هذا الفرض مالدينا من بينة مستمدة من أوراق البردى ، ولعل القرى صاحبة الحق فى دفع الضرائب إلى السلطات الرئيسية مباشرة كانت أحسن حالاً بقليل ولكن وضعها لم يكن سعيداً موفقاً ، فأصحاب الكور (pagarchs) ، مثلهم مثل الملاك المتمتعين بحق دفع الضرائب إلى السلطات الرئيسية مباشرة، مع ما كان لهم من صفة رسمية ، برموا بإجراء منح القرى هذا الامتياز ؛ وميزة الدفع إلى السلطات الرئيسية مباشرة يكون مآلها إلى التعطيل إذا تأخر دفع الضرائب وتراكمت الديون ، ويبدو على أى حال أن هذه الميزة لم تطبق على بعض الضرائب المحلية . وعلى ذلك إذا حدث أن وجد صاحب كورة فرصة للتدخل فى شئون قرية متمتعة بحق دفع الضرائب إلى السلطات الرئيسية مباشرة ، فإن يده كانت تنزع إلى البطش طبقاً لما نعرفه من البردى الذى كشف عنه فى مكان قرية أفروديتى (Aphroditê) فى الإقليم الطيبى . فمن غارة شنتها جند مشاكسون ، إلى بيوت نهبت وأشعلت فيها النيران ومياه حولت مجراها عن ، وحقول أتلفت وأهملت ، وراهبات خطفن ».

وشخصيات بارزة من الملاك زج بهم فى غياهب السجون وسيموا سوء العذاب — تلك وأمثالها كانت النتائج التى أسفر عنها الشجار مع صاحب الكورة ، وهذا ماحدث فى قرية عمدت ، من قبيل الاحتياط ومن أجل تدعيم مركزها المخول لها بحق دفع الضرائب إلى السلطات الرئيسية مباشرة ، إلى اتخاذ إجراءات كفلت لها وضع نفسها تحت الحماية الإمبراطورية[٢٦] . ولكن الأمر على نحو ما صوره جستنيان (Justinian) فى ملاحظة أبداها فى أمر عال متعلق بقضية خاصة بما ارتكبه صاحب كورة من ظلم وعدوان هو « أن المؤامرات والدسائس التى ارتكبها ثيودوسيوس (Theodosius) برهنت على أنها أقوى أثراً مما نُصدره من أوامر »[٢٧] ، فالأشراف شبه الإقطاعيين وجميع من يلوذ بهم من جند مأجورين (buccellarii) كانوا على مقربة ؛ أما الإمبراطور ، فهما كانت مقاصده ونواياه تنم عن الخير ، فإنه كان مقيما فى مكان قصى هو القسطنطينية.

وإن مبلغ الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين شريف غنى وبين فلاح أجير (colonus) ، ليبدو فى أروع صورة ، من الرجوع إلى العرائض والالتماسات ومقارنتها بالوثائق المماثلة من عصر أسبق ، وهاهو ذا ،على سبيل المثال ، صدر التماس كتب حوالى عام ٢٤٣ ق. م « إلى الملك بطلميوس ، من أنتيجونس (Antigonus) تحياتى ، لقد لحق بى ضيم وظلم من جراء معاملة پاترون (Patrôn) ، رئيس الشرطة فى التوباركيةالسفلى »[٢٨] . وإنه لموظف صغير فى إحدى قرى مصر الوسطى ، ذلك الذى رفع ملتمساً إلى صاحب الحول والطول بطلميوس الثالث يورجيتيس (الخيِّر) ، ومع ذلك فإنه يخاطب الملك كإنسان دون حاجة إلى التذلل أو استعمال عبارات فيها لغو وحشو فى اللفظ ؛ وإليك الآن من قبيل المقارنة التماساً من القرن السادس رفعه فلاح أجير يعمل فى ضيعة أبيون إلى سيده مالك الأرض : « إلى سيدى الفاضل المحب للمسيح والعطوف على الفقراء ، البطريق ودوق الإقليم الطيبى ، ذى القدر العظيم والمقام الرفيع ، أبيون (Apiôn) ، مقدمه أنوپ (Anoup) ، عبدك البائس المسكين فى ضيعتك المسماة فقراً (Phacra)[٢٩] » . بل إن ما هو أدعى للدهشة

والعجب تلك الجمل الواردة فى افتتاحية التماس مرفوع إلى دوق من قرية أفروديتى المتمتعة بحق دفع الضرائب إلى السلطات العليا رأساً وذلك فى سنة ٥٦٧م(٣٠) :

« إلى فلاڤيوس ترياديوس ماريانوس ميخائيل جبرائيل قسطنطين ثيودور مارتيريوس چوليانوس أثاناسيوس ، القائد الذائع الصيت والبطريق ذى المنزلة القنصلية وصاحب الفخامة ، المُولَّى من قبل الحاكم العام چستن (Justin) ودوق وأغستال (Augustal) الإقليم الطيبى للسنة الثانية ، هذا ملتمس وتوسل من عبيدك المستحقين منك لأشد أنواع العطف ، وهم صغار الملاك البؤساء وسكان القرية المنكودة الحظ ، أفروديتى ، الداخلة فى نطاق الدار المقدسة والواقعة تحت نفوذك الجليل (الموقر) ، وإن العدالة كلها وصدق المعاملة لتتجلى على الدوام فى التصرفات والإجراءات التى تصدر بأمركم وتوجيهكم السامى الذى كنا فى انتظاره منذ أمد طويل وتطلعنا إليه كما كان يفعل الموتى فى الآخرة منتظرين قيام المسيح الإله الخالد ، لأنك من بعده ، وهو ربنا وإلهنا ، والمخلِّص والمعين والمحسن الصادق الرحيم ، أصبحت محط كل آمالنا فى الخلاص ، ويتوقف مصيرنا على سموك الذى تلهج جميع ألسنة الناس بفضله وعلو شأنه فى الخارج . . . ، ولهذا جئنا إليك غير هيابين ولا وجلين فى خضوع وخشوع مترسمين خطاك الطاهرة ، نُطلعك على الحالة التى آلت إليها أمورنا » .

فى عالم كهذا هل من مجال أو من سبيل إلى وجود الهيلينية ، وهى الحضارة السائدة بين أحرار الرجال ذوى العقول الحرة ؟ وكانت أشهر مراكزهم فى خارج نطاق المدن اليونانية وهى الإسكندرية وبطلمية* ، محصورة فى حواضر الأقسام . ومعلوماتنا عن الشئون البلدية أشد قصوراً فى القرن السادس مما هى

* لم يذكر المؤلف مدينة نقراطيس — وهى أقدم وأعرق فى الهيلينية ، كان تأسيسها منذ أيام أبسماتيك فى الأسرة السادسة والعشرين — ولعله أغفلها لأنها ليست من مؤسسات العهد البطلمى وكانت قد اندثرت بعد القرن الثالث الميلادى كما أغفل كذلك مدينة أنطينوپوليس (الشيخ عبادة مركز ملوى) مؤسسة هادريان سنة ١٣٠ م . ولعل المؤلف عمد إلى ذلك القصر من قبيل التجاوز فلم يشأ سرد المدن جميعها مقتصراً على بعضها . (المترجم)

فى أى تاريخ سابق ، ولكن ربما يكون لهذه الحقيقة دلالتها فى حد ذاتها :
فهذه الحواضر القديمة للأقسام وهى التى كانت فى القرن الثانى تفاخر وتباهى بمحافظتها على التقاليد الهيلينية وتستمتع بما كان يقيمه فتيان الشبيبة اليونانية من أعياد ، بل إن تلك الحواضر كانت فى أيام الشدائد التى انتابتها فى القرن الثالث ، تتخذ لنفسها ألقاباً فخمة رنانة مثل « مدينة الأكسيرنخيين (Oxyrhynchites) ، الذائعة الصيت وذات المجد التليد » أو « مدينة هرميس العظيمة ذات القدم وجلال المجد والشهرة الذائعة » . وقد بلغت هذه الحواضر فى القرن الرابع من المنزلة درجة استكملت بها الحقوق البلدية ، ثم ما لبثت أن أخذت تتضاءل فى الأهمية شيئاً فشيئاً ويتناقص القسط الذى تتمتع به من الحرية ؛ والمناطق الريفية الخاصة بهذه الحواضر ، مادامت لا تملك حق تسديد الضرائب لدى السلطات العليا رأساً ، كانت تخضع لسلطان الموظف التابع للإمبراطور وهو صاحب الكورة الذى كان يقيم فى المدينة بنفسه ومعه الأسرة الكبيرة التى ينتمى إليها ، ولا بد أنه كان فى موقف يُخول له التأثير فيما يتخذه السناتو المحلى من قرارات فى كل مسألة ؛ وفى إحدى البرديات التى ترجع إلى قبيل نهاية القرن السادس ، نجد الحامى (defensor) فى كينوپوليس (Cynopolis) يقول إنه أسدى عبارات الشكر الذى يكنه نحو مراسله « إلى رئيسنا العام ، ذائع الصيت والمجد ، وكيل المالك »[٣١] (والمالك هنا هو فى أغلب الظن عميد أسرة أبيون) ، وفى بردية أخرى مؤرخة فى ٥٨٧ ظهر القائم بأعمال الحامى بوصفه مستأجراً فى ضياع أبيون[٣٢] ، وكانت وظيفة الحامى هذه قد ابتدعت فى أصل نشأتها ، كما ذكرت ، للأخذ بأيدى الفقراء ورعاية مصالحهم ضد الأغنياء ، ومع ذلك فإننا نرى إذ ذاك شاغليها وقد أصبحوا أتباعاً يكنون الولاء والخضوع لكبار الأشراف . أما عن المزاج الفكرى لذلك العصر فإنه يكفى أن نلاحظ أن الرهبان كانوا يضيقون ذرعاً بالهيلينية ولا يطيقون صبراً عليها ، وأن الكيان العام فى الكنيسة المصرية كان يدين بالمذهب القائل بالطبيعة الواحدة[٣٣] . وإن اعتناق هذا المذهب « المونوفستى » كان معناه بطريقة كادت أن تكون آلية ، اتخاذ موقف

قومى يكن العداء نحو ثقافة من طابع أعم كانت سائدة فى العاصمة الإمبراطورية.

وكان من الجلى أن الهيلينية أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة فى القرن السادس . ولكن فترة الاحتضار كانت عملية طويلة الأمد بطيئة الأثر ، وتدل الكشوف فى أنطينوپوليس وفى غيرها على أن الأدب اليونانى واللاتينى كان لا يزال يُقرأ ، وأن القراء الذين عاشوا فى القرن السادس كان لا يزال فى مقدورهم الحصول على كثير مما هو ضائع الآن . ومما يدعو إلى الدهشة والعجب بصفة خاصة أن شاعراً رومانيا مثل چوڤينال (Juvenal) مع صعوبته ، كان يدرس فى ذلك الحين فى الإقليم الطيبى [٣٤] ، مع الشرح والتفصيل المسهب ، وأن البردى الآتى من قرية أفروديتو قد كشف لنا النقاب عن وجود مواطن من أهل هذه القرية واتاه بعض التوفيق فى عمله كمحام وموثّق ، وكان مثابراً دءوباً على تدوين الشعر اليونانى (وفى هذا المضمار أحرز شهرة ، بصرف النظر عما لها من قيمة ، بأنه أردأ شاعر يونانى وصلت إلينا ثمار إنتاجه) وقد قرأ هومر وأشعاراً أناكريونية * ونونوس ** (Nonnus) ، وقد صنف معجماً يونانياً قبطياً ، أظهر فيه ما يدل على معرفته بالغريب إلى حد ما ، من الأدب التقليدى « الكلاسيكى » ، ولعله تلقى هذه المعرفة عن غيره ؛ ولم تقتصر مقتنياته على مخطوط لروايات ميناندر (Menander) فحسب ، بل إن مما يدعو إلى غرابة أشد أنه كان يقتنى كذلك مخطوطاً من كوميدية يوبوليس *** (Eupolis) المسماة « الديمات » (Demes) ****. وهذا شاعر من رجال الملهاة القديمة التى ظن بعض العلماء الحديثين أنها كانت غير معروفة فى الواقع

---

* هذه الأشعار نسبة إلى الشاعر اليونانى أناكريون (Anacreon) ، .

** نونوس شاعر من إخميم ، پانوبوليس (Panopolis) عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وألف ملحمة ديونيسياكا (Dionysiaca) يصف فيها موكب الإله ديونيسوس إلى الهند ، وهو شاعر مجيد بالمقارنة إلى أسلافه ، معروف بالتقعر . (المترجم)

*** (Eupolis) أحد كبار شعراء الكوميديا القديمة (ازدهر حوالى سنة ٤٣٠ إلى ٤١٠ ق . م) . (المترجم)

**** ألفها على سبيل التحقيق سنة ٤١٢ ق . م .

لدى القارئ العام فى هذا العصر[٣٥] ؛ وإذا كان أحد أعيان إحدى القرى فى الإقليم الطيبى يقوم بمتابعة مثل هذه الدراسات فما أعظم الرجاء بأن الثقافة الهيلينية كانت لا تزال ناهضة ، يدب فيها النشاط فى الدوائر والأوساط الأكثر أهمية !

ومع ذلك فمن الجلى أن مستقبل الهيلينية فى مصر كان مقضياً عليه ، وعندما نبلغ القرن السابع ، نجد أدلة بيّنة على أن اللغة اليونانية بكل ما تضمنته ، أخذت تخلى السبيل على عجل وتفقد مركزها فى البلاد ، فكانت اللغة القبطية قد أخذ يعم استعمالها باطراد فى الوثائق القانونية وغيرها ، بل إن الشخصيات البارزة فى الكنيسة ربما كانت تجهل اليونانية ، مثال ذلك إبراهيم أسقف أرمنت الذى أنبأتنا وصيته التى تضمنتها وثيقة بردية بالمتحف البريطانى ، بأنها أمليت باللغة القبطية ثم صيغت له باللغة اليونانية[٣٦] . والبردى الأدبى الذى بقى من ذلك العصر قليل فى مقداره ومستمد من مؤلفين فى نطاق أضيق ، والبردى اليونانى من القرن السابع وما يحتوى عليه من النصوص المسيحية مثل الترانيم وطقوس الصلوات ونبذ من الأسفار المقدسة (مما كان يستخدم فى الغالب على سبيل التمائم) ، بلغ من درجة تشويهه فى الكثير الغالب ، حداً على غير المألوف دل على أن فَهْمَ الكتبة لما يكتبون لم يكن يعدو أن يكون سطحياً إلى أقصى حد[٣٧] .

وفى عام ٦٠٨ ، أعلن هيراقل (Hêraclius) حاكم أفريقيا العصيان على فوكاس (Phôcas) المغتصب القاسى الذى خلع الإمبراطور موريس (Maurice) عن عرشه ثم قتله ، وكان هيراقل نفسه قد تقدمت به السن إلى درجة جعلته لا يرحب بتحمل عبء الحكم الإمبراطورى ، فقُدر لابنه هيراقل الأصغر أن يتولى عرش الإمبراطورية ، وقد وضعت خطة كان يتعين بمقتضاها أن يحاول نيكيتاس (Nicêtas) ابن من يلى الحاكم فى القيادة ، غزو مصر ، على حين يتجه هيراقل الأصغر صوب تسالونيكا (Thessalonica) وقد تقدم نيكيتاس محاذياً الشاطئ الشمالى . وبعد أن خاض بعض المعارك العنيفة تمكن من السيطرة على مصر قرب نهاية عام ٦٠٩ ، وفى الوقت نفسه وصل هيراقل

إلى أوربا * وأبحر فى ٦١٠ إلى القسطنطينية ، وفى الثالث من شهر أكتوبر ظهر أسطوله أمام المدينة . وكان طغيان فوكاس قد أغضب غالبية الشعب فلما سُلم بعد ذلك بيومين إلى هيراقل أعدمه وبذلك أصبح هيراقل إمبراطوراً . إنه كان قائداً ذا كفاية ممتازة ، ورجلا آمن بإخلاص بأن يبذل قصارى جهده لضمان سلامة الإمبراطورية ، وقد أوتى العزيمة وقوة البأس ولو أنه كان عرضة فيما يظهر لأن تعتريه بين حين وآخر نوبات من الخمول والانقباض ، ومرجع ذلك فى الغالب لأسباب جسمانية ، وكان لديه من الأسباب ما يسوّغ استيلاء اليأس عليه ، فمنذ بضع سنين مضت ، كانت الجيوش الإمبراطورية قد منيت بسلسلة من الهزائم ؛ فالملك الفارسى خسرو (Chesroës) كان يشن غزواً على الإمبراطورية من ناحية الشرق ، وكانت جموع الآفار وما يتبعها من شعوب سلافية ، صقلبية ** دائبة التهديد من الشمال ، وكان بريسكوس قائد عام الجيش مشكوكاً فى إخلاصه ، والخزانة شبه خالية ، وكان هناك نقص شديد فى عُدّة الرجال ، وفضلا عن ذلك فإنه يبدو أن الشعور العام السائد فى كل مكان كان ينم عن قرب النهاية المحتومة ؛ فالأعصاب منهارة ، والأمل قد ولّى ، والثقة بالنفس قد ضاعت .

وفى أول الأمر كانت الأحوال تتطور من سيء لأسوأ ، على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها هيراقل ، وكان خسرو يتوغل شيئاً فشيئاً فى داخل الإمبراطورية . وفى ٦١٤ حلّت شر البلايا بسقوط بيت المقدس ، ثم غزا الفرس مصر سنة ٦١٦ واستولوا عليها وأصبحت كل آسيا الصغرى كذلك فى قبضة أيديهم ، وكان فى وسع جيوشهم أن تنظر عبر مياه مضيق البوسفور إلى قلب المدينة الإمبراطورية ، وهى تتلألأ بأنوارها الوضاءة من فوق تلالها ،

---

* كان أصل العبارة « احتل هيراقل تسالونيكا » ولكن المؤلف رأى تعديلها على النحو الوارد فى المتن .

** عدل المؤلف النص بحذف كلمة سلافية كوصف لجموع الآفار وأضاف عبارة « وما يتبعها من شعوب سلافية ، صقلبية » .

وبدا أن هذه هى ساعة القضاء المحتوم . ولو كانت القوة البحرية الفارسية متعادلة مع القوة البرية ، لقضى الأمر بسقوط روما الشرق قبل موعد سقوطها الفعلى بثمانية قرون ، ولتُركت أوربا من غير حصنها الأمامى على حدودها الشرقية ، ولحسن الحظ صُدّ ذلك الهجوم البحرى ، ولم يعقب ذلك القيام بمحاولة أخرى. وفى سنة ٦٢٢ أعلن هيراقل رسمياً أنه يكل أمر حماية القسطنطينية ورعايتها إلى الإله المسيح وأمه ، ثم عبر البحر إلى آسيا الصغرى وخاض معركة باهرة ، حرر بها آسيا الصغرى برمتها ، وفى سنة ٦٢٣ شرع فى غزو بلاد الفرس نفسها وأحرز انتصارات مُدوية . ثم فى ٦٢٦ تجدد الخطر بتدفق جموع محشودة من الآفار من الشمال كالسيل العرم ، حاصرت القسطنطينية براً وبحراً ولاح مرة أخرى خطر ينذر بوقوع كارثة ، واستولى الذعر والهلع على الجميع * ، وبدا أنه لا سبيل إلى خلاص المدينة إلا بفضل العناية السماوية ، وعلت الصلوات من جميع الكنائس متوسلة إلى أم المسيح أن تسارع إلى مساعدة شعبها ، وقد لوحظ أن سرّ قوتها ظهر عند اشتعال النار فى كنائس القديسين كوزماس (Cosmas) ودميان (Damian) ، والقديس نيقولاس (Nikolas) فنجا محرابها فى بلاشرناى (Blachernae) دون أن يلحقه ضرر ، وقد استجيب الدعاء ، وقبلت الصلوات ، فصدت قوارب السلافيين ** وأغرقت وتراجعت جيوشهم صوب الشمال ، وفى الثالث من شهر أبريل عام ٦٢٨ وفدت بعثة فارسية إلى هيراقل تحمل نبأ وفاة خسرو وتولية ابنه خلفاً له ، ومع هذا النبأ عرض بطلب الصلح ، وقضت الشروط بانسحاب القوات الفارسية انسحاباً تاماً من الإمبراطورية ، وطبقاً لذلك أخليت مصر كذلك وعادت مرة أخرى تحت الحكم البيزنطى .

ولكن هذا لم يدم لأمد طويل ؛ فنى عام ٦٢٢ ، كان قد وقع حادث مفعم بنتائج ذات بال بالنسبة لبيزنطة وبلاد الفرس على السواء ، وذلك أنه فى

* عدل المؤلف النص هنا بحذف عبارة انتشار الذعر فى الشوارع ، مقتصراً على التعميم .

** عدل المؤلف النص هنا بحذف كلمة الآفار واستبدالها بالسلافيين .

هذا العام وجد محمد أن رسالته وتعاليمه لا تلقى لدى بنى قومه فى مكة من الترحيب ما يشجعه ، فهاجر من مكة إلى المدينة ، وما كان فى تقديره لا هو ولا أتباعه أنه استهل بهذا عهداً جديداً يعرف بالتاريخ الهجرى تؤرخ به الحوادث ، فلما وافاه الموت فى السابع من شهر يونيه سنة ٦٣٢ كان الجزء الأكبر من بلاد العرب قد اعتنق الإسلام بالفعل .

وفى الوقت نفسه كان هيراقل — حرصاً منه على توطيد أركان الإمبراطورية — قد بذل جهوداً جبارة لضمان عودة الأقباط إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية . فعمد من قبيل التسوية والتوفيق ، إلى حد قبول الهرطقة المونوثيليطية * ، وهى التى تدين بأن للمسيح فى الحقيقة طبيعتين على عكس ما يقول به المذهب المونوفستى ، ولكنه ذو إرادة واحدة فقط ، وكان يبدو له أن أصحاب مذهب الطبيعتين ومذهب الطبيعة الواحدة قد يلتقيان فى هذه النقطة . ولكن المصريين لم يكونوا على استعداد للتسليم وقبول هذا الرأى ، وإنما اتجهت رغبتهم إلى مناوأة القسطنطينية ، وفى سنة ٦٣١ عيّن هيراقل أسقفاً يسمى قورش (Cyrus) ، ليشغل وظيفة بطريق الإسكندرية ، وهو من الذين اعتنقوا مذهب أصحاب الإرادة الواحدة وكان فى الوقت نفسه الوالى الأغسطالى لمصر ، ولم يكن هذا الاختيار موفقاً ، فقورش ، الذى جعلت منه البينة الطفيفة التى فى متناولنا ، صورة يشوبها الخفاء ، بل ويعتريها الإبهام ، يبدو أنه كان رجلا قلق المزاج ، ولما وجد أنه لا سبيل إلى جعل القبط يعتنقون المذهب الجديد ، بدأ حملة عنيفة من الاضطهاد ، وبذلك استغضب نفس الشعب الذى كان قد أرسل من أجل كسب عطفه والعمل على استرضائه .

وكانت الحاجة ماسة إلى كسب ما يمكن الحصول عليه من الولاء حيثما كان . وعقب وفاة محمد واجه أبو بكر الخليفة الأول ، ثورة قامت بها بعض القبائل * *

---

* المونوثيليطيون (Monotheletai) هم أتباع شيعة من الهراطقة ظهروا فى القرن السابع الميلادى ، وتقول هذه الشيعة بأن المسيح له إرادة واحدة . والكلمة مشتقة من monos = واحد + theletes ومعناها الشخص الذى يبغى شيئاً . (المترجم)

* * تعرف هذه الثورة فى التاريخ الإسلامى بحركة الردة . (المترجم)

على أنها أقمعت بنجاح ، وبعد فترة قصيرة كانت كل بلاد العرب قد دانت لسلطان الخليفة وأصبحت قبائلها المعروفة بقوة المراس والبأس الشديد والجرأة والبسالة — بعد أن تضخمت أعدادها حتى ضاقت بها ما فى البلاد من موارد قليلة وامتلأت النفوس بفورة النشوة والحماسة للعقيدة الجديدة القائمة على روح الجهاد — على أتم أهبة واستعداد للتوسع والفتح ؛ وسرعان ما اكتسحت جيوش العرب جميع ما كان أمامها فى سوريا ، وفى سنة ٦٣٧ وقع أول صدام بينها وبين الفرس ، وإزاء هجوم قوات العرب تحطمت إمبراطورية الساسانيين الشاسعة وتداعت أركانها بعد أن لحق بها الخراب والدمار التام .

وفى ٦٣٩ كان أحد قواد العرب البارزين وهو عمرو بن العاص الذى كان له فضل كبير فى غزو سوريا ، قد حصل من الخليفة الثانى عمر ، على إذنه وموافقته بعد إباء وتمنع ، بفتح مصر ، ولو أن أربعة آلاف من الرجال فقط هم الذين كان فى الإمكان الاستغناء عنهم للقيام بهذا المشروع ، وأنه لم يكن لدى العرب أية مدفعية مما يلزم لضرب الحصار حول الحصون ؛ وبحسب ما جاء فى أقوال المؤرخين العرب ما صل عمرو إلى مقربة من مكان موقعة رفح * حتى لحق به رسول سلمه خطاباً من الخليفة ، فلما ارتاب فيما يمكن أن يحتويه هذا الخطاب لم يفضه حتى وصل إلى العريش ، ثم فض خاتمه وقرأ ما جاء به على النحو الآتى : « من أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . إذا وصلك هذا الخطاب قبل أن تكون قد عبرت حدود مصر فارجع ، ولكن إذ ا وصلك بعد دخولك أرض مصر فتابع المسير والله معك » . وقد التفت عمرو إلى هيئة أركان حربه وسألهم : « هل هذا المكان فى سوريا أم فى مصر ؟ » فكان الجواب :

* تقع رفح على حدود مصر الشرقية وفيها حدثت معركة مشهورة فى تاريخ الدولة البطلمية ٢١٧ ق . م . بين ملك مصر بطلميوس الرابع (فيلوباتور) وبين ملك السلوقيين ، أنطيوخوس الثالث وقد كتب النصر فيها للجانب المصرى بفضل بلاء القوات المصرية المعروفة بهيئات الماخيموى (machimoi) بعد أن دربت أحسن تدريب على أساليب القتال اليونانية المعروفة فى ذلك الحين . وعقب النصر امتلأت نفوس المصريين والعناصر الوطنية (laoi) زهوا واعتدادا بالنفس وبدأت تلك العناصر تتألب على ملوك البطالمة وتطالب بالمساواة فى الحقوق مع اليونانيين . (المترجم)

« إنه فى مصر » . وعندئذ قرأ عمرو الخطاب بصوت عال وأعلن « أن الجيش سوف يتابع المسير والله معنا » .

أما ما تبع ذلك فلم يكن ينطوى بالضبط على المعجزة التى ظن البعض أنها وقعت ، فلم يكن لدى عمرو سوى أربعة آلاف من الرجال عندما عبر الحدود ولكنه قبل موقعة هليوبوليس الفاصلة كانت قد وصلته إمدادات تبلغ نحو اثنى عشر ألفاً أخرى ، أما أعداد القوات الإمبراطورية فقد بولغ فيها كثيراً ويحتمل أنها لم تبلغ فى مجموعها أكثر من نحو ثلاثين ألفاً ، موزعة فى أنحاء البلاد فى مختلف القلاع ؛ ويحتمل أن الكثير منها لم يكن عالىَ القدر[٣٨]. وفضلا عن ذلك فإنه كان من المستحيل أن تتركز كل هذه القوات فى موقع واحد بالذات فى التو والساعة ، وقد بدت إذ ذاك العواقب الوخيمة من جراء سياسة چستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة روعى فيها التطابق ، فكل واحد منهم كان يفكر فى منطقة نفوذه فقط ، بل إننا نعلم أنه عند وصول العرب عَجَّل دوق الإقليم الطيبى بجمع الضرائب وارتحل هارباً بما جمعه إلى الإسكندرية .

وبعد أن حلت الهزيمة بالجيش الإمبراطورى عند هليوبوليس ضرب عمرو الحصار حول بابلون وهى الحصن الكبير عند رأس الدلتا ، وقد تم احتلال إقليم الفيوم ولكن صمدت بابلون فى المقاومة وبدأ عمرو المفاوضات مع قورش (Cyrus) الذى قبل الموافقة على أسس تقوم عليها معاهدة الاستسلام[٣٩]. ثم ذهب إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور الذى نقضها فى الحال وبعث به إلى المنفى ؛ ولكن هراقل كان إذ ذاك يعالج سكرات الموت ، وتأخر بموته فى الحادى عشر من فبراير سنة ٦٤١ ، إرسال الإمدادات بسبب تباين الآراء بين السلطات القائمة فى العاصمة ؛ وفى أبريل سنة ٦٤١ سقطت بابلون وزحف العرب إلى الإسكندرية فاعترضت سبيلهم القوات الإمبراطورية التى أظهرت من الشجاعة والاستبسال والروح المعنوية العالية ما يفوق ما كان لدى قوادهم ؛ وفى هذه الفترة كان قورش قد أعيد إلى منصبه ،

فلما وجد أن الإسكندرية قد مزقها الحزبية وأصبحت مستعدة لتقبل الهزيمة والاستسلام لليأس ، عقد مع العرب معاهدة تضمنت الموافقة على قيام المدينة بدفع جزية معلومة وجلاء القوات الإمبراطورية عنها خلال أحد عشر شهراً وضمان حماية المسيحيين واليهود . ولم تصل أية إمدادات من القسطنطينية ، وفى اليوم السابع عشر من سبتمبر سنة ٦٤٢ جلا الجيش الإمبراطورى عن الإسكندرية وأبحر من مرفئها ، وفى التاسع والعشرين من نفس هذا الشهر سارت جيوش العرب إلى المدينة العظيمة وقد تملكتها الدهشة والعجب من تلك البوائك والأروقة الرخامية التى امتدت لمسافة أميال كثيرة وما بتلك المدينة من قصور فخمة .

وإلى هنا تأتى خاتمة قصة مصر الهيلينستية ؛ فالبلاد التى تحولت أنظارها من الشرق بفضل انتصارات الإسكندر ، وأخذت تشرئب أعناقها من الماضى إلى الغرب وتتطلع إلى المستقبل — عادت سيرتها الأولى تنتظم فى العالم الشرقى الذى كانت تؤلف جزءاً منه . ولكن ذلك العالم ، سواء الشرقى أو الغربى منه ، كان شديد الاختلاف عما كان عليه أيام الإسكندر — فلاذت نبوءة آمون بالصمت الرهيب وهُجرت المعابد الكبرى فى مصر أو تحولت إلى أديرة قبطية ، وكان الناس فى الكنائس المسيحية والأديرة بأوربا وآسيا ، يحاجون فى نقاط دقيقة فى اللاهوت ، استنبطها الفكر اليونانى مما جاء فى تعاليم نبى يهودى وما كان فى حياته ومماته من مغزى ؛ وأخذ يدوى حينذاك صوت المؤذن من فوق المآذن فى كثير من الجوامع ببلاد العرب والبلدان المجاورة وهو يدعو الناس « الله أكبر ، ولا إله إلا الله » وما لبث الإسلام الذى نعته ممسون (Mommsen) بأنه «كالجلاد الذى أجهز على الهيلينية » أن عمد هو نفسه إلى الاقتباس كثيراً من العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية إلى أن أسلمها بدوره إلى المفكرين فى أوربا الغربية . وكان على المهرة من الصناع المصريين أن يعملوا فى تشييد المساجد فى بيت المقدس ودمشق . وقدر للكثير من عناصر الزخرفة والزينة فى الفن مثل ورقة السنط وحالق الكرم وأغصانه أن تنتقل من الفن اليونانى القبطى إلى ذخيرة العناصر الفنية التى يقدمها

المهندسون المعماريون المسلمون للطالبين ، ثم بقيت آثار هذه وتلك هنا وهناك في المباني المسيحية التي قامت في جنوب أوربا ، فكان مصير رسالة الإسكندر وأعماله التي مُنيت بالحد والقصر في نطاق معلوم بسبب الموت العاجل الذي هصر شبابه ، فأسيء فهم رسالته وأهملت على أيدي خلفائه — أن قدر لها مع ذلك الخلود والبقاء بعد موت صاحبها ، فأوربا وآسيا قد تم في الحق زفافهما على نمط وأسلوب ما ، وإن لم يكن مطابقاً تمام المطابقة للخطة التي رسمها وابتدعها الإسكندر ، وما كان في وسع إحداهما على الإطلاق أن تعود سيرتها الأولى .

الحواشى

الفصل الأول

١ — هيرودوت ، الكتاب الثانى فصل ٣٥، ترجمة رولنسون (Rawlinson)

٢ — هيرودوت ، الكتاب الثانى ، فصل ٤

٣ — تسمى عادة « بحيرة موريس » ، ولكن سير ألن هـ . جاردنر أظهر (فى مجلة الآثار المصرية ، العدد ٢٩ لسنة ١٩٤٣ صفحات ٣٧ — ٤٦) أن عبارة هيرودوت وهى « البحيرة المسماه موريس » (Moirios kaleomenê limnê) تكاد تكون صحيحة على سبيل اليقين .

٤ — جاء وصف صناعة البردى وعملياته فى پلينى ، التاريخ الطبيعى ، ١٣ ، ٧٤، ٧٧— ٨٢ . أنظر نافتالى لويس (N. Lewis) فى كتابه « صناعة البردى (L'Industrie du Papyrus) ص ٤٦ وما يليها ، حيث ذكرت الأجزاء التى لها صلة بهذا الموضوع وترجمت ونوقشت .

٥ — فى استعمال هذا الاصطلاح ، اتبعت الرأى القديم القائل بأن صناعة البردى كانت احتكاراً فى يد الحكومة على عهد الإمبراطورية البيزنطية . ويعترض « نافتالى لويس » فى كتابه السالف الذكر (صفحات ١٥٩ — ١٦٣) على هذا الرأى ويسوق الأدلة على ذلك . وقد يكون مصيباً ولو أنى لا أجد فى حججه ما يقنعنى تماماً .

٦ — يوجد وصف شائق ومفيد جداً لصناعة دفتر لا يزال فى حالة جيدة من الحفظ (مؤلف من بضعة ألواح) ويحتوى على وصية لاتينية وقد ذيل بصور طبق الأصل ورسوم ، قدمه أكتاف جيرو (O. Guéraud) وبيير چوجيه (P. Jouguet) فى مقال عنوانه :

"Un testament latin per aes et libram de 142 après J.C."

منشور فى مجلة الدراسات فى علم البردى (Études de Papyrologie) ، العدد السادس لسنة ١٩٤٠ صفحات ١ وما يليها واللوحات ١ — ٦ .

٧ — فيما يختص ببردى تمويس (Thmouis Papyri) انظر P. Ryl. II, (a) 213-22, 426-33 ؛ ڤكتور مارتان (V. Martin) فى مقالة : "Un document administratif du nome de Mendès" فى مجلة Studien zur Palaeographie und Papyruskunde ، العدد السابع عشر صفحات ٩—٤٨ ووردت المراجع فى هذا المقال ص ٩ ، ويصح أن يضاف هنا أن أسباباً عرضية مشابهة تفسر الحالات القليلة الخاصة بكشف أوراق بردية فى أمكنة أخرى غير مصر . وهذه هى : هيركولانيوم حيث غطى الرماد والطين* معالم المدينة فحفظ مجموعة كبيرة من لفائف البردى فى بيت اتخذ محلا مختاراً لمدرسة فلسفية من الابيقوريين ، ودورا—يوروباس (Dura-Eurôpas) على الفرات ، حيث حدث أن كانت الحامية الرومانية تتوقع هجوما من قبل الفرس فى منتصف القرن الثالث بعد الميلاد فعمدت إلى تقوية حائط المدينة فى بقعة ما بتكديس أكوام من الأتربة من خلف هذا الحائط وبذلك غطيت المبانى من تحت هذه الأكداس ، وعلى هذا النحو حفظت الوثائق المكتوبة على الرق والبردى مما كان موجوداً فى داخل هذه المبانى من تأثيرات الجو . وفى عوجا الحفير ** فى جنوب فلسطين حيث حفظت بطريقة مماثلة مجموعة من لفائف البردى بتخزينها تحت أرضية كنيسة مخربة .

— توجد مجموعات أخرى فى مكتبة جامعة ميتشيجان وفى مكتبة جامعة برنستون (وهى لمستر جون هـ . شيد (Scheide) وفى ڤينا وفى حيازة مستر ولفرد مرتون (Wilfred Merton)

٩ — ف . پرايسيجكى وكيسلنج (F. Preisigke & E. Kiessling) فى موسوعة الكلمات الواردة فى البردى اليونانى والنقوش اليونانية Wörterbuch

* عدل المؤلف عبارته من كلمة لافا إلى الرماد والطين .

** الآن منطقة حرام بين الحدود المصرية والإسرائيلية .

der griechischen Papyrusurkunden mit Einschluss der griechischen Inschriften Aufschriften Ostraka Mumienschilder usw. aus Agypten 1925, vol. I A-K, vol. II, L-W. 1927, vol. III Besondere Worterliste 1931 وترد الإشارة إليه هكذا .W B وظهر الجزء الأول من المجلد الرابع سنة ١٩٤٤ .

١٠ — يحتوى كتاب أسماء الأعلام (Namenbuch) لمؤلفه ف. پرايسيجكى (F. Preisigke) على جميع أسماء الأفراد من يونانية ولاتينية ومصرية وعبرية وعربية وغير ذلك من السامية وغير السامية ، على نحو ما وردت فى الوثائق اليونانية (من أوراق بردية وشقافة ونقوش وبطاقات الموميات وغير ذلك) مما عثر عليه فى مصر نفسها ، صدر ١٩٢٢ ويعرف باسم (Namenbuch) . وإن ثبتاً بأسماء الأمكنة ليؤلف قسم ١٦[1] من الحواشى الخاصة فى الجزء الثالث من كتاب الكلمات (Worterbuch)

١١ — والموسوعة المعروفة بعنوان (Sammelbuch Griechischer Urkunden aus. Agypten) ، والشاملة على الوثائق اليونانية التى كشف عنها فى مصر ، قد بدأ فى جمعها ونشرها العالم ف . پرايسيجكى (F. Presisigke) الذى كان مشرفاً على الجزء الأول (من رقم ١ — ٦٠٠٠) وقد صدر سنة ١٩١٥ والجزء الثانى (فهارس) صدر سنة ١٩٢٢ واستمرت هذه الموسوعة تصدر بعد موته فى أجزاء متوالية واضطلع بهذا العمل ف . بيلابل (F. Bilabel) الذى تسبب عن موته فى أثناء الحرب توقف هذا العمل (ويرجى أن يكون ذلك لفترة مؤقتة) (.SB) .

١٢ — Berichtigungsliste der Griechischen Papyrusurkunden aus Agypten وصدر الجزء الأول لمؤلفه ف . پرايسيجكى (F. Preisigke) سنة ١٩٢٢ ، أما الجزء الثانى (الذى يشتمل على الوثائق الواردة على الشقافة) فقد أصدره ف . بيلابل (F. Bilabel) (١٩٢٩ ، ١٩٣٣) (.BL)

١٣ — جرادنفتز (O. Gradenwitz) ، فهرس عكسى للكلمات الواردة

فى الوثائق البردية اليونانية وعنوانه :

Heidelberger Kontrarindex der griechischen Papyrusurkunden, 1931.

ويجرى إعداد فهرس عكسى لأسماء الأعلام بوساطة أخصائية هولندية فى علم أوراق البردى هى الدكتورة إ . ب . ڤيجنر (E.P. Wegener) .

١٤ — "Archiv für Papyrusforschung" (Archiv) ومن المسموح به أن تنشر فى هذه المجلة مقالات بالألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية .

١٥ — مجلة للدراسات فى علم أوراق البردى (Études de Papyrologie) وتصدر فى القاهرة . وصدر أخيراً سنة ١٩٧١ العدد التاسع من هذه المجلة .

١٦ — مجلة للدراسات القانونية فى علم البردى (Journal of Juristic Papyrology) وتصدر فى وارسو وكان رئيس تحريرها روفائيل تاوبنشلاج (R. Taubenschlag).

١٧ — P. Rev. ، ثم انظر ما بعد ذلك قائمة بالمؤلفات المنشورة فى علم البردى .

١٨ — بردى تبتونس (P. Tebt.) الجزء الثالث رقم ٧٠٣ .

١٩ — البردى اليونانى فى مجموعة برلين B.G.U. الجزء الخامس ، تعليمات الإديوس لوجوس ، Der Gnomon des Idios Logos ، الجزء الأول ويشتمل على النص ، قام بنشره و. شوبارت (W. Schubart) ١٩١٩ ؛ والجزء الثانى ويشتمل على التعليق قدمه سنة ١٩٣٤ Woldemar Graf Uxkull بالاشتراك مع Gyllenband وترجم النص إلى العربية وعلق عليه زكى على (تحت الطبع) .

٢٠ — انظر البحث المعنون « بطلمية فى صعيد مصر » (Ptolemais in Oberagypten ، لمؤلفه ج . پلاومان (G. Plaumann) منشور فى Leipziger Historische Abhandlungen, Heft XVIII, 1910.

الفصل الثانى

١ – إن بحثاً حديثاً لهذا الموضوع قام به پيير چوجيه (P. Jouguet) عنوانه
"Alexandre à l'oasis d'Ammon et le témoignage de Callisthène", Bull. de l'Inst. d'Egypte, XXVI, 1944, pp. 91-107.
وفى صفحة ٩٢ من هذا البحث وردت ملاحظة رقم ١ بها ثبتٌ بالمناقشات السابقة .

٢ – فيما يتعلق بموضوع بنوة الإسكندر المزعومة لزيوس ، انظر و . و . تارن فى كتابه عن الإسكندر الأكبر (كيمبردج ١٩٤٨) الجزء الثانى صفحات ٣٤٧ – ٣٥٩ . ويعتقد تارن أن التعرف على زيوس آمون والمقابلة بينهما كانت لا حقة على الإسكندر*

٣ – و . و . تارن فى مقاله « الإسكندر الأكبر ووحدة البشر »
"Alexander the Great and the Unity of Mankind" (Proc. Brit Acad. XIX, 1933, pp. 123-66.)
انظر پلوتارك ، حياة الإسكندر ، ٢٧ : « روى عنه أنه قال إن الله هو الوالد المشترك لجميع الناس ،وأنه يصطفى خيارالناس بصفةخاصةويعدهم من أنصاره »

٤ – P. Eleph. 1 — M. Chrest. 283; Hunt & Edgar, Select Papyri, I, 1.

٥ – تشيريكوفر فى مجلة ميصرايم V. Tscherikower, Mizram, IV-V, 1937, pp. 43-5. وقد بيَّن كاتب هذا المقال أن سياسة بطلميوس الثانى فى سوريا كانت مغايرة تماماً وعدَّد خمس مدن يونانية عُرف أنها أسست فى عهده ، على أن سياسة فيلادلفوس فى مصر كانت ، مثلها مثل سياسة خلفائه ، هى عين سياسة والده .

٦– انظر كورنمان فى مقاله «السياسة الساتربية لأول ملوك البطالمة :
Kornemann, "Die Satrapenpolitik des ersten Lagiden"

---

* أضاف المؤلف هذه الحاشية واقتضى هذا تعديل جميع الأرقام التالية فى كل هذا الفصل .

في مجلة عنوانها .Raccolta... in onore di Giacomo Lumbroso pp. 235-45
وقد اتبعت هذا الرأى فى مقالى المعنون « الإسكندرية » والمنشور فى مجلة الآثار المصرية . Journ. Eg. Arch. ، العدد ١٣ ، لسنة ١٩٢٧ ص ١٧٢ .

٧ — انظر م . رستوفتزف (M. Rostovtzeff) فى كتابه : "The Social and Economic History of the Hellenistic World" الجزء الأول ص ٢٧٥ حيث ترك الموضوع معلقاً ، فاليونانيون كانوا بالتأكيد خاضعين لأداء بعض الأعباء والخدمات الإجبارية (liturgies) .

٨ — إن بردية زينون رقم ٦٦ فى مجموعة كولومبيا (P. Col. Z. 66) من شخص ليس بيونانى ويميل ناشرو هذه المجموعة البردية إلى اعتباره أعرابياً ولكنه قد يكون مصرياً ، تدل بصرف النظر عن جنسية كاتب هذا الخطاب ، على الإحساس بالحطة والمهانة العنصرية التى كان يعانى آلامها بعض الأسيويين والمصريين : « إنهم ينظرون إلىّ شذراً لأننى « بربرى » وعلى ذلك فإنى أتوسل إليك أن تتفضل فتأمرهم بأن يعطونى ما هو حق لى وفيما يتعلق بالمستقبل أن يدفعوا لى أجرى بانتظام ، حتى لا أموت جوعاً ، والسبب فى ذلك أنى لا أستطيع الكلام باللغة اليونانية (؟) » ويترجم ناشرو الخطاب كلمة (hellenizein) على النحو الآتى : يقوم بدور الهيلينى ، ولكن حتى إذا كان ذلك الخطاب اليونانى قد كتبه الشخص نفسه ، وهو أمر ليس مؤكداً بحال ما ، فإن تلك الكلمة قد تكون مجرد وسيلة فيها شىء من المبالغة للتعبير عن المعنى الآتى « إنى لست ملماً باللغة اليونانية » ، كلير بريو (Claire Préaux) فى كتابها « اليونانيون فى مصر » (Grecs en Egypte) ص ٦٩ (١٠).

٩ — P. Lond. 1, p. 48 No. 43.

١٠ — يقول كليمان من أهل الإسكندرية ((Clement (Protrept. IV)) إن التمثال أرسل فى رأى البعض ، إلى بطلميوس الثانى فيلادلفوس ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أن بطلميوس الأول هو الذى ابتدع هذه العبادة ؛ انظر

جوجيه فى مقال ص ١٦٣ الوارد فى الحاشية رقم ٢٨ فيما يلى * .

١١ — .U.P.Z. 1, pp. 18-37 وفيما يختص بسيراپيس انظر كذلك
C.E. Visser, Gotter und Kulte im ptolemaischen Alexandrien pp. 203.

١٢ — ومع ذلك فإن توالى الأكلات الخاصة بطقوس العبادة إكراماً لسيراپيس فى أكسيرنخوس (وبلا ريب فى غيرها من البلاد) ، يدل على أن هذه العبادة لم تكن بحال من الأحوال مقصورة على الإسكندرية .

١٣ — إن تقديراً بديعاً لما كان للمؤثرات المصرية على الثقافة الهيلينية فى مصر قدمته الآنسة كلير بريو فى مقالها Les Egyptiens dans la civilistion hellenistique d'Egypte", Chronique d'Egypte XVII, 35 (1943) pp. 148-60.

وفيه تؤكد ما كان للمعابد من أهمية باعتبارها مراكز لاستخدام الكتابة المصرية القومية « ومستودعات لحضارة باقية دون أن تمس » .

١٤ — إن بردية ديموطيقية شيقة محتوية على جزء من القانون المصرى ، كشف عنها فى سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ فى منطقة حفائر تونة الجبل ، جبانة هرموبوليس القديمة (الأشمونين) وللوقوف على بيان ملخص عنها ، انظر جرجس متى فى مقاله :

A Preliminary Report on the Legal Code of Hermopolis West, Bull. de l'Inst. d'Egypte, XVIII. 1941, pp. 297-312.

نشر المعهد الفرنسى النص مترجماً للدكتور متى أخيراً .

١٥ — P. Tebt. 1, 5; 207-20.

١٦ — E. Kiessling, "Streiflichter zur Katokenfrage", Actes du Ve. Congrès International de Papyrologie, 1938, 213-29 (pp. 215).

١٧ — K. Sethe, J. Partsch, Demotische Urkunden zum agyptischen Burgschaftsrecht (Abh. der Phil. Hist. Klasse der Sachs. Akad. der Wise. XXXII, 1920) No. 7, p. 129.

وهذه الوثيقة مؤرخة فى سنة ٢٠٢ ق . م .

* أضيفت الفقرة الأخيرة المتضمنة الإشارة إلى جوجيه بناء على طلب المؤلف .

١٨ — تارن ، الحضارة الهيلينستية .

W.W. Tarn, Hellenistic Civilisation, 2nd. Ed. 1930, p. 164.

١٩ — فيما يتعلق بزينون وأوراقه انظر ، ضمن مراجع أخرى ، م. رستوفتزف : A Large Estate in Egypt ، (المنشور ضمن مطبوعات جامعة وسكونسن (Wisconsin) رقم ٦ ماديسون (Madison) ١٩٢٢ ؛ ثم بل. H.I. Bell, في "A Greek Adventurer in Egypt" في مجلة أدنبره (Edinburgh Review) عدد ٢٤٣ لسنة ١٩٢٦ صفحات ١٢٣ — ١٣٨ وفيها تحليل ونقد للمرجع السابق ؛ القسم الأول من مقدمة إدجار فيما نشره من مجموعة بردى متشيجان ؛ ف. تشيريكور (V. Tscherikower) «فلسطين فى حكم البطالمة» (Palestine under the Ptolemies) وهى من قبيل المساهمة فى دراسة أوراق بردى زينون) وهذا البحث منشور فى مجلة مصرايم (Mizraim IV-V, 1937, pp. 990 كلير بريو فى كتابها « اليونانيون فى مصر فى ضوء ماجاء فى أرشيف زينون » :
"Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon", Brussels, 1947.

٢٠ — فى وثيقة بردية غير منشورة من أرشيف زينون فى المتحف البريطانى .

٢١ — أثينايوس (Athenaeus) V. 200 f. - 201.

٢٢ — من بردى زينون ، مجموعة القاهرة ، الوثيقة المنشورة برقم ٥٩١٥٧ .

٢٣ — فيما يختص بالمصارف فى مصر ، أنظر :

F. Preisigke, Girowesen in griechischen Agypten, Strasbourg, 1910; J. Desvernos, "Banques et Banquiers dans l'Egypte Ancienne", Bull. So- Roy. d'Arch. d'Alexandrie, No. 23, 1928, pp. 303 ff.

٢٤ — ترك رستوفتزف فى كتابه "Hellenistic World" ٤٠٦ ، الموضوع معلقاً دون أن يبت فيه برأى.

٢٥ — و. و. تارن — « الحضارة الهيلينستية » ، الطبعة الثانية ص ١٦٧ .

٢٦ — يعتقد تارن فى الكتاب السالف الذكر ص ١٦١ أن الإسكندر لم يؤسس مدينة من الطراز المألوف پوليس (polis) « فمؤسساته كانت فى أغلب الظن

من طابع جديد مختلط » وإنه لمن المخاطرة الشديدة أن نفترض هذا دون أن تكون لدينا بيّنة حقة.

٢٧ — يعتقد رستوفتزف ، فى كتابه عن العالم الهيلينستى (Hellenistic World) ص ٩٢٧ وما يليها ، أن الرياح الموسمية لم تكشف فى العصر الرومانى ، بل فى أثناء حكم بطلميوس يورجيتيس الثانى (١٤٥ — ١٠٧ ق.م ولكن حججه لا تبدو لى أنها ترجح الحجج التى تؤيد الرأى الآخر.

٢٨ — يبدو الآن بجلاء أن الموقع قد أصبح من الممكن التعرف عليه ، أنظر مثلا مجلة الدراسات الهيلينية Journ. of Hell. Studies LXV, 1945, pp. 106-8. وتدل اللوحات التى عثر عليها ضمن المحتويات التى اشتمل عليها الحجر الأساسى على أن المؤسس هو بطلميوس الثالث ولكن هذا الجناح الخاص به لا يمكن أن يكون بحال هو أول المؤسسات . وعن عبادة* سيرابيس انظر الآن پير چوجيه (P. Jouguet) فى مقاله المعنون

"Les premiers Ptolémées et l'Hellénisation de Sarapis"

فى الكتاب المقدم تخليداً لذكرى يوسف بيدى وفرانز كومون

Hommages à Joseph Bidez et à Franz Cumont (Bruxelles, coll. Latonus II) pp. 159-66.

وفيما يختص بالسرابيوم فى الإسكندرية انظر بصفة خاصة الصفحات ١٦٠ — ١٦٢ من هذا المقال .

٢٩ — كان التالنتوم يحتوى على ستة آلاف من الدراخمات وبالسعر الحالى للجنيه الإسترلينى يمكن حساب القيمة الفضية للتالنتوم على اعتبار أنها تساوى نحو ٤٠٠ جنيه استرلينى .

٣٠ — ارجع إلى مقال حديث عن أرستارخوس (Aristarchus) كتبه م . ميرهوف ، (M. Meyerhof) عنوانه .

"Aristarque de Samos", Bull. de l'Inst. d'Egypte, XXV, 1943 pp. 269-74.

---

* ابتداء من هنا حتى نهاية هذه الحاشية ، أضاف المؤلف هذه الفقرات ضمن التعديلات الأخرى .

٣١ — فى مقال بديع شيق عنوانه « البطالمة والعمل على إسعاد رعاياهم »
The Ptolemies and the Welfare of Their Subjects.
وهو منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى .
Actes du Ve. Congrès International de Papyrologie pp. 565-79.
وكذلك فى American Historical Review, XLIII, 1938, pp. 270-87.
ناقش ويليام لن وسترمان الموضوع ، مبينا أنه على الرغم مما يوجه للبطالمة من نقد شديد لحكمهم ، فقد أظهروا اهتماماً ورعاية بالمصالح التى كانت تهدف إلى خير المصريين ، وأن العداء الذى كان يكنه الأخيرون نحو الأسرة بولغ فيه كثيراً . وإن وسترمان لعلى حق بالتأكيد فى تفنيد الرأى القائل بإدانة نظام حكم البطالمة وإلقاء اللوم عليه بصفة مطلقة ، مع أن هذا النظام بوجه عام إذا قورن بالحكم الرومانى بدا أنه أفضل ، ولكن وسترمان ربما كان منحازاً أكثر من اللازم لهذا الحكم البطلمى .

٣٢ — وعلى ذلك يقارن ثيوكريتس (Theocritus) هذا الزواج بالزواج بين الأخ وأخته عند الآلهة الأوليمبية : « إنه وقرينته النبيلة الجميلة التى جعلت من نفسها زوجة له هى خير من أى زوجة اتخذها عريس فى أى بيت ، نظراً لأنها أحبته بكل جوارحها وجمعت بين محبة الأخ والزوج فى شخص واحد . وكما كان القران المقدس فى عالم السموات يعقد بين أولئك الذين حملتهم ريا (Rhea) ذات القدر الرفيع ليكونوا حكاماً فى أولمبوس فكذلك تعد إيريس (Iris) العذراء أبد الدهر بيديها المخضبتين بالمر ، سريراً واحداً ليكون مخدع نوم زيوس وهيرا » (من الأشعار الراعوية قصيدة ١٧ أسطر ١٢٨ — ١٣٤ ترجمة ج . م . إدموند س (J.H. Edmonds) أما عن تسمية عدد من الشوارع فى الإسكندرية باسم أرسينوى مقروناً فى كل حالة بإحدى الإلهات اليونانيات ، فرجعنا إلى ه . إ . بل فى مجلة Archiv, VII, 1924 pp. 21-4.

٣٣ — هذا مقتبس من ترجمة إدوين بيفان نقلا عن الترجمة الألمانية لصاحبها شبيجلبرج (Spiegelberg) وجاء هذا فى كتاب بيفان : مصر على عهد الأسرة البطلمية (Egypt under the Ptolemaic Dynasty pp. 388-9)

٣٤ — إن لتارن (فى موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم، الجزء السابع، صفحة ٧٢٧) رأياً أكثر ملاءمة عن فيلوپاتور من الصورة التى بدا عليها فى بيڤان (فى كتابه عن مصر على عهد الأسرة البطلمية صفحة ٢٢٠ وما يليها) ولكنى أعترف بأنى لم أجد حججه مقنعة . وربما كانت هناك مبالغة فى الصورة المتواترة عن فيلوپاتور، وقد يكون پوليبيوس متحيزاً ضد ذلك الملك (ولو أن هذا لم تنهض عليه بينة) ولكن الجرائم التى ارتكبت بقتل أم بطلميوس وأخيه ماجاس هى حقائق واقعة ولا بد أن الملك وافق على ارتكابها إن لم يكن هو المحرض عليها، وبينما يحتمل جدا أن الإهمال فى شئون الجيش والأسطول بدأ فى أواخر أيام بطلميوس الثالث فإنه من الواضح الجلى أنه لم تبذل أية محاولة من قبل فيلوپاتور أو وزرائه فى سبيل علاج هذه الحالة إلى أن أصبح خطر الكارثة وشيك الوقوع . وإن معاملته المخجلة لأخته وزوجته أرسينوى، لواضحة كذلك . ولابد فى الحكم على ملك أن يقاس شق من حياته بسلوك خلانه ومن اصطفاهم، وقد وصلت سمعة ندماء فيلوپاتور إلى الحضيض ولا سبيل إلى إصلاحها . والتاريخ حافل بالأمثلة التى تؤيد القول بأن دقة الحس والشعور بمنزلة الجمال، بل الشعور الدينى الخالص، وكلاهما كان متوافراً لدى فيلوپاتور على سبيل اليقين (فيما يختص بقراره بشأن عبادة ديونيسوس انظر مجموعة البردى اليونانى المنشورة فى برلين (B.G.U. VI. 1211) وكذلك المراجع الواردة فى هذه المجموعة البردية) لا يتعارض وجودهما فى نفس الوقت مع الانحطاط والفساد الخلقى . وفى مقال كتبه توندريو
(J. Tondriau,) "Les thiases, rayaux de la cour Ptolémaique".
فى مجلة باچيكية Chronique d'Egypte, XXI No. 41 صفحات ١٤٩—١٧١، يذكر الكاتب أن حفلات الشرب وغيرها من الولائم والأعياد التى كان يقيمها فيلوپاتور وغيره من ملوك هذا البيت، لم تكن حفلات ماجنة بحتة بل إنها جزء من سياسة مرسومة ولها طابع شبه دينى . ولكن حتى على فرض أن هذا الكاتب على حق فيما يقول فإن الحفلات الصاخبة التى كان يقيمها فيلوپاتور

لا يمكن أن تكون ذات سمعة طيبة عالية . وعلى سبيل المثال انظر لمحات السخط أ
المقرون بالاحتقار الذى أشار إليه إراتسثينيس (Eratosthenes) مُربى فيلوپاتور ،
عن أرسينوى فى قطعة وردت فى أثينايوس (Athenaeus, VII, 276, b — c) :
سألتْ أرسينوى رجلا كان يحمل الغصون عن اليوم الذى يحتفى بإقامته
إذ ذاك وعن اسم العيد ، فأجاب الرجل « إنه يسمى عيد القنينات وأباريق
الشراب ، فالضيوف يضطجعون على أسِرّة من البوص والجريد ويتناولون الطعام
من الأغذية التى كانوا يحملونها معهم وكان لدى كل واحد منهم قنينة أحضرها
من منزله ، ليشرب منها » فلما انصرف ذلك الرجل، نظرت أرسينوى إلينا وقالت
« يبدو أنها جماعة قائمة على الرجس ولا بد أنها تضم شمل جمع خليط جداً ،
يتناولون جميعاً طعاماً قديماً من أصناف لا تليق مطلقاً »، وكل ما نستطيع فى
الحق أن نقوله دفاعاً عن فيلوپاتور هو أن سياسته ربما اتسمت بشىء من التوافق
والتجانس الذى تجاهلت ذكره الصورة التقليدية المألوفة عنه .

٣٥ — كليربريو فى مقالها : "Un problème de la politique des Lagides
la faiblesse des édits"، وهو المنشور فى أعمال المؤتمر العالمى الرابع لعلم
أوراق البردى سنة ١٩٣٦ .

Atti del IV Congresso Internazionale di Papriologia, 1936. pp. 183-93.

٣٦ — انظر كليربريو فى مقالها : "La Signification de l'époque
d'Evergète II" ، فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم البردى صفحات
٣٤٥ — ٣٥٤ ؛ أما عن عصور التضخم فانظر كتاب ف . هيشلهيم

F. Heichelheim, Wirtschftliche Schwankungen der Zeit von Alexander bis Augustus, Jena, 1930.

٣٧ — بردى تبتونيس الجزء الثالث رقم ٦٩٨ ، وعن تاريخ هذه الحوادث
انظر الآن ، إريك . تيرنر (Eriç G. Turner) فى مجلة مكتبة جون ريلاندز
بمانشستر . Bull, of the John Rylands Library, XXXI, 1048, 4-6,

٣٨ — موسوعة كيمبردج فى التاريخ القديم الجزء العاشر ص ١١١ .

٣٩ ـــ مجلة الدراسات الرومانية (Journ. of Rom. Studies) العدد ٢٢ لسنة ١٩٣٢ صفحات ١٣٥ ـــ ١٦٠ . وقد تصدى فوكس (H. Fuchs,) فى مؤلفه Der geistige Widerstand gegen Rom in der antiken Welt (Berlin 1938) p. 36. إلى رفض قبول رأى تارن ، انظر (F. Oertel, Klassenkampf, Sozialismus und organischer Staat in alten Griechenland, Bonn, 1942, p. 63 note 133). ولكن فوكس لم يبذل أى محاولة جدية لدحض حجج تارن ، التى وإن لم تبلغ مرتبة الدليل الواضح ، فإنها مقنعة جداً .

٤٠ ـ انظر من قبيل المثال و. شپيجلبرج (W. Spiegelberg) فى مقاله عن كيفية انتحار كليوباترة بلدغة الحية .

"Weshalb wahlte Kleopatra den Tod durch Schlangenbiss ?" Agyptologische Mitteilungen (Sitzungsber der Bayerischen Akademie, 1925, Abh., 2, No. 1.)

وقد وقع شپيجلبرج فى خطأ غريب بأن تعرف على الصل أو uraeus (ناجا واچيت) على أن ذلك يمثل الحية القرناء (ص ٥) ولكن ناجا واچيت هى الصل ولو أن الحية فى جنوب أوربا تسمى vibera aspis ، وبيفان على حق فى ذكره للصل ، فى كتابه عن (مصر على عهد الأسرة البطلمية ص ٣٨٢) .

الفصل الثالث

١ — الإشارة هنا بصفة خاصة إلى الاختصاص القضائى الممنوح للموظف الكبير الملقب يوريديكوس (Juridicus)، وربما كان القاضى الأكبر (Archidicastês) يتمتع ببعض الاختصاصات والسلطات القضائية المستقلة أسوة بما كان عليه غيره فى الشئون المتعلقة بنطاق نفوذهم فكان الديويكيتس (Dioikêtês) وهو موظف مالى، له اختصاصه وكذلك الإديوس لوجوس (Idios Logos)؛ فيما يتعلق بالبريفكت انظر راينموث (O.W. Reinmuth) فى كتابه المعنون (The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian (Klio, Neue Folge 21, Beiheft) Leipzig, 1935.

٢ — "Beitrage zur antiken Urkundengeschichte", Archiv, VIII pp. 216-39.

وليست النظرية التى بسطها بيكرمان (Bickermann) مقنعة مثلما هى بالنسبة للعصر البطلمى.

— فيما يختص بضريبة الرأس انظر مقال « بيل » الذى أخرجه حديثاً وعنوانه The Constitutio Antoniniana and the Egyptian Poll-tax, Journal of Roman Studies, XXXVII, 1947, pp. 17-23.

٤ — فيما يختص بموظفى البلديات وطريقة انتخابهم، انظر

A.H.M. Jones, "The Election of the Metropolitan Magistrates in Egypt", Journal of Egyptian Archaeology XXIV, pp. 65-72.

وبخصوص رئيس الندوة الثقافية والرياضية انظر البحث الخاص الذى كتبه ڤان جرونجن.

B.A. van Groningen, Le gymnasiarque des métropoles de l'Egypte romaine, Groningen, Noordhoff, 1924.

٥ — إن الأمر لا يزال موضع خلاف فيما إذا كانت أمثال هذه البيانات والإقرارات إجبارية. ولا خوف من ترك الأمر فى تقديم شهادات الوفاة إلى الأسرة التى حدثت فيها تلك الوفاة، نظراً لأن مسئولية دفع ضريبة الرأس كانت تبقى

قائمة طالما كان اسم دافع الضريبة فى سجل الضرائب ، ولكن لم يكن لمثل هذا الدافع وجود فى حالة تقديم بيان بالمواليد ، وهذا على الأقل بالنسبة لغير المتمتعين بالامتياز ، وكان الإكراه هو الطابع الغالب فى هذه الأحوال ، على أن هذا ليس مؤكداً .

٦ — توجد مادة علمية غزيرة فيما يتعلق بهذه الوظائف وبخاصة السجل الخاص بالعقار الثابت (bibliothêkê enktêseon) ؛ انظر ثبت المراجع الخاص بالفصل العاشر من موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم ، الجزء العاشر صفحتى ٩٢٧ — ٩٢٨ وفيما يتعلق بموضوع « الوثيقة » أنظر بوجه خاص بحوث إيجر (Eger) وليوالد (Lewald) وپرايسجكى (Preisigke) وفون ووس (von Wœss) .

٧ — انظر مع ذلك ، الحاشية رقم ٢٧ الخاصة بالفصل الثانى .

٨ — XVII, 788.

٩ — إنه ليس من الإنصاف أبداً بالنسبة للرومان أن يقال عنهم مثلما فعل رستوفتزف فى موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم ، الجزء السابع ص ١٥٤ ما يلى: « هنا وهناك فى مراسيم بعض الأباطرة نسمع هذه النغمة (وهى نغمة العطف على شعب مصر) ولكن فيما عدا ذلك ندخل عند مقدم الحكام الرومان إلى مصر فى عهد ضاع فيه صوت الرأفة ولم يعد يسمع له صدى » . وفيما عدا « نفر من الأباطرة » « وبخاصة هادريان » نجد هنا وهناك فى تصريحات ولاة مصر أو غيرهم آثاراً دالة على المشاعر الإنسانية . ومما يدعو إلى غرابة شديدة تلك الطريقة التى استطاع بها الوالى الرومانى على مصر وهو تيتيانوس (Titianus) « أن يضرب صفحاً عن القانون وما به من قسوة ويأخذ برأى الإبنة ورغبتها » فأهمل مراعاة قانون مصرى قديم كان يُخَوّل للوالد السلطة فى أن يأخذ ابنته من زوجها ويبعدها عنه (أوراق بردى أكسيرنخوس ، الجزء الثانى رقم ٢٣٧ ، والسابع رقم ٣٤ ف) . وشرعية حق الوالد فى ذلك ليست محل خلاف ، وقد تصرف الوالى طبقاً لمبدأ الانصاف والعدالة لأنه كان يعتبر أن هذا القانون لا ينطوى على شىء من الإنسانية (apanthropos) ؛ وعلى العموم فالحكم الرومانى كان

مع ذلك متسماً من الناحية المالية والإدارية ، بروح الاستغلال إلى حد لا سبيل إلى تصوره .

١٠ — SB., 7462.

١١ — P. Tebtunis II, 327 = W. Chrest. 394.

١٢ — De Spec. Leg. II. 92 ff., III. 159 ff.

١٣ — P. Oxy. II, 284; 285; 393; 394.

١٤ — SB. 7462.

١٥ — أوراق البردى التى تصدر عن الجمعية المصرية لعلم أوراق البردى (وهى المعروفة سابقاً باسم (P. Fouad) رقم ٨ ، وفى هذه الوثيقة سجل شيق وإن كان لسوء الحظ غير كامل ، عن المظاهرات التى قامت فى الإسكندرية تأييداً لفسپاشيان ، وقد ورد ذكر الوالى الرومانى فى سطرى ١٨ ، ١٧ وربما كذلك فى السطر الثانى .

١٦ — انظر مقال هارولد إدريس بِل وعنوانه :

"The Economic Crisis in Egypt under Nero",

فى مجلة الدراسات الرومانية Journal of Rom. Studies XXVIII pp. 1-8

١٧ — هذا ما يوحى به على سبيل اليقين بردى، هاريس رقم ٦٤ مثلا (p. Harris 64) ولكن لما كان المرتب المذكور فى هذه الوثيقة هو مرتب وكيل، فإن البيّنة التى تسوقها هذه الوثيقة ليست بقاطعة . وفيما يختص بالأعباء بوجه عام ارجع إلى ف. أويرتل (F. Oertel) فى كتابه المعنون Die Liturgie, Leipzig, 1917

١٨ — انظر الحاشية رقم ١٩ من الفصل الرابع :

١٩ — انظر على سبيل المثال هارولد إدريس بِل فى مقاله :

"An Epoch in the Agrarian History of Egypt", Recueil Champollion, Paris, 1922, pp. 261-71.

٢٠ — أوراق بردى أكسيرنخوس الجزء ١٨ ، رقم ٢١٩٢ . والنصوص المترجمة مقتبسة من الناشر . ولم يرد ذكر لمؤلّف هيبسيكراتيس (Hypsicrates) فى أى مرجع آخر ، كما أن ثيرساجوراس (Thersagoras) لم يكن معروفاً من قبل. انظر

كذلك هـ. إ. بـِل* فى مقاله "The 'Thyestes' of Sophocles and an Egyptian Scriptorium" المنشور فى مجلة (Aegyptus) ، العدد الثانى ، صفحات ٢٨١ — ٢٨٨. وفى بيان مكتبة كانت تنشر بها مقتبسات ، ورد بخلاف (Thyestes) الثالثة ذكر رواية أريستوفانيس المسماة بلوتس (Plutus) ومؤلفات أخرى. والقطعة برمتها ، وهى فى أغلب الظن من أكسيرنخوس ، نشرها ك . أولى (K. Ohly) فى (Stichometrische Untersuchungen (Leipzig 1928) pp. 88-9.) أما عن مدى النطاق الأدبى الميسور فى محيط أكسيرنخوس فلنرجع إلى السير ف. ج كينيون (F.G. Kenyon) فى مقاله "The Library of a Greek of Oxyrhynchus". المنشور فى مجلة الآثار المصرية العدد الثامن صفحات ١٢٩ — ١٣٨ . والقائمة المذكورة فى هذا المقال يمكن الآن أن تكمل ، ففى كتاب ألفه أولدفاذر وعنوانه C.H. Oldfather, The Greek Literary Texts from Greco-Roman Egypt, Madson, 1923.

جاءت قائمة بالمؤلفات والكتب الأدبية التى كانت فى المتناول إذ ذاك ووردت إشارات إليها فى البردى وقطع الأوستراكا — وكانت هذه القائمة وافية وكاملة حتى تاريخ صدور ذلك الكتاب الحديث لمؤلفته لورا جيابانى* (L. Giabbani).وهو Testi letterari greci di provenienza egiziana (1920-45) Florence. 1946.

٢١ — فمثلا (adikos hê theos) a di kksê the os إلخ ، أكتاف جيرو (O. Guéraud) وبيير چوچيه (P. Jouguet)

Un livre d'écolier du IIIe. siècle avant J.C., Cairo, 1938 p. 14 line 121.

٢٢ — P. Oxy. VI, 930 — Select Papyri, I, No. 130

٢٣ — P. Giss. 85.

٢٤ — Oldfather, op. cit., pp. 68 ff.

٢٥ — والترجمة كذلك من عمل الناشر P Oxy. XVIII, 2190

٢٦ — P Oxy. IV, 724 — (Select Papyri, I, No. 15) وهى بردية متعلقة بالتلمذة والتمرن على كاتب خبير بالاختزال لفترة مدتها سنتان ؛ وفيما يختص

* صحح المؤلف اسم مؤلفة هذا الكتاب على النحو المذكور أعلاه .

بالاختزال اليونانى ، انظر على سبيل المثال هـ. ج. م . ملن (H J. M. Milne) فى كتابه "Greek Shorthand Manuals, London, 1934". وكذلك ا . ميتز (A. Mentz) فى مقاله "Beitrage zur hellenistischen Jachygraphie" فى مجلة ... Archiv العدد الحادى عشر صفحات ٦٤ — ٧٣ .

٢٧ — W. Chrest. 156. — P. Lond. III, 1178 وهى شهادة العضوية فى النادى الرياضى الرئيسى فى الإمبراطورية وهو المعروف باسم "The Sacred Athletic Peripatetic Hadrianian Antoninian Septimian Associàtion of the Votaries of Heracles".

وصدرت هذه الشهادة فى نابولى فى سنة ١٩٤ م لصالح مصارع من أهل مدينة هرموپوليس (الأشمونين) فى مصر .

٢٨ — وتحتوى بردية منشورة فى مجموعة بردى أكسيرنخوس ، الجزء الثالث رقم ٤١٣ ، على قصة مضحكة وتمثيلية مقلدة وهما مما كان يجرى تمثيله بلا ريب محليًّا ، وهناك أمثلة أخرى عديدة .

٢٩ — فيما يختص بهذاالموضوع ، انظر على سبيل المثال
Teresa Grassi, "Musica, Mimica e Danza"
منشورفى Studî della Scuola Papirologica, Milan, III, 1920 pp. 117-35.

٣٠ — P. Brem. 63

٣١ — بردىأمهيرست رقم ٧٠ ، ٢ — ٤ : (P. Amh. 70, 2-4) « بناء على أمر صاحب السعادة الحاكم العام روتيليوس لوبوس (Rutilius Lupus)، اقتضى تخفيض أعباء مصروفات وظيفة الجيمنا سيارك ، كيما يُقبِل أولئك الذين يرشحون لها على توليها واحتمال ما تتطلبه من مصروفات » . وفى هذا دليل على أنه كان قد أصبح من الصعب الحصول على المرشحين اللائقين ، على أنه كان لا يزال فى الإمكان رفض الترشيح ؛ وتاريخ تولى لوبوس وظيفة البريفكت (الوالى) هو من سنة ١١٣ (أو ١١٤) إلى ١١٧ م .

٣٢ — جاء فى وثيقة بردية نشرها ك . س. جاب (K.S. Gapp) فى مجلة أعمال الجمعية الأمريكية الفيلولوجية (Trans. Am. Phil. Assoc.) العدد

٦٤ لسنة ١٩٣٣ صفحات ٨٩ — ٩٧ ، ما يفيد أن هذا الامتياز ألغى حوالى ٢٥٤— ٢٥٥ م. انظر كذلك ڤيجنر (E.P. Wegener, Symbolae van Oven, Leyden, 1964, p. 182 No. 117.) أما عن وجود الامتياز فانظر بردى أكسير— نخوس ، العدد الثامن رقم ١١١٩ = W. Chrest. 397. 16 ، وعن مدينة أنطينو بوليس ومنزلتها والامتيازات الممنوحة لأهلها بوجه عام انظر هـ. إ. بل :
"Antinoopolis : A Hadrianic Foundation in Egypt"
فى مجلة الدراسات الرومانية :
Journal of Roman Studies XXX, 1940, pp. 133-147.

٣٣ — بردى أكسير نخوس ، العدد الثالث رقم ٤٧٣ = W. Chrest. 33

٣٤ — بردى رايلاندز ، العدد الثانى ، رقم ٧٧ (وتاريخ الوثيقة ١٩٢ م) وقد جاء فيها بيان مفيد وطريف (بالنسبة للقارئ الحديث) عن ترشيح شخص لتولى وظيفة كوسميتيس (cosmêtês والجهود المضنية ، وإن لم تكلل بالنجاح مما بذله المرشح فى سبيل الخلاص من هذا العبء .

٣٥ — P. Oxy. IV, 705 = W. Chrest. 407.

٣٦ — فيما يختص بهذا الموضوع انظر هـ . إ. بل ، « دلائل المسيحية فى مصر فى العصر الرومانى » فى مجلة Harv. Theolog. Rev. XXXVII لسنة ١٩٤٤ صفحات ١٨٥ — ٢٠٨ .

٣٧ — بردى رايلاندز جزء ٣ ، ٤٥٧ وقد قام بنشر هذه الوثيقة على حدة كولڤن روبرتس (C.H. Roberts) بعنوان :
An Unpublished Fragment of the Fourth Gospel, Manchester, 1935.

٣٨ — Apol. XI.

٣٩ — هذا على سبيل المثال هو الأسلوب الذى اتبعته القديسة پرپيتوا (التى يرجع الفضل إليها فيما كتبته من الشق الأول للقصة ثم تابع ذلك أحد الشهداء من أتباعها وأكمل القصة بعد استشهادهما كاتب ثالث) فيما أنبأتنا به عن قصة امتحانها : « وصلنا إلى سوق الفورَم (Forum) وفى الحال انتشر الخبر إلى الأجزاء المتاخمة للسوق وتجمع حشد كبير وقد صعدنا إلى المنصة وسئل الآخرون واعترفوا ، وأتى دورى وعندئذ ظهر والدى ومعه ابنى وجذبنى من القفص

متوسلا إلىّ بقوله « رأفة بابنك الطفل » وانبرى هيلاريانوس (Hilarianus) الحاكم المتولى الأمر فى ذلك الحين ، على أثر موت القنصل السابق مينو كيوس تيمينيانوس (Minucius Timinianus) وكانت قد آلت إليه سلطة الفصل فى الأمر بالحياة أو الموت قائلاً لى «رحمة بشيخوخة والدك ورحمة بطفولة ابنك ، قدمى القرابين والتضحيات من أجل سلامة الأباطرة » وكان جوابى « لن أفعل ذلك » فسأل هيلاريانوس « هل أنت مسيحية »؟ فأجبت « إنى مسيحية » وعندما همّ والدى بأن يجرنى من فوق المنصة أمر هيلاريانوس بإبعاده فسيق منها بعد أن انهال عليه ضرباً بهراوة ؛ وقد حز فى نفسى ما ألم بوالدى من إساءة وما لحق به من سوء الحظ كما لو كنت أنا نفسى التى ضربت . وهكذا ابتأست لشيخوخته المنكودة وبعد ذلك أصدر (الحاكم) حكمه علينا جميعاً بالإدانة وأن يلقى بنا للحيوانات المفترسة وذهبنا للسجن فرحين مستبشرين » .

((J. Armitage Robinson, Texts and Studies, vol. I, No. 2, "The Passion of St. Perpetua", Cambridge 1891, p. 70.,) ibid., "Acts of the Scillitan Martyrs" p. 114 :

(قال ساتورنينوس (Saturninus) القنصل السابق « لا شأن لكم بهذا العمل الجنونى » فأجابه كتينوس (Cittinus) « نحن لا نخاف شيئاً غير مولانا وربنا الذى فى السموات» ، وأجابت دوناتا (Donata) بقولها « الطاعة لقيصر والولاء له باعتباره قيصراً ولكن المخافة لله » وقالت فستيا (Vestia) « إنى مسيحية » وقالت سيكوندا (Secunda) « بل إن ما أنا عليه هو غاية ما تصبو إليه نفسى» وسأل ساتورنينوس القنصل السابق، سبيراتوس (Speratus) « هل أنت مُصر على مسيحيتك والتمسك بها ؟ » فأجابه سبيراتوس « إنى مسيحى » وأمَّن الجميع على قوله) .

٤٠ — انظر : J.R. Knipfing, "The Libelli of the Decian Persecution" Harvard Theol. Rev. XVI, 1923, pp. 345-90.

٤١ — انظر : J.N. Sanders, The Fourth Gospel in the Early Church, Cambridge, 1943.

٤٢ — انظر : P.N. Harrison, Polycarp's Two Epistles to the Philippians, Gambridge, 1936, pp. 257, 302.

ولست متفقاً مع هاريسون فى رأيه بأن القديس يوحنا لم تنشر رسالته حتى حوالى ١٣٥ م .

٤٣ — W. Chrest. 14 — (P. Cairo 10448 — B.C.U. II, 511)

٤٤ — H.I. Bell, (A New Fragment of the Acta Isidori), Archiv,X, PP. 5—16 (سطر ١٨ من البردية) .

٤٥ — P. Oxy. X, 1242, 25 ff.

٤٦ — P. Oxy. I. 33 (= W. Chrest. 20) 3—7. أما عن مناهضة السامية فى الإسكندرية فانظر على سبيل المثال :

U. Wilcken, "Zum alexandrinischen Antisemitismus", Abhandl. d. Kon. Sachs. Geselesch. d. Wissensch., phil. hist. Kl. XXVII, pp. 783-839; A. von Premerstein, "Zu den sogenannten alexandrinischen Martyrerakten", Philologus, Supplementband XVI, HeftII; H.I. Bell, Juden und Griechen im romischen Alexandreia (Beihefte zum "Alten Orient", Heft 9) Leipzig 1926; "Antit-semitism at Alexandria" Journal of Roman Studies XXXI, 1941, pp. 1-18.

٤٧ — Eusebius, Hist. eccles. VII, 32-5. Norman H. Baynes, The Thought-World of East Rome, Oxford, 1947, p. 26.

٤٨ — Protrept. X.

٤٩ — « عند خروج ثيودور السيكيونى (Theodore of Sykeon) من جبه ، كان أسقف أناستا سيوپوليس (Anastasioupolis) فى « جالاشيا پريما » حاضرا ولما شاهد الأسقف الصديد ينز من القروح المتفشية فى جسم ثيودور ورأى ذلك العدد الذى لا يُحصى من الحشرات والديدان وهى تسعى فى شعره المتلبد وشم رائحة النتانة التى لا تحتمل والتى جعلت من ثيودور شخصاً لا قِبَل لأحد بالاقتراب منه ، اقتنع الأسقف بطهارة ثيودور إلى درجة أن رسمه فى الحال قارئاً (عريفاً) ومساعد شماس ثم شماساً وقسيساً » (Baynes, op. cit., p. 17)

٥٠ — انظر إريك ج . تيرنر (Eirc G. Turner) « مصر والإمبراطورية الرومانية : الديكابروتيون » (Dekaprôtoi) فى مجلة الآثار المصرية (J.E. Arch.) عدد ٢٢ ، لسنة ١٩٣٦ صفحات ٧—١٩ ؛ ثم E.P. Wegener, فى Symbolae

van Oven, Leyden, 1946,pp. 167—172 ومقال الآنسة ڤيجنر (Wegener)
وعنوانه :
"The bouleutai of the metropolies in Roman Egypt" (pp. 160-90)
له أهميته القصوى بالنسبة لمجالس الشيوخ المحلية والوظائف البلدية .

٥١ — فيما يختص بهذا الموضوع انظر مقال « ڤيجنر » السالف الذكر صفحة ١٧١ وما بعدها ، وقد خلصت إلى رأى لازمها فيه التوفيق بلا ريب ، وهو يستند إلى بردية فى المتحف البريطانى مرقمة ٢٥٦٥ ، (أسطر ٦٩ — ٧٤). (انظر الحاشية رقم ٥٥) ويقضى هذا الرأى بأنه لم يكن هناك تفرقة فى موضوع النصاب العقارى كمؤهل بين الموظفين (archontes) وبين أعضاء السناتو العاديين ؛ على أن هذه البردية تشير إلى منتصف القرن الثالث ، ولا يترتب على هذا بالضرورة أنه عندما أنشئت مجالس الشيوخ لم يدخل فيها أشخاص لم يكونوا من قبل عرضة لإكراههم على تولى وظائف شرفية . وعلى أى حال فبينما كان الموظف مثقلاً بالأعباء والمصروفات التى تتكلفها وظيفته فى أثناء اضطلاعه بها فقط ، فإن عضو الشيوخ كان مسئولا باعتباره ضامناً للموظفين المرشحين لتولى الوظائف ذات الأعباء (munera) ولربما كان مسئولا كذلك عن التزامات أخرى حتى عندما لم يكن شاغلا بنفسه لوظيفة ما .

٥٢ — انظر على سبيل المثال W. Chrest., 402 — C.P.R. 20

٥٣ — إن وصفاً بديعاً لخصائص العصر قدمته كليربريو فى مقالها المعنون
"Sur le déclin de l'Empire au IIIe siècle de notre ère", Chronique d'Egypte, XVI, No. 31, 1941, pp. 123-31.

٥٤ — بردى أكسيرنخوس ، الجزء العاشر رقم ١٢٥٢ (ظهر الوثيقة) .

٥٥ — ت. سكيت (T. C. Skeat) ، إ . ب. ڤيجنر ، (E.P. Wegener)
"A Trial before the Prefect of Egypt, Appius Sabinus c. 250 A.D.", Journal of Egyptian Archaeology XXI, 1935, pp. 224-47.
وإذا كان امتياز أهل أنطينوپوليس قد ألغى حوالى ٢٥٤ — ٢٥٥ ، وهو أمر يبدو محتملاً (حاشية رقم ٣٢ أعلاه) فإن هذه الحقيقة لها كذلك أهميتها

وصداها البعيد المدى فى مركز حواضر الأقسام .

٥٦ — فيما يختص بضريبة التاج انظر س. ل . والا س (S.L. Wallace,)
Taxation in Roman Egypt pp. 281-4; H.I.Bell, Journal of Roman Studies XXXVII p. 20.

٥٧ — Claire Préaux, Actes du Ve. Congrès Intern. de Papyrologie p. 348.

« فى أى بلد مكتظ بالسكان ، عندما يكون المرجع فى نشأة الملكية الخاصة إلى ازدياد فى مقدرة الفرد الإقتصادية وإلى تطور شديد فى وسائل التعامل والتبادل ، نجد أن الأرض تنقسم وتتفتت إلى أقصى حد وتتحول إلى ملكيات صغيرة ، وعلى العكس من ذلك إذا كان من مقتضى ظهور الشخصية القانونية للفرد ألا تُجنى ثمار ذلك إلا فى الوقت الذى تكون فيه الحياة الاقتصادية فى حرج وضيق ، فإن الأرض المحررة من أيدى الملك يكون مصيرها بالتبعية أن تؤول فقط إلى أيدى أولئك الذين أوتوا قدراً من المقدرة الاقتصادية » .

٥٨ — توجد المجموعة الرئيسية المنشورة من هذا البردى فى أوراق بردى فلورنسة ، الجزء الثانى (P. Flor. II) ويقوم عالم بلچيكى هو الدكتور ج . بنجن (J. Bingen) فى الوقت الحاضر بدراسة أوراق بردى هيرونينوس (Hêrôninus) بما فى ذلك بعض الوثائق غير المنشورة والمحفوظة فى المتحف البريطانى وفى غيره.

٥٩ — P. Flor. II, 127 — Select Papyri, I, No. 140.

٦٠ — إن كاپيتاتيو (capitatio) ويوجاتيو (iugatio) موضوعان اكتنفتهما الصعوبات ولا يزالان محل خلاف كبير بين المؤرخين . وفيما يختص بإصلاحات دقلديانوس انظر W. Ensslin, "The Reforms of Diocletian" فى موسوعة كيمبردج للتاريخ القديم ، الجزء الثانى عشر ، الفصل الحادى عشر ، انظر الآن كذلك W. Seston: Dioclétien et la Tètrarchie, I., Paris, 1946. على أن وحدة اليوجيروم "iugerum" أكثر بقليل من نصف فدان إنجليزى* .

٦١ — A.E.R. Boak, "Early Byzantine Papyri from the Cairo Museum", no. I, Études de Papyrologie II, 1934. pp. 1-8.

* هذه الفقرة الأخيرة أضافها المؤلف .

الفصل الرابع

١ ــ انظر ما قبله فى الفصل الخاص بمصر الرومانية عن إصلاحات دقلديانوس .

٢ ــ N.H. Baynes, Cambridge Ancient History, vol. XII, p. 668.

وانظر كذلك المراجع الواردة فى هذه الموسوعة .

٣ ــ Apol. I, "Plures efficimur quotiens metimur a vobis : sement est sanguis Christianorum"

« تزداد أعدادنا كلما جرى حصدنا على أيديكم : إن فى دماء المسيحيين التى أريقت ، نبتنا » .

٤ ــ N.H. Baynes, "Constantine the Great and the Christian Church", Proceedings of the British Academy XV, 1929, p. 347.

٥ ــ الجحيم لدانتى (Inferno, XIX-115-117.) وها هو نص الفقرة :

"Ahi, Constantin, di quanto mal fu matre, non la tua conversion, ma quella dota che da ta prese il primo ricco patre !

٦ ــ « كانت رأس الألوهية واحدة وكأنما هناك خطوط تليفونية عديدة تتصل كلها برقم واحد، له على صغره، أهميته، لارتباطه بلوحات مختلفة للتوزيع والتحويل» A.D. Nock, Journal of Roman Studies XXXVII, 1947, P. 104

٧ ــ فى بردية بالمتحف البريطانى تحت رقم ١٩١٤ (P. Lond. 1914) خطاب من أحد أتباع ميليتيوس بالإسكندرية إلى زميل منشق ، جاء فيه وصف رائع للإجراءات التى اتخذها أثاناسيوس ضد أتباع ميليتيوس « إنه قبض على أسقف من الإقليم السفلى وحبسه فى سوق اللحم ، كما حبس قسيساً من نفس الإقليم فى السجن وزج بشماس فى السجن الرئيسى ، وإلى اليوم الثامن والعشرين من بؤونه كان هيرايسكوس (Heraiscus) كذلك (وهو فى أغلب الظن مناهض سكندرى للبابا ، نصبه أتباع ميليتيوس كمنافس لأثاناسيوس) محبوساً فى المعسكر ــ وإنى لأشكر ربنا الله على أن ألوان العذاب التى نزلت به قد

أوقفت — وفى اليوم السابع والعشرين أمر سبعة أساقفة بمغادرة البلاد » ؛ وفى هذا الخطاب صورة لتردده فى قبول دعوة بعث بها قسطنطين لحضور مجمع فى « صور » فى سنة ٣٣٥ م (« إن أثاناسيوس يائس جدا وكثيراً ما كان يحضر إليه الرسل وإلى الآن لم يغادر البلاد ، على أنه حزم أمتعته ووضعها على ظهر السفينة متأهباً للرحيل عن البلاد ثم كان يعود بعد ذلك لأخذ أمتعته من السفينة ، معرضاً عن مغادرة البلاد ») انظر هـ . إ . بِل ، فى كتابه :

Jews and Christians in Egypt, 1924, p. 62.

ولقراءة وصف شائع عن القديس أثاناسيوس ، انظر هـ . إ . بِل ، « أثاناسيوس : فصل فى تاريخ الكنيسة » فى مجلة .

Congregational Quarterly, III, 1925, pp. 158-176.

٨ — انظر مناقشة ڤيلكن لهذا الموضوع فى UPZ. 1, pp. 52—77

٩ — ومع ذلك فما هو جدير بالملاحظة أن تلك العادة موجودة بصفة خاصة فى الصورة الهيلينية لعبادة سيرابيس وأن أغلب المعروفين لنا من اللائذين (katochoi) كانوا يونانيين أو مقدونيين ، ويمكن من الناحية الأخرى أن نبين أن كلمة (anachôrêtês) التى اشتققنا منها كلمة "anachoiite" بمعنى ناسك تذكرنا بكلمة أنا خوريسيس (anachôrêsis) أو الفرار والاعتصام الذى كان منذ أقدم العصور هو الملاذ الأخير أمام الفلاح المصرى إذا ما نفد صبره وأصبح فى موقف لا قِبَل له به .

١٠ — "The Garden of Ptolemagrius at Panopolis فى مجلة Transactions of American Philological Association LXXVII, 1946 pp. 192-206.

ويشير مستر روبرتس (Roberts) إلى أن « جنة » إبيقور هى فى أغلب الظن الأثر الأكثر احتمالا من أى شىء مصرى .

١١ — انظر ل . كيمر (L. Keimer) فى مقاله

"L'Horreur des Egyptiens pour les démons du désert"

فى مجلة : Bull. de l'Inst. d'Egypte XXVI, 1943-4 pp. 135-47.

١٢ — P. Jews (= P. Lond.) 1923-9.

١٣ — P. Jews, 1923.

١٤ — P. Jews, 1926.

١٥ — P. Jews, 1928.

١٦ — P. Jews, 1929.

١٧ — P. Cairo Maspero III, 67295.

انظر ١ ، ١٢ ١٦ ، ١٨ — ٢٠ : « ربما يحق لى أن أقول ، إذا لم يكن من الملوم أن يطرى الإنسان نفسه ، أننى كنت أحظى لأمد طويل بسمعة طيبة بين سكان مدينة الإسكندرية العظيمة ، لأننى فى أثناء الإشراف على مدرسة بجامعتها ، كنت أحرص دائماً على المحافظة على المستوى اللائق فى المعيشة وأقبلت بكل ما أوتيته من مواهب موروثة ، على العلوم العقلية ، فى شغف واهتمام ولقنت الفلسفة لمن رغبوا فى ذلك . وكان هذا الاستعداد فى الحق ميلاً ورثته عن آبائى وأجدادى ، ذلك أنى تلقنت ذلك عن والدى ، أسكاپياديس (Asclêpiadês) المثلث الرحمات ، الذى عمل وكدّ طوال حياته كلها فى دور الحكمة ، يربى الشباب طبقاً لمنهج التعليم القديم . . . وفى نفس المدينة شغفت بأن أنهج على منواله فى سبيل الحياة . . . وزوجتى وهى كذلك ابنة عمى ، كنت وهى ابنى أخوين وعشت أنا وهى وأبوانا سوياً ولم يفترق أحدنا عن الآخر أبداً ، سواء فى ميوله ، فى مسكنه ، فى الاستقامة أو فى الإخلاص لربة الفلسفة ؛ وعلى ذلك تسرب الشك إلى كثيرين فيمن يكون والد كل منا وهل كنت ابناً لوالدها أو هى ابنة لوالدى » وكاتب هذا هو هوراپوللون (Hôrapollôn) مؤلف كتاب عن آثار الإسكندرية وربما مؤلف بحث لا يزال باقيا عن الهير غليفية ، ورد ذكره فى متن هذا الكتاب .

١٨ — أنظر ڤيجنر (E.P. Wegener) Symbolae van Oven صحيفة ١٧٣ فيما يتعلق بالأحوال السائدة فى القرن الثالث : « وقد نخلص إلى النتيجة الآتية وهى أن عمل عضو الشيوخ فى مصر كان فى أغلب الظن عبئاً وراثياً منذ القرن

الثالث وذلك بالنسبة لأولئك الذين ينتمون إلى الأراكنة من الموظفين على الأقل».

١٩ — «بوك» (A.E.R. Boak,) فى مقاله "An Egyptian Farmer of the Age of Diocletian and Constantine" فى مجلة Byzantina Metabyzantina I, 1946 pp. 39-53 وقد عرض خلاصة الرأى الذى كوّنه من دراسته لمجموعة بردية من ثيادلفيا بالفيوم على النحو الآتى : « من الدراسة السالفة لمجرى حياة إيسيدور (Isidoros) ومقارنتها بما كانت عليه حياة ساكاون (Sakaon) يمكن استخلاص نتيجتين لهما بعض الأهمية ، الأولى أنه كما أشير آنفاً كان لا يزال فى الإمكان أن تكون الزراعة فى الفيوم فى صدر القرن الرابع ، حرفة مربحة ، على شرط أن تتوافر العناية بوسائل الرى ؛ ولما كانت هذه غير متوافرة فى ثيادلفيا فإن الزراعة كان مقضياً عليها بالفشل وهجر السكان هذا المكان ؛ أما فى كارانيس (Karanis) (كوم أوشيم) فقد استمرت القنوات تؤدى عملها وبقى مجتمع السكان فيها مدة قرن آخر . والنتيجة الثانية هى أن ملاك الأراضى فى القرية كان لا بد عليهم أن يوطنوا أنفسهم بأن يتولوا نحو ست أو أكثر من الوظائف المختلفة التى كانت عبئاً على كواهل الناس ، فيتولون بعضاً منها أكثر من فترة ، فى أثناء سنى رشدهم ونضجهم . وكان هذا بالتأكيد عبئاً ثقيلا إلى حد ما فى أوقات الرخاء ، ولكن إذا أضيف هذا إلى عبء الضرائب فى عصر كانت مصاريف الحكومة تستنزف موارد الولايات إلى حد الإعياء والإنهاك ، لا عجب أن أدى الأمر فى النهاية إلى أن يصبح عبئاً لا قبل لأحد به . وتاريخ حياة إيسيدور يؤكد من جديد الفكرة السائدة بأن نظام الأعباء المفروضة على كاهل الناس هو السبب إلى حد كبير فى ذلك الخراب والدمار اللذين حلا بطبقة أصحاب الأملاك فى البلدان والقرى بمصر فى صدر العصر البيزنطى » ، وبالطبع كان العبء المالى وما نجم عنه من هرب أولئك الذين راحوا ضحيته ، سبباً فى نقص الأيدى العاملة الممكن الحصول عليها وبذلك أصبح من العسير جدا المحافظة على وسائل الرى ، وقد أدى هذا الإهمال بدوره إلى إزدياد حدة الضغط المالى .

٢٠ ـــ هذا استنباط جائز من الحقيقة الآتية وهى أن قرية أفروديتى

(Aphrodite)منحت من قبل الإمبراطور ليو ، حق الأتوپراجيا (autopragia) (P. Cairo Masp. I, 67019, 5 f.) وتدعمه العبارة التى ذكرها القرويون فى التماس مؤرخ فى سنة ٥٦٧ م . أن پاجاركية أنطايوپوليس (Antaeopolis) كان لها حتى ذلك الحين ثمانية من الپاجاركيين (pagarchs) (P. Cairo Maspero, I, 67002, II, 18 f.)

٢١ — فيما يتعلق بهذا التاريخ ، وتفضيله على سنة ٥٣٨ ، وهو التاريخ الذى كان مقبولاً حتى الآن بوجه عام ، انظر

Gertrude Malz, "The Date of Justinian's Edict XIII"., Byzantion XVI, 1942-3, pp. 135-41.

٢٢ — إن محاولة مبدئية لسلسلة نسب الأسرة نجده فى

P. Oxy., XVI, 1829, 24 note (p. 6); E.R. Hardy, Large Estates p. 38.

٢٣ — P. Oxy. XVI, 1982.

٢٤ — انظر مقدمة البردية : : P. Oxy. XVI, 1928

٢٥ — تلك كانت الحال فى أفروديتى على سبيل المثال ، وهى قرية حرة متمتعة بحق الأوتوپراجيا ولكنها كانت تحتوى كذلك على ضيعة لأحد الأشراف ويسمى آمونيوس(Ammonius) ، انظر Journal of Hell. Studies LXIV p. 24.

٢٦ — P. Cairo Maspero, I, 67002; P. Lond. v, 1674.

٢٧ — P. Cairo Maspero, I, 67024, 15 f.

٢٨ — P. Hibeh, 34.

٢٩ — P. Oxy. I, 130.

٣٠ — P. Cairo Maspero, I, 67002.

٣١ — P. Oxy. XVI, 1860, 6.

٣٢ — P. Oxy., XVI, 1987.

٣٣ — بل إن أسرة آپيون (Apion) الكبيرة كانت فى وقت من الأوقات من أنصار أصحاب الطبيعة الواحدة ، انظر Hardy, Large Estates pp. 26-7

٣٤ — انظر كولفن روبرتس "A Latin Parchment from Antinoë". (C.H. Roberts) فى مجلة Aegyptus عدد ١٥ لسنة ١٩٣٥ ، صفحات ٢٩٧—٣٠٢ وبخاصة ص٣٠٢ والنص منشور فى مجلة Journ. of Egypt. Arch. عدد ٢١ لسنة ١٩٣٥ صفحات ١٩٩ — ٢٠٩ .

٣٥— انظر. إ. بِل : "An Egyptian Village in the Age of Justinian" فى مجلة الدراسات الهيلينية ، عدد ٦٤ لسنة ١٩٤٤ صفحات ٢١—٣٦؛ ماسبيرو "Un dernier poète grec d'Egypte : Dioscore fils d'Apollos", Rev. des études grecques, XXIV, 1911 pp. 426-81; H.g. M.Milne, Catalogue of the Literary Papyri in the British Museum, 1927, pp. 68-80; H.I. Bell, & W.E. Crum, "A Greek-Coptic Glossary" Aegyptus VI, 1925, pp. 177-226.

٣٦ — P. Lond. 1, 77 (pp. 231-36) — M. Chrest. 319

٣٧ — وبخاصة ملاحظات هارولد بِل فى مؤلفه W.E. Crum & H.I. Bell, Wadi Sarga, Copenhagen, 1922 pp. 16-18.

٣٨ — انظر J. Maspero, Org. militaire pp. 114-18.

٣٩ — انظر A.J. Butler, The Treaty of Misr in Tabari, Oxford, 1913.

ثبت المراجع العامة

إنه لفي الإمكان أن يوصى القارئ بالرجوع إلى المؤلفات والمراجع العامة الآتي ذكرها ، وهذه تشمل العصر اليوناني — الروماني برمته، مع مراعاة الإشارة بصفة خاصة إلى البينة والأدلة المستقاة من أوراق البردى :

شوبارت (ولهلم) Schubart (Wilhelm), Agypten von Alexander dem Grossen bis auf Mohammed. Berlin, Weidmann, 1922.

(وقد جاء بهذا المؤلف عرض عام شامل لمظاهر الحياة والظروف المحيطة بها فى مصر ؛ وقد روعى فى إخراجه ، الترتيب على نسق طبوغرافى ، فاشتمل على ثلاثة أقسام هى الإسكندرية ثم ممفيس والفيوم والإقليم الطيبى) .

وينتر Winter (J.G.), Life and Letters in the Papyri, Ann Arbor, University of Michigan Press, 1933.

(ولا تتطلب قراءة هذا الكتاب أى معرفة باللغة اليونانية وإن اشتمل على مقتبسات بهذه اللغة) .

ديسمان (أدولف) Deissmann (Adolf), Light from the Ancient East.

وقد قام بنقله عن الألمانية إلى الانجليزية ، إستراخان (L. R. M. Strachan) وأصدرت دار النشر ، هودر وإستوتون (Hodder & Stoughton) طبعة جديدة منه فى لندرة سنة ١٩٢٧ . (ويتناول الكتاب نقوشا وكشوفاً أثرية فى جميع أرجاء الشرق الأدنى ، ولكنه يشتمل على نصوص عدد كبير من أوراق البردى وبعض قطع الشقف (اوستراكا) من مصر ، مصحوبة بترجماتها) .

شوبارت (ولهلم) . Schubart (Wilhelm), Ein Jahrtausend am Nil

وقد صدرت منه طبعة ثانية فى برلين ، تولت دار فيدمان (Weidmann) نشرها سنة ١٩٢٣ (وبالكتاب ترجمات إلى الألمانية لمجموعة من الخطابات تبلغ ١٠١ ، وأغلبها من أوراق البردى ؛ وقد روعى فى اختيارها أن توضح مناحى الحياة فى مصر فى مختلف العصور من العهد اليونانى — الرومانى . وكل خطاب منها

مذيل بمقدمة مستفيضة وتعليقات وافية) .

Meecham (H.G.) Light from Ancient Letters : Private ميخام
Correspondence in the Non-literary Papyri of Oxyrhynchus of the First Four Centuries & its Bearing on New Testament Language and Thought. London, Allen and Unwin, 1923.

Preisigke (Friedrich), Antikes Leben nach den بريسجكى
agyptischen Papyri. Leipzig, Teubner, 1916.

Bell (H.I.), "Hellenic Culture in Egypt", Journal of Egyptian بِلْ
Archaeology, VIII, pp. 139-155.

Jourguet (P.), "Les Destinées de l'hellénisme dans l'Egypte جوجيه
greco-romaine", Chronique d'Egypte, X, 1935, No. 19, pp. 89-18.

Schubart (Wilhelm), Die Griechen in Agypten. (Beihefte شوبارت
zum "Alten Orient", Heft 10) Leipzig, Hinrichs, 1927.

Robets (C.H.), "The Greek Papyri" Chapter X of The روبرتس
Legacy of Egypt (Oxford, 1942)

Hunt (A.S.) & Edgar (C.C.), Select Papyri, 2 vols., هنت وادجار
London, Heinemann (Loeb Classical Library), 1932, 1934.

(ويشتمل هذان الجزءان على مختارات من أوراق البردى ، تمثل مختلف العصور ، مع ترجمات إنجليزية لها وشروح توضيحية لبعض منها) .

الفصل الأول

١ — مؤلفات عامة عن علم أوراق البردى

Mitteis (L.) & Wilcken (U.), Grundzüge und ميتيس وفلكن
Chrestomathie der Papyruskunde. Leipzig — Berlin, Teubner, 1912.

(وهو مؤلَّف قيم ، معترف به ، ولا غنى للإنسان عنه ، وإليه يُرجع فى أى دراسة دقيقة للبردى اليونانى ؛ وقد صدر فى مجلدين ، كل واحد منهما فى جزأين هما على التوالى Grundzüge ثم Chrestomathie (وها هى الإشارات المختصرة المتعارف عليها للدلالة على النصوص الواردة فى الجزء الأخير .W. Chrest ، .M. Chrest) ، ويعرض المجلد الأول لمؤلفه ڤلكن للبردى باعتباره علماً ، ويتناول النواحى التاريخية وعناصر الأجناس وما كان يقوم بينها من مشاحنات ، وشئون الديانة والتعليم والمالية والضرائب والإدارة والصناعة وأحوال رجال العسس والحياة الاجتماعية ؛ أما المجلد الثانى لمؤلفه ميتيس ، فقد خصص للجهاز القضائى والنظم التى كانت سائدة فى مصر اليونانية — الرومانية ، وهناك نصوص نشرت فى الجزء الثانى من كل مجلد لتوضيح الوصف العام الذى جاء فى الجزء الأول) .

Schubart (Wilhelm), Einführing in die Papyruskunde. شوبارت
Berlin, Weidmann, 1918.

(ويُعتبر هذا الكتاب تتمة ، لها قيمتها ، لمؤلفات ميتيس — ڤلكن ، وهو لا يتناول الموضوعات التى عالجها هذان المؤلفان فحسب ، بل يعرض لمجموعة من أوراق البردى ذات الطابع الأدبى والمسيحى ؛ والكتاب مذيل بالمراجع المستفيضة ولكنه جاء خاليا من النصوص التوضيحية) .

Preisendanz (Karl), Papyrusfunde und Papyrusforschung, پريسنداانز
Leipzig, Hiersemann, 1933.

Calderini (Aristide), Manuale di Papirologia antica greca كالدرينى
e romana ad uso delle scuole universitarie e delle persone colte. Milan, Ceschina, 1938.

Peremans (W.) en Vregote (J.), Papyrologisch پيريمانز وڤيرجوت
Handboek. Louvain, Beheer van Philologische Studien, 1942.

(وهو أحدث مؤلَّف مختصر فى علم أوراق البردى ، لقى القبول ، وقد صنف باللغة الفليمية ، وبه مراجع وافية ، ذيل بها كل فصل من فصول الكتاب والفصلان الأخيران عن الثقافة والأخلاق العامة والحياة الخاصة لم يردا فى هذا الكتاب وإنما جاء به ثبت المراجع والمصادر وحده) .

David (M.) & Van Groningen (B.A.), داوود وڤان جرونئجن
Papyrological Primer.

وقد صدرت الطبعة الثانية منه بالإنجليزية فى ليدن ، بريل سنة ١٩٤٨ (والكتاب عبارة عن مجموعة من النصوص البردية التى أُحسن اختياها والتعليق عليها ويبلغ عددها خمسة وثمانين . وقد روعى فى اختيارها تزويد المبتدئين من الطلاب بالقواعد اللازمة فى دراسة علم أوراق البردى فى مختلف مظاهره . وهناك مقدمات سبقت هذه النصوص واشتملت على ملخص يعتبر فى واقع الأمر وافياً جداً للموضوع) .

٢ ــ المجموعات الأساسية الخاصة بالبردى اليونانى والأوسترا كا

(ا) بردى (مع ذكر الأساليب المتعارف عليها فى الإشارة إلى مجموعات)

B.G.U. = Aegyptische Urkunden aus den Staatlichen Museen zu Berlin, Griechische Urkunden, Berlin, 1895 & c.

وقد صدر منه فى الوقت الحاضر (حتى سنة ١٩٤٨) ثمانية أجزاء

B.K.T. = Berliner Klassikertexte. Berlin, 1904, & C.

ويشتمل على النصوص ذات الطابع الأدبى فى أوراق بردى برلين ، وقد صدر منه فى الوقت الحاضر (حتى سنة ١٩٤٨) ثمانية أجزاء .

C.P. Herm. = Stud. Pal. V : Corpus Papyrorum Hermopolitanorum.
C.P.R. = Corpus Papyrorum Raineri, i by C. Wessely. Vienna, 1895.
M. Chrest. = Mitteis, Chrestomathie.
P. Aberd. = Catalogue of Greek and Latin Papyri and Ostraca in The Possession of the University of Aberdeen, by E.G. Turner. Aberdeen, 1939.

P. Achmîm = Les Papyrus grecs d'Achmîm, by P. Collart. Cairo, 1930.

P. Adler = The Adler Papyri, Greek texts by E.N. Adler, J.G. Tait, and F.M. Heichelheim, Demotic by F.L. Griffith, Oxford, 1939.

P. Amh. = The Amherst Papyri ... ... of ... ... Lord Amherst of Hackney, by B.P. Grenfell and A.S. Hunt. London, 1900, 1901.

P. Amst. See P. Gron.

P. Bacchias = The Archives of the Temple of Soknobraisis at Bacchias" by Elizabeth H. Gilliam. Yale Classical Studies, X, 1947, pp. 181-281.

P. Baden = Veroffentlichungen aus den badischen Papyrus — Sammlungen, Heidelberg, 1923, & C.

ويشتمل هذا على نصوص ديموطيقية وقبطية ويونانية ، اضطلع بنشرها شپيجلبرج وبيلابل وجيرار ، ونشر منها حتى الوقت الحاضر (أى حتى عام ١٩٤٨) ستة أجزاء .

P. Bas. = Papyrusurkunden der Offentlichen Bibliothek der Universitat zu Basel by Rabel, Berlin, 1917.

وقام شپيجلبرج بنشر عقد قبطي ضمن هذا

P. Berl. Frisk = Bankakten aus dem Faijûm nebst anderen Berliner Papyri, by H. Frisk. Goteborg, 1931.

P. Berl. Leigh. = Berliner Leihgabe griechischer Papyri, by T. Kalén & Greek Seminar of Uppsala. Uppsala, 1932.

P. Berl. Moller = Griechische Papyri aus dem Berliner Museum, by S. Moller. Goteborg, 1929.

P. Bour. = Les Papyrus Bouriant, by P. Collart. Paris, 1926.

P. Brem. = Die Bremer Papyri (Abhandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften), by U. Wilcken. Berlin 1936.

P. Cairo Masp. = Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire; Papyrus grecs d'époque byzantine, by J. Maspero. Cairo 1911-16. 3 vols.

P. Cairo Preis. = Griechische Urkunden des Agyptischen Museums zu Kairo, by F. Preisigke. Strassburg, 1911.

P. Cairo Zen. = Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire; Zenon Papyri, by C.C. Edgar. Cairo, 1925-31. 4 vols.

وصدر الجزء الخامس من هذه المجموعة بعد وفاة إدجار ، وقامت الجمعية

المصرية لعلم أوراق البردى بنشره ، وأشرف على نشر المادة التى تركها إدجار كل من أوكتاف جيرو (O. Guèraud وپيير چوجيه P. Jouguet) .

P. Col. Inv. 480 (P. Col. I) = Upon Slavery in Ptolemaic Egypt, by W.L. Westermann. New York, 1929.

P. Col. II = Tax Lists and Transportation Receipts from Theadelphia, by W. L. Westermann and C.W. Keyes, New york, 1932.

P. Col. Zen. = Zenon Papyri : Business Papers of the Third Century B.C, dealing with Palestine and Egypt. Vol. I by W.L. Westermann and E.S. Hasenoehrl, New York, 1934; vol. II by W.L. Westermann, C.W. Keyes and H. Liebesny, New York, 1940.

P. Cornell = Greek Papyri in the Library of Cornell University, by W.L. Westermann and C.J. Kraemer, Jr. New York, 1926.

P. Edfou = Les Papyrus 'et les ostraca grecs, by J. Manteuffel

وهذه المجموعة تمثل الفصل الخامس من التقرير الأول للحفائر الفرنسية البولونية فى تل إدفو سنة ١٩٣٧ وقد صدر فى القاهرة سنة ١٩٣٧ .

P. Eleph. = Elephantine-Papyri, by Rubensohn. Berlin, 1907.

P. Ent. = Enteuxeis : Requêtes et plaintes adressées au roi d'Egypte au IIIe. siècle avant J.C., by O. Guéraud. Cairo, 1931-2.

P. Erlangen = Die Papyri der Universitatsbibliothek Erlangen, by W. Schubart. Leipzig, 1942.

(وقد نشر هذا المؤلف فى أثناء الحرب الماضية وربما لم تصل نسخ منه إلى بريطانيا فى ذلك الحين ويبدو أن مجموع ما طبع من هذا الكتاب أحرق وفنى عن آخره فى أثناء غارة جوية وقد حظى سير هارولد بيل ، مؤلف هذا الكتاب ، بالاطلاع على نسخة منه فى بروكسل) .

P. Fay. = Fayûm Towns and their Papyri, by B.P. Grenfell, A.S. Hunt and D.G. Hogarth. London, 1900.

P. Flor. = Papiri greco-egizii, by D. Comparetti & G. Vitelli. Milan, 1905-15. 3 vols.

P. Fouad = Les Papyrus Fouad I (Pull. de la Société Fouad I dePapyrologie, Textes et Documents, III), by A. Bataille, O. Guéraud, P. Jouguet & others. Cairo, 1939.

(وقد أصبحت هذه الجمعية تسمى الآن بالجمعية المصرية لعلم أوراق البردى) .

P. Frankf. = Griechische Papyri aus dem Besitz des Rechtswissenschaftlichen Seminars der Universitat Frankfurt, by H. Lewald. Heidelberg, 1920.

P. Freib. = Mitteilungen aus der Freiburger Papyrussammlung, by W. Aly, M. Gelzer, J. Partsch and U. Wilcken. Heidelberg, 1914-27. 3 parts.

والجزء الثالث هو أكبر الأجزاء الثلاثة حجماً .

P. Gen. = Les Papyrus de Genève, i, by J. Nicole. Geneva, 1896-1900.

P. Giss. = Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsvereins zu Giessen, by O. Eger, E. Kornemann and P.M. Meyer. Leipzig-Berlin, 1910-1912.

P. Giss. Univer. Bibl. = Mitteilungen aus der Papyrussammlung der Giessener Universitatsbiblitothek, by H. Kling & others. Giessen, 1924-39 (6 parts).

P.G.M. = Papyri Magicae Graecae, by K. Preisendanz. Leipzig — Berlin, 1928, 1931. 2 vols.

P. Got. = Papyrus grecs de la Bibliothèque Municipale de Gothembourg, by H. Frisk. Goteborg, 1929.

P. Grenf. I = An Alexandrian Erotic Fragment and other Greek Papyri chiefly Ptolemaic, by B.P. Grenfell, Oxford, 1896.

P. Grenf. II = New Classical Fragments and other Greek and Latin Papyri, by B.P. Grenfell and A.S. Hunt, Oxford, 1897.

P. Gron. = Papyri Groninganae : Griechische Papyri der Universitats bibliothek zu Groningen nebst zwei Papyri der Universitatsbibliothek zu Amsterdam, by A.G. Roos. Amsterdam, 1933.

P. Gurob = Greek Papyri from Gurob, by J.G. Smyly. Dublin, 1921.

P. Hal. = Dikaiomata : Auszüge aus Alexandrinischen Gesetzen und Verordnungen in einem Papyrus des philologischen Seminars der Universitat Halle mit einem Anhang weiterer Papyri derselben Sammlung, by the Graeca Halensis. Berlin, 1913.

P. Hamb. = Griechische Papyrusurkunden der Hamburger Staats — und Universitatsbibliothek, vol, I, by P.M. Meyer. Leipzig — Berlin, 1911-24.

P. Harris = The Rendell Harris Papyri of Woodlbrooke College, Birmingham, by J.E. Powell, Cambridge, 1936.

P. Haun. = Papyri Graccae Haunienses, fasc. I, by T. Larsen. Copenhagen, 1942.

P. Hib. = The Hibeh Papyri, Part I, by B.P. Grenfell and A.S. Hunt. London, 1906.

P. Iand. = Papyri Iandanae, cum discipulis edidit C. Kalbfleisch, Leipzig, 1912 & C.

وقد صدر منه حتى سنة ١٩٤٨ ثمانية أجزاء

P. Jena = Jenaer Papyrus — Urkunden, by F. Zucker & F. Schneider. Jena, 1926.

P. Jews. = Jews and Christians in Egypt : The Jewish Troubles in Alexandria and the Athanasian Controversy, by H.I. Bell. London, 1924.

P. Kl. Form. = Parts III & VIII of Stud. Pal. (انظر ما بعده)

Griechische Papyrusurkunden Klaineren Formats, C. Wessely.

P. Lille = Papyrus grecs (Institut Papyrologique de l'Université de Lille) by P. Jouguet, P. Collart, J. Lesquier, M. Xoual. Paris, 1907. 1912. 2 vols.

(ويحتوى الجزء الثانى على أوراق بردية من ماجدولا بالفيوم وهذه قد أعاد « جيرو » نشرها فيما بعد وأصبح يشار إليها P. Enteuxeis) .

P. Lips. = Griechische Urkunden der Papyrussammlung zu Leipzig, vol. I, by L. Mitteis, Leipzig, 1906.

P. Lond. = Greek Papyri in the British Museum, by F.G. Kenyon and H.I. Bell. London, 1893-1917.

وتؤلف هذه فى الوقت الحاضر خمسة أجزاء (ويدخل ضمن ذلك P. Jews من حيث التتابع العددى لأوراق بردى لندن ولكنه نشرٌ مستقل .

P. Lugd. Bat. = Papyri Graeci Musei Antiquarii publici Lugduni-Batavi, by C. Leemans. Leyden, 1843, 1885.

P. Lund Univ. — Bibl. = Aus der Papyrussammlung der Universitatsbibliothek in Lund, by A. Wifstrand, K. Hanell, and E.K. Knudtzon. Lund, 1935-46.

(وقد نشر منه حتى سنة ١٩٤٨ أربعة أجزاء .

P. Magd. = P. Lille II.

P. Marmarica = Il papiro Vaticano greco II, by M. Norsa and G. Vitelli. Città del Vaticano, 1931.

P. Meyer = Griechische Texte aus Agypten: I. Papyri des Neutestamentlichen Seminars der Universitat Berlin, II. Ostraka der Sammlung Deissmann, by P.M. Meyer. Berlin, 1916.

P. Mich. = Papyri in the University of Michigan Collection by .C.C Edgar, A.E.R. Boak, J.G. Winter & others. Ann Arbor, 1931-47.

ونشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ سبعة أجزاء ولكل جزء منها عنوان خاص به ولم يراع تتابع الأرقام فى هذه الأجزاء باعتبارها مجموعة واحدة إلا فى الجزء الثالث ؛ والجزء الأول وهو مجموعة بردى زينون التى نشرها إدجار يشار إليها غالباً على أنها : P. Michigan Zenon

P. Mil. = Papiri Milanesi, vol. I, fasc. I, by A. Calderini, Milan, 1928.

P. Mil. R. Univ. = Papiri della R. Università di Milano, Vol. Primo, by A. Vogliano. Milan 1937.

(وتسمى هذه المجموعة فى بعض الأحيان (P. Primi) تمييزاً لها عن المجموعات الأخرى التى تصدر فى ميلان .

P. Monac. = Veroffentlichungen aus der Papyrus — Sammlung der K. Hof — und Staatsbibliothek zu München : Byzantinische Papyri, by A. Heisenberg and L. Wenger. Leipzig — Berlin, 1914.

P. Neutest. = P. Meyer.

P. Osl. = Papyri Osloenses, by S. Eitrem and L. Amundsen. Oslo, 1925-36.

(وقد نشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ ثلاثة أجزاء .

P. Oxford = Some Oxford Papyri, by E.P. Wegener. Leyden, 1942.

والجزء الثالث من هذه المجموعة يعرف باسم :

"Papyrologica Lugduno-Batava"

P. Oxy. = The Oxyrhnchus Papyri, by B.P. Grenfell, A.S. Hunt and others, 1898 ff.

(وقد نشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ ثمانية عشر جزءاً »

P. Par. = Notices et textes des papyrus grecs du Musée du Louvre et de la Bibliothèque Impériale (Notices et Extraits des manuscrits-

de la Bibl. Impériale et autres bibl. 18.2) by Letronne and Brunet de Presle. Paris, 1865.

P. Petrie = The Flinders Petrie Papyri, by J.P. Mahaffy and J.G. Smyly. Dublin, 1891-1905, 3 vols.

P. Primi = P. Mil. R. Univ.

P. Princ. = Papyri in the Princeton University Collections, by A.C. Johnson, H.B. Van Hoesen, E.H. Kase, Jr., and S.P. Goodrich. Baltimore and Princeton, 1931-42.

(وقد نشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ ثلاثة أجزاء .

P. Rein. = Papyrus grecs et démotiques recueillis en Egypte, by Th. Reinach, W. Spiegelberg and S. de Ricci. Paris, 1905. Les Papyrus Théodore Reinach, t. II ed. P. Collart, & c. Cairo, 1940.

P. Rev. = Revenue Laws of Ptolemy Philadelphus, by B.P. Grenfell. Oxford, 1896.

P. Ross. — Georg. = Papyri russischer und georgischer Sammlungen, by G. Zereteli, O. Krüger, and P. Jernstedt. Tiflis, 1925-35.

(وقد نشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ خمسة أجزاء .

P. Ryl. = Catalogue of the Greek Papyri in the John Rylands Library, Manchester, by A.S. Hunt, J. de M. Johnson, V. Martin and C.H. Roberts. Manchester, 1911-38.

(وقد نشر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ ثلاثة أجزاء .

P.S.A. Athen. = Papyri Socitatis Archaeologicae Atheniensis, by G.A. Petropoulos. Athens, 1939.

(والتعليقات وما إليها باللغة اليونانية الحديثة .

P.S.I. = Papyri greci e latini (Publicazioni della Società Italiana per la ricerca dei Papiri greci e latini in Egitto), by G. Vitelli, M. Norsa, and others, Florence, 1912 ff.

(وكان آخر ما صدر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨ هو الجزء الأول من المجلد الثانى عشر .

P. Sitol. = Sitologen. Papyri aus dem Berliner Museum, by K. Thunell. Uppsala, 1924.

P. Strassb. = Griechische Papyrus der Kaiserlichen Universitats-und

Landesbibliothek zu Strassburg, by F. Preisigke. Leipzig, 1912., 1920. 2 vols.

(وقد والى نشر هذه المجموعة العالم ب . كولومب (Collomp) الذى قتله الألمان فى الحرب العالمية الثانية واضطلع بهذا العمل من بعده تلاميذه فى مجلة :

Bull. Fac. Letter. Strasb. XIV (1935) — XVII (1939.)

P. Tebt. = The Tebtunis Papyri, by B.P. Grenfell, A.S. Hunt, J.G. Smyly, E.J. Goodspeed and C.C. Edgar. London, 1902-1938. 3 vols.

(والمجلد الثالث صدر فى جزأين

P. Thead. = Papyrus de Théadelphie, by P. Jouguet. Paris, 1911.

P. Tor. = "Papyri graeci R. Musei Aegyptii Taurinensis", Mem. R. Accad. Torino, XXXI, 1826, 9-188, XXXIII, 1827, 1-80, by A. Peyron.

P. Ups. 8 — Der Fluch des Christen Sabinus, Papyrus Upsaliensis 8 L G. Bjorck. Uppsala 1938.

P. Vars. = Papyri Varsovienses, by G. Manteuffel. Warsaw, 1935.

P. Vat. gr. II = P. Marmarica.

P. Vindob. Boswinkel = Einige Weiner Papyri (Papyri (Papyrologica Lugduno-Batava, II), by E. Boswinkel, Leyden, 1942.

P. Warren = The Warren Papyri (Pap. Lugd. — Bat. I). by M. David, B.A. van Groningen and J.C. van Oven. Leyden, 1941.

P. Würzb. = Mitteilungen aus der Würzburger Papyrussammlung, by U. Wilcken. Berlin, 1934.

SB. = أنظر الحاشية رقم ١١ من الفصل الأول

Stud. Pal = C. Wessely, Studien zur Palaeographie und Padyruskunde.

(وهى عبارة عن دراسات ذات طابع منوع ، كانت تصدر تباعاً وفى مواقيت غير منتظمة) .

U.P.Z. = (أنظر تحت اسم (U. Wilcken) فى القسم الثالث التالى لما بعد هذا)

W. Chrest. = Wilcken, Chrestomathie.

(ب) أوستراكا

O. Brüss. — Berl. = Ostraka aus Brüssel und Berlin, by P. Viereck. Berlin — Leipzig, 1922.

O. Meyer = (انظر تحت اسم (P. Meyer) فى القسم (ا) قبل هذا

O. Mich. = Greek Ostraca in the University of Michigan Collection, by L. Amundsen. Ann Arbor, 1935.

O. Osl. = Ostraca Osloënsia, by L. Amundsen Oslo, 1933.

O. Pr. Joachim = Die Prinz — Joachim — Ostraka, by F. Preisigke and W. Spiegelberg. Strassburg, 1914.

O. Strassb. = Griechische und griechisch — demotische Ostraka der Universitats — und Landesbiliotkek zu Strassburg im Elsass, by P. Vierek. Berlin, 1923.

O. Tait = Greek Ostraca in the Bodleian Library at Oxford and various other collections, by J.G. Tait. London, 1930.

(والجزء الأول وحده هو الذى صدر من هذه المجموعة حتى سنة ١٩٤٨)

O. Theb. = Theban Ostraca. London — Oxford, 1913.

(وهذه مجموعة من الاوستراكا بالهيراطيقية والديموطيقية واليونانية والقبطية وقد اضطلع بنشر الأوستراكا اليونانية ملن (J. G. Milne)).

O. Wilb. = Les Ostraca grecs de la collection Charles — Edwin wilbour au Musée de Brooklyn, by C. Préaux. New York, 1935.

W.O. = Griechische Ostraka aus Aegypten und Nubien, by U. Wilcken. Leipzig — Berlin, 1899. 2 vols.

Wadi Sarga = Wadi Sarga : Coptic and Greek Texts, by W.E. Crum and H.I. Bell.

(ويشتمل هذا على أوراق بردية وأوستراكا بالقبطية واليونانية وقد اضطلع بنشر النصوص اليونانية هارولد ادريس بل (H. Bell).

(ج) مجموعات خاصة من نصوص بردية

Dollstadt (W.), Griechische Papyrusprivatbriefe in gebildeter Sprache aus den ersten vier Jahrhunderten nach Christus. Borna-Leipzig, 1934.

(وهى رسالة دكتوراه قدمت فى فيمار (Weimar)

Chedini (G.), Lettere Cristiane dai papiri greci del III e IV secolo. Milan, 1923.

Lietzmann (H.) Griechische Papyri. Bonn, 1910 (Kleine Texte für

theologische und philologische Vorlesungen und Ubungen, 14).

(مجموعة صغيرة من المختارات التى تمثل مختلف النصوص وبخاصة الخطابات

Meyer (P.M.), Juristische Papyri. Berlin, 1920.

(وهذه مجموعة قيمة من النصوص التى توضح القانون فى مصر اليونانية الرومانية ، ومعها تعليقات مسهبة .

Olsson (B.), Papyrusriefe aus der frühesten Romerzeit. Uppsala, 1925.

Preisendanz (K.), Papyri Graecae Magicae. Leipzig — Berlin, 1928, 1931. 2 vols. (P.G.M.)

Wilcken (U.), Urkunden der Ptolemaerzeit (altere Funde). Berlin — Leipzig, 1927 & C. (U.P.Z.)

Witkowski (S.), Epistulae privatae graecae quae in papyris aetatis Lagidarum servantur. Leipzig, 1906 (2nd edition 1911).

Ziebarth (E.) Aus der antiken Schule. Bonn, 1913 (Kleine Texte, 65).

(وهى مجموعة مستقاة من نصوص البردى والألواح والاوستراكا ، توضح التعليم المدرسى فى مصر .

(انظر كذلك المراجع التى وردت من قبل فى باب المراجع العامة وفى كتاب داود وڤان جرونجن (David & van Groningen) (Papyrological Primer) تحت رقم ١) .

٣ — مؤلفات عن الكتابة القديمة (Palaeography) وحل رموز المراسلات القديمة

Gardthausen (V.), Griechische Palaographie; 2nd. edition, 2 vols. Leipzig, 1911 - 13.

(وهو مؤلف شامل فى علم الكتابة اليونانية القديمة ، ولكنه يتضمن عصر البردى .

Kenyon (F.G.), The Palaeography of Greek Papyri. Oxford, 1899.

(وقد أصبح الآن عتيقاً إلى حد كبير وإن كان لا يزال مفيداً)

Schubart (W.), Papyri Graecae Berolinenses. Bonn, 1911.

(ويشتمل على مجموعة من الصور مطابقة لأصولها ومصحوبة بنصوصها المكتوبة وغير ذلك .

Schubart (W.) Griechische Palaeographie. Munich, 1925.

(وهو مؤلف عام فى موضوع الكتابة والخط اليونانى القديم، مع العناية بصفة خاصة بالبردى) .

Thompson (Sir E. Maunde), An Introduction to Greek and Latin Palaeography. Oxford, 1912.

(وهو مؤلف عام فى موضوع الكتابة والخط القديم ولكن به الكثير من المعلومات عن البردى .

Van Hoesen (H.B.) Roman Cursive Writing. Princeton, 1915.

Kenyon (Sir F.G.), Books and Readers in Ancient Greece and Rome, Oxford, 1932.

Birt (Th.) Das antike Buchwesen. Berlin, 1882.

Schubart (W.), Das Buch bei den Griechen und Romern. Berlin — Leipzig, 1921.

Lewis (N.), L'Industrie du Papyrus dans l'Egypte Gréco — Romaine. Paris, 1934.

٤ — الأجرومية والنحو وكتب المعاجم

Mayser (E.) Grammatik der griechischen Papyri aus der Ptolemaerzeit. Leipzig, 1906, 1926, rev. ed., in 6 or 7 vols. [1](فى تواريخ متباينة)

Palmer (L.R.), A Grammar of the Post-Ptolemaic Papyri. London, 1946.

Kapsomenakis (S.G.), Voruntersuchungen zu einer Grammatik der Papyri der nachchristlichen Zeit. Munich, 1938.

WB. = Preisigke — Kiessling, Worterbuch.

(ارجع إلى الحاشية رقم ٩ من الفصل الأول)

Namenbuch (انظر الحاشية رقم ١٠ من الفصل الأول)

Gradenwitz (O.) Kontrarindex (انظر الحاشية رقم ١٣ من الفصل الأول)

---

(١) إن أجزاء هذه الطبعة لم تصدر تباعاً بحسب الترتيب المرعى فى الكتاب نفسه؛ فالجزء السادس الذى كان من المقرر أن يصدر سنة ١٩٣٨ ، هو المجلد الأول جزء ثان ، وقد صدر عقب وفاة مؤلف الكتاب، أما الجزء الأول من هذا المجلد فبقيت أصوله معدة للطبع، وكان المتوقع حينذاك أن يتم نشره تحت إشراف ڤيدمان (H. Wiedmann) . وليس معروفاً إذا كان قد طبع بالفعل أم لا .

Moulton (J.H.) &Milliganthe (G.), Vocabulary of the Greek Testament. London, 1930.

(وبه تفصيل وتوضيح للغة العهد الجديد اليونانية وأوجه الاختلاف بينها وبين لغة البردى

Liddell (H.G.) & Scott (R.) A Greek-English Lexicon, New Edition, edited by H. Stuart Jones and R. McKenzie, Oxford.

(وقد تم إصداره سنة ١٩٤٠ وتحتوى هذه الطبعة الأخيرة من المعجم المشهور إشارات متتالية لما جاء فى أوراق البردى من بيّنة) .

إرجع كذلك إلى كتاب ميخام (Meecham, Light from Ancient Letters.) وقد وردت الإشارة إليه من قبل .

٥ — بعض المؤلفات كمراجع عامة

(إن الرسائل والبحوث التى تنفرد بمختلف الموضوعات الخاصة وعصور أو فترات معينة، قد جاء ذكرها فى الحواشى وثبت المراجع الخاصة بكل فصل على حدة ؛ وها نحن نذكر عدداً قليلا من المؤلفات المفيدة التى تتناول العصر اليونانى — الرومانى برمته بحسب موضوعاتها .

Taubenschlag (R.) The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri. New York, 1944 & Warsaw 1948.

(انظر كذلك ميتيس (Mitteis, Grundzüge) وقد جاء ذكره من قبل ثم ماير (Meyer, Juristische Papyri) وقد ورد آنفاً .

Segrè (A.), Metrologia e circolazione monetaria degli antichi. Bologna, 1928.

Schnebel (M.), Die Landwirtschaft im hellenistischen Agypten, vol. I. Munich, 1925.

Otto (W.) Priester und Tempel im hellenistischen Agypten. Leipzig — Berlin, 1905-8.

Hopfner (Th.), Fontes Historiae Religionis Aegyptiacae. Bonn, 1922-5.

الفصل الثانى

Bevan (B.), A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927.

Wilcken (U.), Alexander the Great. Translated by G.C. Richards. London, 1932.

Jouguet (P.), L'Impériaisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient. Paris, 1926.

Tarn (W.W.), Hellenistic Civilisation. 2nd. ed. London, 1930. Chapter V, "Egypt".

Rostovtzeff (M.), The Social and Economic History of the Hellenistic World. 3 vols. Oxford, 1941. Chapters on Egypt.

Rostovtzeff (M.), "Ptolemaic Egypt" in Cambridge Ancient History. vol. VII, pp. 109-54.

Korte (A.), Hellenistic Poetry. Translated by J. Hammer and M. Hadas. New York, 1929.

Préaux (Claire), L'Economie royale des Lagides. Brsussels, 1939.

Lesquier (J.), Les Institutions militaries de l'Egypte sous les Lagides. Paris, 1911.

(مع الرجوع إلى المؤلفات الواردة فى الحواشى السالفة الذكر)

الفصل الثالث

Milne (J.G.), A History of Egypt under Roman Rule. London, Methuen, 3rd edition, 1924.

Bell (H.I.), "Egypt under the Early Principate", Cambridge Ancient History, vol. X, Chap. X; "Egypt" ibid. vol. XI, ch. XVI. I.

Milne (J.G.), "The Ruin of Egypt by Roman Mismanagement", Journal of Rom. Studies, XVIII, 1927, pp. 1 - 13.

Rostovtzeff (M.), "The Roman Exploitation of Egypt in the First Century A.D.," Journal of Economic and Business Hist. I, 1929. pp. 337-64.

Jouguet (P.), La Domination romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ. Alexandria, Soc. Roy. d'Arch., 1947.

Bell (H.I.), Roman Egypt from Augustus to Diocletian", Chronique d'Egypte XIII, 1938 pp. 347-63.

Rostovtzeff (M.), The Social and Economic History of the Roamn Empire. Oxford, Clarendon Press, 1926.

(وقد تمت مراجعة هذا الكتاب قبل ترجمته إلى الألمانية (سنة ١٩٣٠) ثم إلى الإيطالية، ومن الخير أن يوجه النصح إلى أولئك الذين يعرفون الإيطالية أن يرجعوا إلى الطبعة الإيطالية وعنوانها :

"Storia economica e sociale dell' impero romano, Florence, "La Nuova Italia" Editrice, 1933"

على أن هذه الطبعة الأخيرة تعتبر فى الحقيقة الطبعة الثالثة للكتاب .

ثم هناك طبعة رابعة صدرت أخيراً بالعربية سنة١٩٥٧ فى القاهرة تحت عنوان « تاريخ الإمبراطورية الرومانية، الاجتماعى والاقتصادى » وقام بترجمة هذا الكتاب « زكى على ومحمد سليم سالم» وقد راعيا ما جاء فى الطبعة الإنجليزية التى صدرت فى أكسفورد سنة ١٩٥٧ من تغييرات طفيفة فى الحواشى والصور والشروح) .

Johnson (A.C.), Roman Egypt.

والكتاب المذكور يمثل الجزء الثانى من سلسلة تحمل هذا الاسم An Economic Survey of Ancient Rome. Baltimore, Johns Hopkins Press, 1936.

Jouguet (P.), La Vie municipale dans l'Egypt romaine, Paris, Fontemoing, 1911.

Wallace (S.L.), Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian. Princeton University Press, 1938.

Lesquier (J.), L'Armée romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien, Caire, Inst. français d'arch. orientale, 1918.

الفصل الرابع

Milne (J.G.), History of Egypt under Roman Rule. London, Methuen 3rd Edition 1924.

Gelzer (M.), Studien zur byzantinischen Verwaltung Agyptens (Leipziger Historische Abhandlungen, Heft XIII). Leipzig, 1909.

Rouillard (Germaine), L'Administration civile de l'Egypte byzantine. 2nd. edition, Paris, 1928.

Maspero (J.), Organisation milit. de l'Egypte byzantine. Paris, 1912.

Maspero(J.), Histoire des Patriarches d'Alexandrie, Paris, 1923.

Hardy (E.R.), The Large Estates of Byzantine Egypt. New York, 1931.

Bell (H.I.), "The Byzantine Servile State in Egypt", Jour. Egypt. Arch. IV, 1917, pp. 86-106; "The Decay of a Civilisation", Jour. Egyp. Arch. X, 1924, pp. 207-16; "Egypt and the Byzantine Empire", in The Legacy of Egypt, chap. XIII (pp. 332-47).

Segrè (A.), "The Byzantine Colonate" in Traditio. V, 1947, pp. 103-33.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

البردى

الموضوع	صفحة
ظروف مصر الجغرافية والتاريخية	١٣ — ١٨
المقومات الأولى لقيام الحضارة وتطورها	١٨
البردى وصناعته	١٩ — ٢١
الرق وقطع الشقافة	٢١ — ٢٢
الألواح الخشبية	٢٢ — ٢٣
المصادر الرئيسية للكشف عن أوراق البردى . . .	٢٣ — ٢٧
مجموعات البردى وتواريخ كشفها	٢٨ — ٣٤
أشهر الكتب والمجلات التى تعرض لهذا العلم . . .	٣٥ — ٣٦
أهم الوثائق البردية	٣٦ — ٣٨
البردى كمصدر للمعرفة التاريخية	٣٨ — ٣٩
شوائب البردى وقصوره	٣٩ — ٤٢
علم البردى فى جوهره فرع من الدراسات القديمة والتاريخ القديم .	٤٢ — ٤٣

الفصل الثانى

البطالمة

الموضوع	صفحة
الإسكندر الأكبر ودارا الثالث فى آسيا الصغرى . . .	٤٣ — ٤٥
فتح الإسكندر لمصر، والظروف التى أوحت بذلك . . .	٤٥ — ٤٦
تأسيس الإسكندرية وزيارة الإسكندر لواحة آمون بسيوة .	٤٥ — ٤٦
إعلان الإسكندر عن فكرة وحدة الجنس البشرى . .	٤٦

الموضوع	صفحة
هبوط أفواج من اليونانيين على آسيا ومصر	٤٩ — ٥٠
بطلميوس بن لاجوس يضمن لنفسه الولاية على مصر ويوطد مركزه فيها	٥٠ — ٥١
سياسة بطلميوس بعد أن أصبح ملكاً على مصر	٥٢ — ٥٥
مركز المصريين فى عهد البطالمة	٥٥ — ٥٦
تأجج الروح القومية	٥٥ — ٥٦
ابتداء عبادة سيرابيس ومدى انتشار تلك العبادة . . .	٥٥ — ٥٩
تكوين ثقافة خليطة	٥٩
نظام الحكم السائد فى مصر البطلمية	٥٩ — ٦١
نظام القضاء	٦١
نظام الأراضى	٦٣ — ٦٥
بردى بيترى وأرشيف زينون وما يكشفان عنه من وسائل إصلاح الأراضى	٦٦ — ٦٧
الزراعة المصرية وما شهدته من ضروب التجديد. . . .	٦٧
نظام الاقتصاد النقدى	٦٧
نظام الاحتكار.	٦٨ — ٧٠
نظام الالتزام فى جباية الضرائب	٧٠
النهوض بالتجارة الخارجية	٧٠ — ٧٤
الإسكندرية — أعظم المدن التجارية والصناعية فى مصر . .	٧٤ — ٧٧
عوامل الانحلال والضعف فى الأسرة البطلمية . . .	٧٧ — ٧٩
موقعة رفح أيقظت القومية المصرية	٧٩ — ٨١
ظهور روما على مسرح السياسة المصرية	٨١ — ٨٢
مصر تتردى فى هاوية من الحرب الأهلية خلال فترات طويلة من القرنين الثانى والأول	٨٢ — ٨٤
كليوباترة السابعة ودورها فى معترك السياسة العالمية . . .	٨٤ — ٨٥
فشلها وانتحارها	٨٦

الفصل الثالث

الرومان فى مصر

الموضوع	صفحة
مصر تصبح ولاية رومانية ذات طابع خاص	٨٧ — ٨٨
قواعد النظام الذى وضعه أغسطس لحكم مصر . .	٨٩ — ٩٢
ضريبة الخراج	٩٣ — ٩٤
الوظائف العامة فى الحواضر	٩٤ — ٩٧
إحصاء السكان وإنشاء السجلات	٩٦
الصورة العامة التى كانت عليها مصر الرومانية . . .	١٠٢—١١٠
الأعباء والوظائف الشرفية فى مصر	١١٠—١١١
حالة مصر فى القرن الثانى الميلادى	١١١
انتشار الثقافة الهيلينية ونظم التعليم	١٠٧—١١٠
بدء انتشار المسيحية فى مصر وموقف الحكومة الرومانية منها .	١١١—١١٣
الاضطهاد وعصر الشهداء	١١٢—١١٤
الإسكندرية ومناهضتها للسامية	١١٥—١١٦
كليمان وأوريجين ، نجمان لامعان فى الإسكندرية .	١١٧—١١٨
إنشاء مجالس شيوخ أو مجالس بلدية فى حواضر الأقسام .	١١٨—١١٩
منح كاراكالا الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية .	١٢٠—١٢١
أمارات الانهيار والتدهور	١٢٤—١٢٧
دقلديانوس وإصلاحاته	١٢٧—١٢٩

الفصل الرابع

العصر البيزنطى

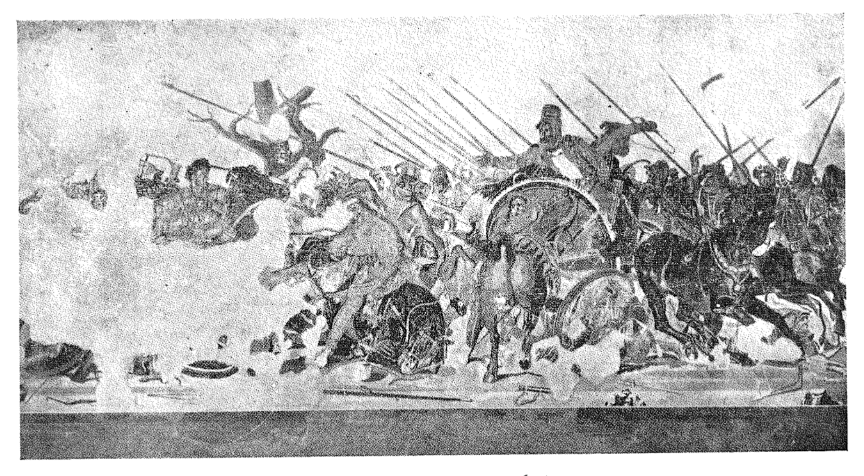
التغييرات فى الجهاز المالى والإدارى	١٣٠—١٣٣

الموضوع	صفحة
اضطهادات دقلديانوس للمسيحيين	١٣٣—١٣٥
الجدال اللاهوتي والهرطقة الآرية	١٣٦—١٤٣
الديرية « الرهبانية المصرية »	١٤٤—١٤٥
مظاهر الثقافة القومية ونشأة اللغة القبطية	١٤٥—١٤٦
القديس كيرلس ، أسقف الإسكندرية	١٤٧—١٤٩
عيوب نظام الضرائب فى إصلاحات دقلديانوس . . .	١٤٩—١٥٤
الضياع الشاسعة للأسرة الشريفة وما يسودها من نظام شبه إقطاعى	١٥٥—١٦١
الهيلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة	١٦٢—١٦٣
فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص	١٦٧—١٦٨
خاتمة مصر الهيلينية	١٦٩—١٧٠
الحواشى	١٧١—١٩٩
ثبت المراجع العامة	٢٠٢—٢٢٢
مجموعة من الصور لبعض الشخصيات ومظاهر الحياة فى مصر اليونانية الرومانية	٢٢٣

صور لبعض الشخصيات ومظاهر الحياة
فى مصر اليونانية الرومانية

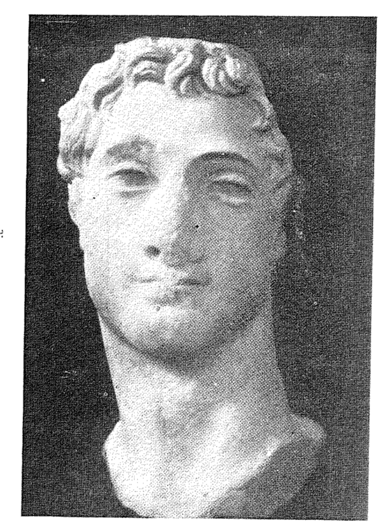


الإسكندر فى المعركة



الإسكندر يقاتل ملك الفرس ، دارا الثالث

بطلميوس السادس
(فيلوميتور)





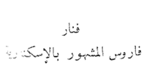
بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) وأخته وزوجته أرسينوى الثانية كما يبديان على عملة سكت فى عهد حفيدهما فيلوباتور



الإسكندر الأكبر ، ذو القرنين



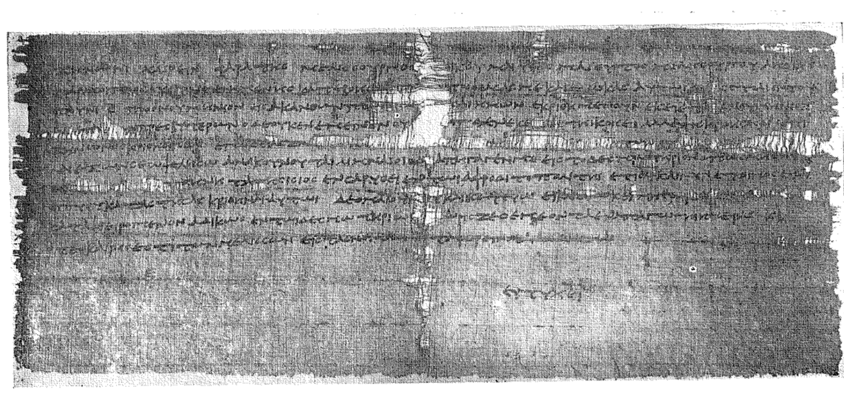
سيرابيس
إله ابتدعه بطلميوس الأول ليكون عبادة مشتركة بين المصريين واليونانيين وبقى مرعياً طوال عصر البطالمة .



فنار
فاروس المشهور بالإسكندرية



فسيفساء يمثل الإسكندرية باعتبارها سيدة البحار ، وقد زينت رأسها بتاج بحرى ، وغطت كتفيها بعباءة حربية وأمسكت بيدها اليسرى صارى مؤخر سفينة .



وثيقة من بردى زينون، بها ملتمس ، رفعه أحد المشتغلين بالنحالة ضد زميل له وقد احتكم إلى زينون راجياً ألا يتركه يرزح فى غياهب السجون بعد أن قضى فيها ٢٢ يوماً ، خاصة وقد حان فصل العمل فى نقل النحل إلى المرعى .



كليوباتره السابعة



ماركوس انطونيوس



أكتافيوس



كارانيس
(كوم أوشيم) بالفيوم ، إحدى القرى من مؤسسات البطالمة الأولين وبقيت إلى عهد الرومان ، تدب فيها الحياة



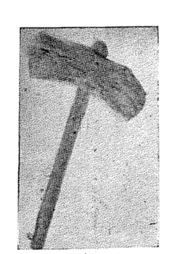
إله العالم السفلى (هيديس) فى صورة سيرابيس وقد خطف برسيفونى بنت الآلهة ديميتر وسار فى عربته ووقف أنوبيس يستقبله وبيده مفتاح باب العالم الآخر – ويمثل هذا المنظر إحدى القصص الهومرية الخالدة التى كانت تصور فى المناسبات الجنائزية على الحوائط وشواهد القبور فى أرجاء مصر البطلمية والرومانية .



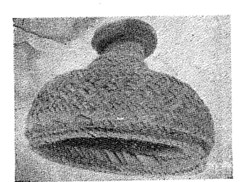
صندوق خشبى ملون وبالجانب العلوى منه صورة صاحبته



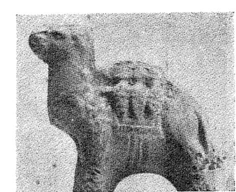
جنى البلح من النخل



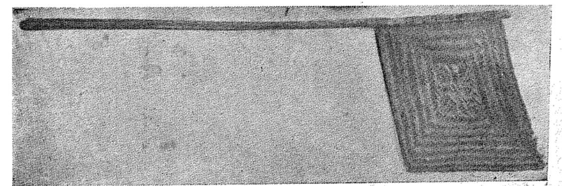
مطرقة



سلة

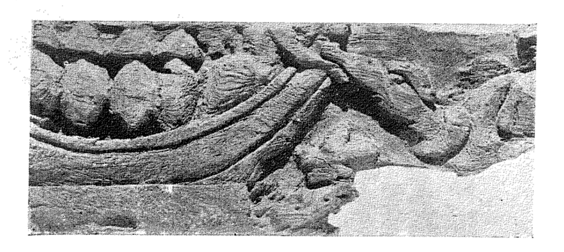


جمل محمل من جانبيه بثلاث جرات بها نبيذ أو زيت أو جعة



مروحة

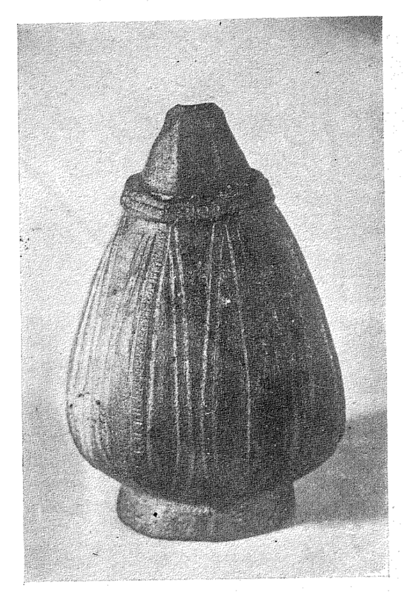
بعض مظاهر الحياة وأدواتها كما بدت فى مساكن كارانيس (قرية بالفيوم) من العصر الرومانى



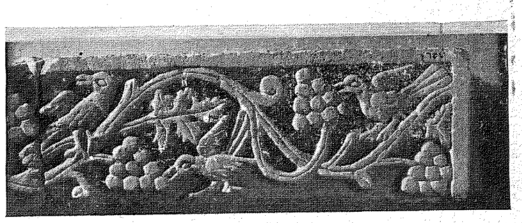
حفر على الخشب ، يمثل منظر مركب تسير فى النيل محملة بأوان فخارية عليها سدادات
من الطين وفى الجانب الأيمن نوتى المركب وهو يداعب بيده اليمنى تمساحاً .
(من العهد القبطى — القرن الرابع)



منظر يمثل أشجار الكرم وقد وقف شخص إلى اليسار يقطف عناقيده ،
بينما يقوم آخر إلى اليمين بتعبئتها ووضعها فى سلات ، تمهيداً لنقلها وعصرها نبيذاً
(من العصر القبطى)



إناء معدنى ، عليه زخرفة نباتية تمثل ورق شجرة اللوتس (بالمتحف القبطى)



نقش على حجر جيرى ، يمثل شجرة الكرم وبعض الطيور وهى تأكل حبـًا من عناقيد العنب
(القرن الخامس الميلادى)

الهيلينية فى مصر

هذه ترجمة كتاب فريد ، له طرافته وجدته ، لما يعرض له من دراسة تاريخية ، عولجت على أسس تحليلية ، مؤيدة بشتى الأسانيد البردية والنقوش اليونانية واللاتينية ، وما تكشف عنه من مستقبل الهيلينية وطابعها الهيلينى فى مصر ، مع ما لقيته فى أرضها من تشجيع أحياناً أو مناهضة أحياناً أخرى .

والكتاب فيما يتناوله ، قد رفع الستار عن كثير من الأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، وتناول النظم الاقتصادية والاجتماعية والحياة الفكرية والدينية السائدة فى مصر فى حقبة طولها نحو ألف سنة ، فجاء حاوياً فى جملته لتراث علمى جليل ، ومفصلاً لمظاهر القومية المصرية ، وهى تتصارع مع تيار الهيلينية الجارف فى صدر القرن الثالث قبل الميلاد إلى أن كتب لها النصر فى كثير من الميادين ، وطبعت الهيلينية آخر الأمر بطابع مصرى صميم .

ص
١٠٠